المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سورةُ التَّوبةِ

(المجلدُ الثامنُ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ التوبة

سُورةُ التَّوبةِ

سورةُ التَّوبةِ[1]

مِن أسماءِ هذه السُّورةِ: التَّوبةُ،[2] وبراءةُ،[3] والفاضِحةُ.[4]

(1) ذكر ابن عطية (٤/ ٢٥٢) بأنه «روي أن كتبة المصحف في مدة عثمان - رضي الله عنهما - اختلفوا في الأنفال وبراءة، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان؟ فتركوا فصلا بينهما مراعاة لقول من قال: هما سورتان، ولم يكتبوا ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مراعاة لقول من قال منهم: هما واحدة، فرضي جميعهم بذلك»، ثم انتقده مستندًا إلى دلالة العقل قائلًا: «وهذا القول يضعفه النظر أن يُختَلف في كتاب الله هكذا»، وذكر رواية أخرى «عن أبيّ بن كعب أنه قال: كان رسول الله - ﷺ - يأمرنا بوضع ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ في أول كل سورة، ولم يأمرنا في هذه بشيء، فلذلك لم نضعه نحن».

علَّق ابنُ عطية (٤/ ٢٥٢) على قول علي بن أبي طالب قائلًا: «ويُعْزى هذا القول للمُبَرِّد، وهو لعلي بن أبي طالب؟، وهذا كما يبدأ المخاطب الغاضِب: أما بعد.

دون تقريظ، ولا استفتاح بِتَبْجِيل».

(2) وَجهُ تَسمِيَتِها بالتَّوبةِ: ذِكرُ لَفظِ التَّوبةِ فيها أكثَرَ مِن مَرَّةٍ، ولأنَّها ذَكَرَت توبةَ اللهِ تعالى على الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا عن غَزوةِ تَبوك.

يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (241/2)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (227/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (95/10).

(3) وَجهُ تَسمِيَتِها ببراءة: ذِكرُ لَفظِ بَرَاءَةٌ في أوَّلِها، ولأنَّها ذَكَرَت البراءةَ مِن المُشرِكينَ وعُهودِهم.

يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (241/2)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (227/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (95/10).

(4) ووجهُ تسميتِها بالفاضحةِ أنَّها فضَحت المنافقين، وأنبأتْ بما في قلوبِهم مِن الكفرِ وسوءِ النِّيَّاتِ.

يُنظَر: ((تفسير ابن عطية)) (54/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (230/2)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (131/10).

فعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (قُلتُ لابنِ عبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عنهما: سورةُ التَّوبةِ؟ قال: التَّوبةُ: الفاضِحةُ).[5]

وعن البَراءِ رَضِيَ الله عنه، قال: (آخِرُ سُورةٍ نَزَلت سورةُ بَراءة).[6]

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (فتتبَّعْتُ القُرآنَ حتى وجَدْتُ آخِرَ سُورةِ التَّوبةِ مع أبي خُزيمةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ حتى خاتِمةِ سُورةِ البراءةِ).[7]

كتب عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: (تعلَّمُوا سورةَ براءة، وعَلِّمُوا نساءَكم سُورةَ النُّور).[8]

– سورةُ التَّوبةِ لا يُبدأُ فيها بـ(بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ) نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ.[9]

---

(5) أخرجه البخاري (4882)، ومسلم (3031).

(6) أخرجه البخاري (4364)، ومسلم (4364).

(7) أخرجه البخاري (7425).

(8) أخرجه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (1003).
وثَّق رجالَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (337/8).

(9) ممن نقَل الإجماعَ على ذلك: مكِّي، وأبو طاهرٍ المقرئُ، وابن الباذِش، وابنُ الجزري، والشِّربيني.
يُنظر: ((التبصرة)) لمكي (ص 248)، ((العنوان في القراءات السبع)) للمقرئ (ص: 65)، ((الإقناع في القراءات السبع)) لابن الباذش (ص: 53)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (264/1)، ((تفسير الشربيني)) (5/1).
ونقَل ابنُ الباذشِ أنَّه رُوِي عن أبي بكرٍ عن عاصمٍ أنَّه كان يكتبُ بينَ الأنفالِ والتوبةِ التَّسميةَ، وأنَّه يُروى ذلك عن زرٍّ عن ابن مسعودٍ، وأنَّه أثْبَته في مصحفِه، ثم قال: (ولا يُؤخَذُ بهذا).
فائدة:
قال ابنُ كثيرٍ: (وإنَّما لا يُبسمَلُ في أوَّلِها؛ لأنَّ الصَّحابةَ لم يكتُبوا البَسملةَ في أوَّلِها في المُصحَفِ الإمامِ، والاقتداءُ في ذلك بأميرِ المؤمنينَ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللهُ عنه وأرضاه).
((تفسير ابن كثير)) (101/4).
ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (314/8)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (277/20).

سُورةُ التَّوبةِ مَدَنيَّةٌ، ونقَلَ غيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك.(10)

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ التَّوبةِ:

1- رسمُ المنهاجِ الذي يجبُ أن يسلكَه المؤمنون في علاقاتِهم مع المشركينَ، ومعَ أهلِ الكتابِ، ومعَ المنافقينَ.

2- كشفُ الغطاءِ عن المنافقينَ وأصنافِهم وأوصافِهم، وفضحُ أفاعيلِهم في المجتمعِ المسلمِ.

3- بيانُ كثيرٍ مِن الأحكامِ والإرشاداتِ التي تحتاجُ إليها الدولةُ الناشئةُ.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولتْها سُورةُ التَّوبةِ:

1- البَراءةُ مِن المُشرِكينَ، والأمرُ بقِتالِهم، ونبذُ عُهودِهم، ومَنعُهم من دخولِ المَسجِدِ الحرامِ، والنَّهيُ عن مُوالاتِهم، ولو كانوا ذَوي قُربى.

2- الإشارةُ إلى وَقعةِ حَربِ حُنَينٍ، وتربيةُ نُفوسِ المؤمنينَ بِصِدقِ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى.

---

(10) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك القرطبيُّ، والفيروزآبادي، والبِقاعي، والقاسميُّ، ومحمد رشيد رضا.

يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (61/8)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (227/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (151/2)، ((تفسير القاسمي)) (342/5)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (131/10).

لكن قال ابنُ الجوزي؛ قال: (هي مدنيَّةٌ بإجماعِهم، سوى الآيتينِ اللَّتينِ في آخِرِها لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فإنَّها نزلَت بمكَّةَ).

((تفسير ابن الجوزي)) (230/2).

وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ إلَّا قولَه: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا ....

يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (241/2)، ((تفسير ابن عطية)) (3/3)، ((تفسير الرازي)) (521/15)، ((الإتقان)) للسيوطي (88/1).

3- إعلانُ الحَربِ على أهلِ الكِتابِ مِن العَرَبِ؛ حتى يُعطُوا الجِزيةَ، وأنَّهم ليسُوا بَعيدًا مِن أهلِ الشِّركِ، وأنَّ الجَميعَ لا تنفعُهم قُوَّتُهم ولا أموالُهم، وتقبيحُ قَولِ اليَهودِ والنَّصارى في حَقِّ عُزَيرٍ وعِيسى عليهما السَّلامُ، وتأكيدُ رِسالةِ الرَّسولِ الصَّادِقِ المُحِقِّ، وعيبُ أحبارِ اليَهودِ في أكْلِهم الأموالَ بالباطِلِ.

4- حُرمةُ الأشهُرِ الحُرُمِ، وضَبطُ السَّنَةِ الشَّرعيَّةِ، وإبطالُ النَّسيءِ الذي كان عند الجاهليَّةِ.

5- الحَثُّ على الجِهادِ والنَّفيرِ العامِّ في سبيلِ اللهِ بالأموالِ والأنفُسِ، وعَدَمُ الرُّكونِ إلى الدُّنيا وزِينَتِها.

6- نُصرةُ اللهِ سبحانه وتعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصاحِبِه الصِّدِّيقِ، وحِفظُه لهما مِن أعيُنِ الكُفَّارِ.

7- ذِكرُ أوصافِ المُنافِقينَ، ودسائسِهم الماكِرةِ، وذِكرُ أذاهُم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقَولِ والفِعلِ، وأيمانِهم الكاذِبةِ، وأمرِهم بالمُنكَرِ ونَهيِهم عن المَعروفِ، وكَذِبِهم في عُهودِهم وسُخريَتِهم بضُعَفاءِ المُؤمِنينَ، والأمر بجِهادِهم، والنَّهي عن الاستعانةِ بهم، ونَهْيِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الاستغفارِ لأحيائِهم، وعن الصَّلاةِ على أمواتِهم، وعَيب المُقَصِّرينَ على اعتذارِهم بالأعذارِ الباطلةِ.

8- ذَمُّ الأعرابِ في صلابَتِهم، وتمسُّكِهم بالدِّينِ الباطِلِ، ومَدحُ بَعضِهم بصَلابَتِهم في دِينِ الحَقِّ.

9- ذِكرُ السَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، وفَضلِهم، وذِكرُ المُعترِفِينَ بتقصيرِهم، وقَبولِ الصَّدَقاتِ مِن الفُقَراءِ، وقَبول تَوبةِ التَّائبينَ.

10- ذِكرُ بناءِ مَســجِدِ الضِّــرارِ للغَرَضِ الفاسِــدِ، ومَكرِ المُنافِقِينَ بالنَّبيِّ صــلَّى اللهُ عليه وســلَّم وأصحابِه.

11- ذِكرُ بناءِ مَســجِدِ قُباءٍ على الطَّاعةِ والتَّقوى، وأنَّه أولى أن يقومَ فيه النبيُّ صــلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

12- مُبايعةُ الحَقِّ تعالى عَبيدَه باشتِراءِ أنفُسِهم وأموالِهم، ومُعاوَضتهم عن ذلك بالجنَّةِ.

13- النَّهيُ عن الاستغفارِ للمُشركِينَ.

14- قَبولُ تَوبةِ المُتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبوك.

15- النَّفيرُ لِطَلَبِ العِلمِ والتَّفقُّهِ في دينِ الله تعالى، وتَبليغِ الدِّينِ.

16- الامتنانُ على المسلمينَ بأن أرسَلَ فيهم رسولًا منهم، جَبَلَه على صِفاتٍ فيها كلُّ خَيرٍ لهم، وأمْرُ اللهِ نَبِيَّه بالتوكُّلِ عليه في جَميعِ أحوالِه.

سُورةُ التَّوبةِ

الآيات (1-2)

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2)

غريب الكلمات:

بَرَاءَةٌ: أي: تَبَرُّؤٌ وقَطعٌ للمُوالاةِ والعِصمةِ والأمانِ، وأصلُ (برء): يدلُّ على التباعُدِ مِن الشَّيءِ ومُزايَلتِه.

فَسِيحُوا: أي: فَسِيروا واذهَبُوا، وأصلُ (سيح): يدلُّ على استمرارِ شَيءٍ وذَهابِه.

تفسير الآيتين:

بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (1).

أي: هذه بَراءةٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ المُشركينَ الذين عاهَدتُموهم، أيُّها المُسلِمونَ.[11]

فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2).

فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

(11) قال ابنُ جريرٍ: (العهودُ بين المُسلِمينَ والمُشركينَ على عهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُن يتولَّى عَقدَها إلَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو من يَعقِدُها بأمرِه، ولكنَّه خاطَبَ المؤمنينَ بذلك لِعلمِهم بمعناه، وأنَّ عُقودَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمَّتِه كانت عُقودَهم؛ لأنَّهم كانوا لكُلِّ أفعالِه فيهم راضينَ، ولعقوده عليهم مُسَلِّمين، فصار عَقْدُه عليهم كعُقودِهم على أنفُسِهم؛ فلذلك قال: إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِمَا كان مِن عَقدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعَهدِه).
((تفسير ابن جرير)) (303/11، 304)، ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (447/2).

أي: فَسِيُروا واذهَبُوا– أيُّها المُشرِكونَ–[12] في أرضِ اللهِ أينَما شِئتُم، آمِنينَ مُدَّةَ أربعةِ أشهُرٍ، لا يَنالُكم فيها مِن المُسلِمينَ سُوءٌ.[13]

---

(12) اخْتُلِفَ فيمن أُذِن له بالسياحة في الأرض أربعة أشهر مِمَّن برئ الله ورسوله إليه من العهد الذي كان بينه وبين رسول الله من المشركين على أقوال: الأول: مَن كان له عهد مع النبي – ﷺ –، فمَن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رُفِع إليها، ومَن كانت مدة عهده بغير أجل محدود قُصِر به على أربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين، يقتل حيثما أدرك ويؤسر إلا أن يتوب.

الثاني: مَن كان له عهد أُمهِل بالسياحة أربعة أشهر، ومَن لم يكن له عهد فإنّما كان أجله خمسين ليلة؛ عشرون من ذي الحجة والمحرم كله.

وهؤلاء انقسموا إلى فريقين في ابتداء مدة الإمهال وانقضائها: الفريق الأول: قالوا: مَن كان له عهد: فابتداء إمهاله يوم نزول براءة أول شوال، ومَن لم يكن له عهد فابتداء إمهاله يوم النداء، وهو يوم الحج الأكبر، وانقضاؤهما: بانسلاخ الأشهر الحرم، وذلك بانقضاء المحرَّم.

والفريق الثاني: قالوا: مَن كان له عهد، ومن لم يكن له عهد، فابتداء الإمهال لهما واحد: وهو يوم النداء بالحج، ثم مَن كان له عهد فانقضاء إمهاله إلى العاشر من شهر ربيع الآخر، ومن لم يكن له عهد فانقضاء إمهاله بانسلاخ الأشهر الحرم، وذلك بانقضاء المحرَّم.

الثالث: ابتداء الإمهال لِمَن كان له عهدٌ ومَن لم يكن له عهدٌ مِن المشركين وانقضاؤه لجميعهم وقتٌ واحدٌ، قالوا: وكان ابتداؤه يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه بانقضاء عشرٍ من ربيعٍ الآخر.

الرابع: ابتداء الإمهال لِمَن كان له عهدٌ ومَن لم يكن له عهد من المشركين وانقضاؤه لجميعهم وقتٌ واحدٌ، قالوا: كان ابتداؤه يوم نزلت براءة، وانقضاؤه بانقضاء الأشهر الحرُم، وذلك بانقضاء المحرَّم.

الخامس: مَن كان له عهد أقل من أربعة أشهر رُفِع إليها، ومَن كان له عهد أكثر من أربعة أشهر فإنه – ﷺ – أُمِر أن يُتِمَّ له عهده إلى مدته.

ورجَّح ابنُ جرير (١١/ ٣١١) مستندًا إلى السنة، وظاهر الآية أنّ «الأجل الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين، وأَذِن لهم بالسياحة فيه بقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ إنّما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله – ﷺ –، ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يُظاهِروا عليه فإنّ الله –جلّ ثناؤه– أمَر نبيَّه – ﷺ – بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿إلا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ولَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أحَدًا فَأَتِمُّوا إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]».

ثم قال (١١/ ٣١٨): «وعلى ذلك دلَّ ظاهرُ التنزيل، وتظاهرت به الأخبار عن رسول الله – ﷺ –».

وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ.

وبيَّن ابنُ جرير أنّ ابتداء الأشهر الأربعة -لِمَن كان له هذا الإمهال- مِن يوم الحج الأكبر، وانقضاؤها بانقضاء عشرٍ من ربيعٍ الآخر، وانتَقَدَ (١١/ ٣١٩) مستندًا إلى الدلالة العقلية مَن قال بأنّ الإمهال كان في شوال مِن وقت نزول براءة بأنّ ذلك «غيرُ جائزٍ أن يكون صحيحًا؛ لأنّ المجعول له أجلَ السياحة إلى وقتٍ محدود إذا لم يَعْلَم ما جُعِل له -ولا سيَّما مع عَهْدٍ له قد تَقَدَّم قبل ذلك بخلافه- فكمَن لم يُجعَل له ذلك؛ لأنه إذا لم يَعْلَم ما له في الأجل الذي جُعِل له، وما عليه بعد انقضائه، فهو كهيئته قبل الذي جُعِل له من الأجل، ومعلومٌ أنّ القوم لم يعلموا بما جُعِل لهم من ذلك إلا حين نودي فيهم بالموسم».

وكذا انتَقَدَ ابنُ عطية (٤/ ٢٥٤) مَن قال بذلك، فقال: «اعتُرِض هذا بأنّ الأجل لا يلزم إلا مِن يوم سُمِع».

إلا أنّه التمس له وجهًا يمكن أن يُحمَل عليه، فقال: «ويحتمل أنّ البراءة قد كانت سُمِعت من أول شوال، ثم كرر إشهارها مع الأذان يوم الحج الأكبر».

وحكى ابنُ كثير (٧/ ١٣٨) هذا القول عن الزهري، ثم انتَقَدَه بنحو ما ذكر ابنُ جرير، وابنُ عطية.

وانتَقَدَ ابنُ جرير (١١/ ٣١٢) مستندًا إلى القرآن مَن ظنَّ بأنّ قوله تعالى: ﴿فَإذا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وجَدْتُمُوهُمْ﴾ يدلُّ على أنّ الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحُرُم قتلَ كلِّ مُشْرِك، بأنّ الآية التي تتلو ذلك -وهي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وعِنْدَ رَسُولِهِ إلا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرامِ فَما اسْتَقامُوا لَكُمْ فاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]- تُنبِئُ عن صحة ما قال «فهؤلاء مشركون، وقد أمَر الله نبيَّه -ﷺ- والمؤمنين بالاستقامة لهم في عهدهم ما استقاموا لهم بتَرْكِ نَقْضِ صُلْحِهم، وتَرْكِ مظاهرة عَدُوِّهم عليهم».

(13) ذكر ابنُ تيمية (٣/ ٣٠١) ثلاثة أقوال في تعيين الأشهر الحرم في هذه الآية: الأول: أنّها الأشهر الحرم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، المذكورة في قوله تعالى: ﴿منها أربعة حرم﴾.

الثاني: أولها يوم النحر، وآخرها العاشر من ربيع الآخر.

الثالث: أن آخرها عاشر من ربيع الأول.

ورجَّح ابنُ تيمية القول الثاني مستندًا إلى الإجماع، وهو قول مجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، وسفيان الثوري.

وذكر أنّ القول الثاني يُحكى عن ابن عباس، ثم انتَقَدَه بقوله: «ولا يصِحُّ عنه».

وجمع بين القولين الثاني والثالث بقوله: «ولا منافاة بين القولين؛ فإنه باتفاق الناس أنّ الصديق نادى بذلك في الموسم في المشركين: إنّ لكم أربعة أشهر تسيحون فيها، ويوم النحر كان ذلك العام بالاتفاق عاشر ذي القعدة».

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُشرِكونَ- أنَّكم إن اختَرْتُم الاستمرارَ على الكُفرِ في مُدَّةِ عَهْدِكم- وأنتم آمِنونَ فيها مِن المُسلِمينَ- غيرُ فائِتينَ مِن عِقابِ اللهِ إن أرادَه بكم؛ فأنتُم على أرضِه وفي سُلطانِه، وتَحتَ قُدرَتِه، فبادِرُوا بالتَّوبةِ.

وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُشرِكونَ- أنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافرينَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

سُورَةُ التَّوبَةِ

الآيات (3–4)

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4)

غريب الكلمات:

وَأَذَانٌ: أي: إعلامٌ، وأصلُ (أذن): يدلُّ على العِلمِ والإعلامِ.

يُظَاهِرُوا: أي: يُعاوِنوا ويُعِينوا، والظَّهيرُ: العَوْنُ، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ.

تفسير الآيتين:

وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3).

وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ.

أي: وهذا إعلامٌ مِنَ اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، يومَ النَّحرِ[14] بأنَّ اللهَ بريءٌ من عهودِ المُشركين، ورسولُه بريءٌ منها كذلك.[15]

عن حُميد بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ، أنَّ أبا هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((بعثَني أبو بكرٍ في تلك الحَجَّةِ في مؤذِّنين بَعَثَهم يومَ النَّحرِ يُؤَذِّنونَ بمِنًى: ألَّا يُحجَّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفَ بالبَيتِ عُريانٌ، قال حُميدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ: ثمَّ أردَفَ رَسولُ اللهِ – ﷺ – بعليِّ بنِ أبي طالِبٍ، وأمَرَه أن يُؤَذِّنَ ببَراءة،

---

(14) قال ابنُ جريرٍ: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصِّحةِ عندنا: قولُ من قال: يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ يومُ النَّحرِ؛ لتَظاهرِ الأخبارِ عن جماعةٍ مِن أصحابِ رسولِ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ عَلِيًّا نادى بما أرسَلَه به رسولُ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ الرِّسالَةِ إلى المشرِكينَ، وتَلا عليهم براءةَ يومَ النَّحرِ.
هذا مع الأخبارِ الَّتي ذكَرْناها عن رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال يومَ النَّحرِ: أتدرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ.
وبعدُ: فإنَّ اليومَ إنَّما يضافُ إلى معنَى الَّذي يكونُ فيه، ويومُ الحجِّ، يومٌ يحجُّونَ فيه.
وإنَّما يَحُجُّ النَّاسُ ويَقْضونَ مَناسكَهم يومَ النَّحرِ؛ لأنَّ في ليلةِ نَهارِ يومِ النَّحرِ الوقوفَ بعرفةَ كان إلى طلوعِ الفجرِ، وفي صَبيحتِها يُعْمَلُ أعمالُ الحجِّ، ...
والحجُّ كُلُّه يومَ النَّحرِ).
((تفسير ابن جرير)) (336/11).
وقال ابنُ جرير أيضًا: (الحجُّ الأكبَرُ: الحَجُّ؛ لأنَّه أكبَرُ من العمرة؛ بزيادةِ عَمَلِه على عَمَلِها...
وأمَّا الأصغَرُ فالعُمرةُ؛ لأنَّ عَمَلَها أقلُّ مِن عَمَلِ الحَجِّ).
((تفسير ابن جرير)) (339/11).
وقيل في معنَى الحجِّ الأكبرِ، وسببِ تسميتِه غيرُ ذلك.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (235/2).
(15) قال السعدي: (أمَرَ النَّبيُّ مُؤَذِّنَه أن يُؤَذِّنَ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ، وهو يومُ النَّحرِ، وقتَ اجتماعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، من جميعِ جزيرةِ العَرَبِ، أن يُؤَذِّنَ بأنَّ اللهَ بريءٌ ورسولُه من المشركينَ، فليس لهم عنده عهدٌ وميثاقٌ، فأينما وُجِدوا قُتِلوا، وقيل لهم: لا تقرَبوا المسجِدَ الحَرامَ بعد عامِكم هذا، وكان ذلك سنةَ تِسعٍ من الهجرةِ، وحجَّ بالنَّاسِ أبو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه، وأذَّنَ ببَراءةَ– يومَ النَّحرِ– ابنُ عَمِّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه).
((تفسير السعدي)) (ص: 328).

قال أبو هريرة: فأذَّنَ معنا عليٌّ يومَ النَّحرِ في أهلِ مِنًى ببَراءةَ، وألَّا يحُجَّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يطوفَ بالبَيتِ عُريانٌ)).[16]

فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.

أي: فإن تُبتُم مِن كُفرِكم- أيُّها المُشرِكونَ- فهو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ.

وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي.

أي: وإن أعرَضْتُم- أيُّها المُشرِكونَ- عن الإيمانِ وطاعةِ اللهِ ورَسولِه، وثبَتُّم على كُفرِكم؛ فأيقِنُوا أنَّكم غيرُ فائِتينَ مِن عِقابِ اللهِ؛ فأنتم تحتَ قَهرِه وقُدرتِه.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

أي: وبَشِّرْ- يا مُحمَّدُ- الكافِرينَ بعذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ، يُصيبُهم في الدُّنيا والآخرةِ.

إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4).

(16) رواه البخاري (4655) واللفظ له، ومسلم (1347).

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا.

أي: هذه البراءةُ التَّامَّةُ المُطلَقةُ مِن جَميعِ المُشرِكينَ إلَّا مَن عاهَدْتُموهم- أيُّها المُؤمِنونَ- ثمَّ لم يَنقُصوكم شيئًا ممَّا عاهَدْتُموهم عليه، ولم يُعِينوا عليكم أحدًا مِن أعدائِكم.(17)

---

(17) قال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى وَصَفَهم بأمرَينِ: أحدُهما: قوله: ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ والثاني: قولُه: وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا والأقرَبُ أن يكونَ المرادُ مِن الأوَّلِ أن يُقْدِموا على المُحارَبةِ بأنفُسِهم، ومن الثَّاني: أن يُهيجُوا أقوامًا آخَرينَ ويَنصُروهم ويُرَغِّبوهم في الحَربِ).

((تفسير الرازي)) (527/15).

اختُلِفَ في المعنيين بقوله: ﴿إلا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرامِ﴾ على أقوال: الأول: أنهم جَذِيمَة بكر كنانة.

الثاني: أنهم قريش.

الثالث: أنهم قوم من خزاعة.

ورجَّح ابنُ جرير (١١/ ٣٥٣) مستندًا إلى دلالة التاريخ القول الأول، وهو قول السدي، ومحمد بن عباد بن جعفر، وابن إسحاق، وانتقد القولين الآخرين، فقال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قولُ مَن قال: هم بعض بني بكر من كنانة، وإنما قلتُ: هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب لأنّ الله تعالى أمر نبيَّه والمؤمنين بإتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام، ما استقاموا على عهدهم.

وقد بيّنّا أن هذه الآيات إنما نادى بها عليٌّ؟ في سنة تسع من الهجرة، وذلك بعد فتح مكة بسنة، فلم يكن بمكة من قريش ولا خزاعة كافرٌ يومئذٍ بينه وبين رسول الله - ﷺ - عهدٌ فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام على عهده؛ لأنّ مَن كان منهم من ساكني مكة كان قد نقض العهد، وحورب قبل نزول هذه الآيات».

وانتقد ابنُ عطية (٤/ ٢٦٤) مستندًا إلى دلالة التاريخ القول الثالث بقوله: «وهو مردود بإسلام خزاعة عام الفتح».

وانتقد قولَ ابن زيد في القول بأنهم قريش، وأنّ هذه الآية نزلت فلم يستقيموا ...

الخ، مستندًا إلى دلالة التاريخ قائلًا: «وهو ضعيف مُتناقِض؛ لأنّ قريشًا وقت الأذان بالأربعة الأشهر لم يكن منهم إلا مسلم، وذلك بعد فتح مكة بسنة، وكذلك خزاعة».

فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ.

أي: فأَوفُوا- أيُّها المؤمنونَ- إلى هؤلاء المُشرِكِينَ، العَهدَ الذي بينكم وبَينَهم ولا تَنقُضُوه، إلى انتهاءِ المُدَّةِ التي اتَّفَقتُم عليها.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يتَّقونَه، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه ويجتَنِبونَ مَعاصِيَه، ومن ذلك أنَّهم يُوفُونَ بِعُهودِهم ولا يَنقُضونَها.

سُورةُ التَّوبةِ

الآيتان (5–6)

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (6)

غريب الكلمات:

انْسَلَخَ: أي: انقَضَى ومَضَى وخرَج، وأصلُ (سلخ): يدلُّ على إخراجِ الشَّيءِ عَن جِلدِه؛ مِن: سَلَخْتُ جِلدَ الشَّاةِ سَلخًا.

وَاحْصُرُوهُمْ: أي: احبِسُوهم، وامنَعوهم، وأصلُ (حصر): يدلُّ على حبسٍ ومَنعٍ.

مَرْصَدٍ: أي: طَريقٍ ومَرقَبٍ، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التَّهيُّؤِ لمُراقَبةِ شَيءٍ على مَسلَكِه.

فَخَلُّوا: أي: اتركُوهم، ولا تتعَرَّضوا لهُم، وأصلُ (خلو): يدلُّ على تعَرّي الشَّيءِ من الشَّيءِ.

اسْتَجَارَكَ: أي: استأمَنَك، وسأَلَ جِوارَك، أي: أمانَك وذِمامَك.

مَأْمَنَهُ: أي: دارَ قَومِه، والموضِعَ الذي يأمَنُ فيه، وأصلُ الأمنِ: يدلُّ على طُمأنينةِ النَّفسِ، وزوالِ الخَوفِ.

تفسير الآيتين:

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5).

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ.

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ منسوخةٌ بقولِه تعالى: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً [محمد: 4]، وقيل: هي محكمةٌ.[18]

---

(18) قال النحَّاس: (للعُلَماءِ فِي هذه الآيةِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ فمنهم من قال: هي منسوخةٌ، وقال: لا يحِلُّ قَتلُ أسيرٍ صَبرًا، وإنَّما يُمَنُّ عليه أو يُفادى، وقالوا: الناسِخُ لها قولُه تعالى: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً [محمد: 4] فمِمَّن قال هذا: الحسَنُ...

وهذا قولُ الضحَّاك، والسُّدِّي...

وهو قولُ عطاء...

ومِن العلماءِ من قال: لا يجوز في الأُسارى من المشركين إلَّا القتلُ، ولا يجوز أن يؤخَذَ منهم فِداءٌ، ولا يُمَنُّ عليهم، وجعَلوا قولَه تعالى: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [التوبة: 5] ناسخًا لقولِه تعالى: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً [محمد: 4] وهذا قولُ قتادة ومرويٌّ عن مجاهد...

والقول الثالث: أنَّ الآيتين جميعًا مُحكَمتانِ، وهو قولُ ابنِ زيد، وهو قول صحيحٌ بيِّنٌ؛ لأنَّ إحداهما لا تنفي الأُخرَى، قال جلَّ وعز: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ [التوبة: 5] أي: وخُذوهم أَسرى للقتلِ أو الْمَنّ أو الفِداء، فيكونُ الإمامُ ينظرُ في أمورِ الأُسارى على ما فيه الصَّلاحُ؛ مِن القتل أو المَنّ أو الفِداء، وقد فعل هذا كلَّه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في حروبِه).

((الناسخ والمنسوخ)) (ص: 493-494)، ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (2/ 464-465).

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ.

وهذه الآيةُ هي آيةُ السَّيفِ، فمن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّها ناسخةٌ لجميع الآياتِ التي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم يقاتِلْ من المشركين، ومنهم من ذهب إلى أنَّها ليست ناسخةً، ولكنَّ الأحوالَ تختلفُ، فإذا قوِيَ المسلمون وصارت لهم السُّلطة والقُوَّة والهيبة استَعمَلوا آيةَ السيف وما جاء في معناها وعمِلوا بها، وإذا ضَعُفَ المسلمون ولم يقوَوا على قتالِ الجميعِ، فلا بأسَ أن يقاتِلوا بحسَبِ قُدرتِهم، ويكُفُّوا عمَّن كفَّ عنهم إذا لم يستطيعوا ذلك، فيكون الأمرُ إلى وليِّ الأمر؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتلَ قومًا دون قومٍ، على حسب القوَّة والقدرة والمصلحة للمسلمين، لا على حسَبِ هواه وشَهوتِه، ولكنْ ينظرُ للمسلمين وينظرُ لحالهم وقوَّتِهم.

قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهرُ وأبينُ في الدليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدلَّة، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّر).

((مجموع فتاوى ابن باز)) (3/194).

ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: 221).

أي: فإذا انقضَتِ الأشهُرُ الحُرُمُ،[19] فاقتُلوا المُشرِكينَ[20] أينَما لَقِيتُموهم من الأرضِ.[21]

---

(19) قيل: المُرادُ بالأشهُرِ الحُرُمِ: الأشهُرُ التي جعَلَها اللهُ لِلمُشركينَ يَسيحونَ في الأرضِ آمنينَ، لا يُقاتِلُهم المُسلِمونَ فيها، وأوَّلُها: يومُ إعلامِهم بالبَراءةِ؛ يوم النَّحرِ: العاشِر مِن ذي الحِجَّةِ مِن السَّنةِ التَّاسعةِ، وآخِرُها: العاشِرُ مِن ربيعٍ الآخر من السَّنة العاشرةِ للهِجرةِ.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ تيمية، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ والشنقيطيُّ.

ونسبه ابنُ تيميَّة إلى جمهورِ العلماءِ.

يُنظر: ((الصفدية)) (2/320)، ((الجواب الصحيح)) (1/175)، ((زاد المعاد)) (3/144، 145)، ((أحكام أهل الذمة)) (2/880)، ((تفسير ابن كثير)) (4/110، 111)، ((تفسير السعدي)) (ص: 329)، ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص:110).

قال الشنقيطي: (وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ العوفِيِّ عنه وبه قال مجاهدٌ وعمرُو بنُ شعيبٍ ومحمدُ بنُ إسحاقَ وقتادةُ وَالسُّدِّيُّ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ).

((دفع إيهام الاضطراب)) (ص:110).

قال أبو حيان: (الظَّاهِرُ أنَّ هذه الأشهُرَ هي التي أُبيحَ للنَّاكثينَ أن يَسيحوا فيها، ووُصِفَت بالحُرُمِ؛ لأنَّها مُحَرَّمٌ فيها القِتالُ).

((تفسير أبي حيان)) (5/371).

وقيل: المرادُ بالأشهُرِ الحُرُمِ: ذو القَعدةِ وذو الحِجَّة ومُحَرَّم، والمعنى: فإذا انقضى شَهرُ مُحَرَّم فاقتلوا المُشركينَ حيث لَقِيتُموهم، وهذا اختيارُ ابن جرير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/343).

(20) قوله تعالى: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ عامٌّ في كلِّ مُشرِكٍ، لكنَّ السُّنَّةَ خَصَّت منه المرأةَ والراهبَ والصبيَّ وغيرَهم.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (8/72).

(21) قال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ الكريمةُ هي آيةُ السَّيفِ).

((تفسير ابن كثير)) (4/112).

وقد اختلف العلماءُ في هذه الآيةِ الكريمةِ هل هي ناسخةٌ لقوله تعالى: وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ [البقرة: 191] على قولين: فذهب الجمهورُ، ومنهم ابنُ جريرٍ، إلى أنَّ آيةَ السيفِ ناسخةٌ لآيةِ البقرةِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (3/298)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: 111)، ((تفسير ابن عطية)) (1/263)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/266).

وقيل: الآيةُ محكمةٌ، وممن ذهَب إلى ذلك: ابنُ الجوزي- ونسَبه إلى مجاهدٍ والمحققين- والقرطبيُّ، ونسَبه لطاوس وأبي حنيفة وأصحابِه.

يُنظر: ((نواسخ القرآن)) (1/251- 254)، ((تفسير القرطبي)) (2/351).

وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ.

أي: وخُذوا- أيُّها المؤمِنونَ- الكُفَّارَ أسرَى، وضيِّقوا عليهم، وامنعوهم مِن الانتشارِ في الأرضِ، والدخولِ إليكم، وحاصِروهم إن تحصَّنوا، واقعُدوا لِقَتلِهم أو أسْرِهم على كلِّ طَريقٍ يمُرُّونَ منه.

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ.

أي: فإن رجَعَ المُشرِكونَ عن الكُفرِ إلى الإيمانِ، وأدَّوا ما فرَضَ اللهُ عليهم من الصَّلَواتِ؛ بالإتيانِ بها على وجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ مُستحقِّيها؛ فاترُكوا- أيُّها المُسلِمونَ- طَريقَهم، لا تقعُدُوا عليها، ودَعُوهم يذهبونَ حيثما يَشاؤونَ، دون أن تتعرَّضوا لهم.

عن ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((أُمِرتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ)).[22]

إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ غفورٌ لِمَن تاب مِن عِبادِه، فيستُرُ ذُنوبَهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه أنْ وفَّقهم للتَّوبةِ، وقَبِلَها منهم، ولا يُعاقِبُهم بعدها.

---

(22) رواه البخاري (25) واللفظ له، ومسلم (3100).

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (6).

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ.

أي: وإنِ استأمَنَك- يا محمَّدُ- أحدٌ مِن المُشرِكينَ الذين أمرتُك بقِتالِهم، فأمِّنْه حتى تتلوَ عليه القرآنَ، ويسمعَه، ويفهمَ ما أُنزِل عليك؛ ليكونَ على بصيرةٍ مِن أمرِه، وتقومَ عليه حُجَّةُ اللَّهِ.[23]

---

(23) قال ابن عاشور: (لم يُبَيِّنْ سببَ الاستجارة؛ لأنَّ ذلك مُختلِفُ الغرَض، وهو موكولٌ إلى مقاصِدِ العُقَلاءِ؛ فإنَّه لا يستجيرُ أحَدٌ إلَّا لغَرَضٍ صحيحٍ.

ولَمَّا كانت إقامةُ المُشرِك المستجير عند النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسلامُ لا تخلو من عَرْضِ الإسلامِ عليه، وإسماعِه القُرآنَ- سواءٌ كانت استجارتُه لذلك أم لِغَرَضٍ آخرَ؛ لِما هو معروفٌ من شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الحِرصِ على هُدَى النَّاسِ- جُعل سَماعُ هذا المُستجيرِ القُرآنَ غايةً لإقامَتِه الوقتيَّةِ عند الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدلَّت هذه الغايةُ على كلامٍ محذوفٍ إيجازًا، وهو ما تشتَمِلُ عليه إقامةُ المستجيرِ من تفاوُضٍ في مُهِمٍّ، أو طلَبِ الدُّخولِ في الإسلامِ، أو عَرْضِ الإسلام عليه، فإذا سَمِعَ كَلامَ الله فقد تمَّت أغراضُ إقامَتِه؛ لأنَّ بَعضَها من مَقصِدِ المُستجيرِ وهو حَريصٌ على أن يبدأَ بها، وبعضَها من مَقصِدِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو لا يترُكه يعودُ حتى يعيدَ إرشادَه، ويكونَ آخِرَ ما يدورُ معه في آخرِ أزمانِ إقامَتِه إسماعُه كلامَ اللهِ تعالى).

((تفسير ابن عاشور)) (10/118، 119).

وقال ابن كثير: (ومن هذا كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطي الأمانَ لِمَن جاءَه مُسترشِدًا أو في رسالةٍ، كما جاءَه يومَ الحُدَيبيَةِ جماعةٌ مِن الرُّسُلِ مِن قُريشٍ؛ منهم: عُروةُ بن مسعودٍ، ومِكْرَزُ بنُ حَفصٍ، وسُهيلُ بنُ عَمرٍو، وغيرُهم واحدًا بعد واحدٍ، يتردَّدونَ في القضيَّةِ بينه وبين المشركين، فرَأَوْا من إعظامِ المُسلِمينَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما بَهَرَهم، وما لم يُشاهِدوه عند مَلِكٍ ولا قَيصرٍ، فرجَعوا إلى قَومِهم فأخبَرُوهم بذلك، وكان ذلك وأمثالُه من أكبَرِ أسبابِ هِدايةِ أكثَرِهم...

والغرَضُ أنَّ مَن قَدِمَ من دار الحَربِ إلى دار الإسلامِ في أداءِ رسالةٍ أو تجارةٍ، أو طلَبِ صُلحٍ أو مُهادنةٍ، أو حَملِ جِزيةٍ، أو نحوِ ذلك من الأسبابِ، فطَلَبَ مِن الإمامِ أو نائبِه أمانًا؛ أُعطِيَ أمانًا ما دام متردِّدًا في دار الإسلامِ، وحتى يرجِعَ إلى مأمَنِه ووطَنِه.

لكِن قال العلماءُ: لا يجوزُ أن يُمكَّنَ مِن الإقامةِ في دارِ الإسلامِ سَنةً، ويجوزُ أن يُمكَّنَ من إقامةِ أربعةِ أشهُرٍ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعةِ أشهُرٍ ونقَصَ عن سنةٍ قولانِ، عن الإمامِ الشافعيِّ وغيرِه من العُلَماءِ- رَحِمَهم الله).

ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ.

أي: ثم إنْ لم يُسلِمْ، فاترُكْه يرجِعْ إلى بلَدِه ودِيارِه التي يأمَنُ فيها.[24]

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ.

أي: أعطِ- يا مُحَمَّدُ- المُشركينَ الأمانَ، حتى يسمَعُوا القرآنَ؛ مِن أجلِ أنَّهم قومٌ جَهَلةٌ لا يَعلمونَ دِينَ اللهِ وثَوابَه وعِقابَه، فيحصُلَ لهم العِلمُ بِسَماعِه، وتقومَ عليهم حُجَّةُ اللهِ على عبادِه.

((تفسير ابن كثير)) (4/113- 114).

(24) قال ابنُ عاشور: (معنى أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ أمهِلْه ولا تُهِيِّجه، حتى يبلُغَ مأمَنَه، فلمَّا كان تأمينُ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه سببًا في بلوغِه مأمَنَه، جعَلَ التأمينَ إبلاغًا، فأمر به النبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذا يتضمَّنُ أمرَ المُسلِمينَ بألَّا يتعرَّضوا له بسوءٍ حتى يبلُغَ بلادَه التي يأمَنُ فيها، وليس المرادُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتكلَّفُ تَرحيلَه، ويبعَثُ مَن يُبلِّغُه، فالمعنى: اترُكْه يبلغْ مَأمَنَه).

((تفسير ابن عاشور)) (10/119).

سُورةُ التَّوبةِ

الآيتان (7–8)

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا
يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8)

غريب الكلمات:

يَرْقُبُوا: أي: يحفَظُوا ويُراعُوا، وأصلُ (رقب): يدلُّ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ.

إِلًّا: الإلُّ: الحِلْفُ والقَرابةُ والعهد والعقد، ويأتي أيضًا بمعنى الله، وأصلُ (ألل) هنا يدلُّ على السَّبَبِ يُحافَظُ عليه.

ذِمَّةً: الذِّمَّةُ: العَهدُ والمِيثاقُ، وما يجِبُ أن يُحفَظَ ويُحمى، وأصلُ (ذمم): خلافُ الحَمدِ، وسُمِّي العَهْدُ ذِمامًا؛ لأنَّ الإنسانَ يُذَمُّ على إضاعتِه منه.

تفسير الآيتين:

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7).

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ.

أي: كيف يكونُ للمُشرِكينَ بِرَبِّهم عهدُ أمانٍ عندَ اللهِ وعندَ رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟! هذا أمرٌ مُستبعَدٌ؛ فهؤلاءِ قَومٌ يُضمِرونَ الغَدرَ، والواجِبُ على المؤمنينَ قَتلُهم أينَما وَجَدُوهم؛ لِكُفرِهم باللهِ ورسولِه، ومُحارَبتِهم أولياءَه.[25]

---

(25) وقال الشنقيطي: (المعنى: أنَّ نَبذَ عُهودِهم إليهم حُكمٌ في غايةِ الصَّوابِ، واقِعٌ في موقِعِه، موضوعٌ في موضِعِه؛ لأنَّهم أهلُ خُبث، وأهلُ عَداوةٍ ومكْرٍ للإسلامِ، يستحِقُّونَ نَبذَ عُهودِهم إليهم، وأن يكونوا حَربًا، إلَّا الطَّائفةَ الذين ثَبَتوا.
وهذا معنى قَولِه: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ يأمنونَ به على أنفُسِهم وأموالِهم عِنْدَ اللَّهِ يأمُرُ نَبيَّه بالوفاء به وَعِنْدَ رَسُولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعمَلُ لهم بمُقتضاه).
((العذب النمير)) (5/285).

إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أي: لا ينبغي أن يكونَ للمُشرِكِينَ عَهدٌ يأمَنونَ به عَدا الذينَ عاهَدْتُموهم -[26] أيُّها المُؤمِنونَ- يومَ الحُدَيبيَةِ عند المسجِدِ الحرامِ، وهم مُوفُونَ بعَهدِهم، مُستقيمونَ عليه.[27]

---

(26) قال ابنُ إسحاق: (هي قبائِلُ بني بكرٍ، الذين كانوا دخَلُوا في عقدِ قُريشٍ وعَهدِهم يومَ الحُدَيبيَة إلى المدَّةِ التي كانت بين رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبين قُريش، فلم يكن نَقَضَها إلا هذا الحيُّ من قريشٍ وبنو الديل من بكر، فأُمِرَ بإتمامِ العهد لِمَن لم يكن نقضَ عَهْدَه من بني بكرٍ إلى مُدَّتِه).

رواه ابن جرير (351/11).

يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (544/2)، ((تفسير ابن جرير)) (353/11، 354)، ((البسيط)) للواحدي (301/10 - 303).

وقال الشنقيطي: (أربعُ قبائِلَ مِن كِنانةَ بنِ مُدرِكةَ كانوا أهلَ عَهدٍ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع قريشٍ، ثم نقض العهدَ منهم بنو الدِّيلِ بنِ بكرِ بنِ عبدِ مَناةَ بنِ كِنانةَ، بأن عَدَوْا على خُزاعةَ، ونقَضَ معهم قريشٌ؛ حيث أعانوهم على الخُزاعيِّينَ، وبَقِيَ بنو ضَمْرةَ، وبنو جُذَيمةَ بنِ عامرٍ، وبنو مُدلجٍ على عهدِهم، لم ينقُضوا، وهم الذين استَثْناهم اللهُ، وهذه المُعاهدةُ وقع عهدُها في الحُدَيبيَةِ كما عليه جميعُ المؤرِّخينَ.

واللهُ جلَّ وعلا ذكَرَ أنَّها في المسجِدِ الحرام، والتَّحقيقُ أنَّ الحُدَيبيَةَ بعضُها في الحِلِّ وبعضُها في الحرمِ.

وهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مُعاهَدةَ الحُدَيبيَةِ وقعت في الطَّرَف منها الذي هو مِن الحَرَمِ؛ لأنَّه جرت العادةُ أنَّ اللهَ ربما أطلق المسجِدَ الحَرامَ وأراد به جميعَ الحَرَمِ، فالمرادُ به هنا: إلَّا الذين عاهَدْتم في حَرَمِ اللهِ عند الحُدَيبيَة).

((العذب النمير)) (286/5).

(27) قال ابنُ القيم: (هؤلاءِ - واللهُ أعلم- هم المُستَثنَونَ في تلك الآية، وهم الذين لهم عَهدٌ إلى مُدَّةٍ؛ فإنَّ هؤلاء لو كان عَهدُهم مُطلقًا لَنُبِذَ إليهم، كما نُبِذَ إلى غيرهم، وإن كانوا مُستقيمين كافِّينَ عن قتاله، فإنَّه نُبِذَ إلى جميعِ المشركين؛ لأنه لم يكن لهم عَهدٌ مُؤجَّلٌ يستحِقُّونَ به الوفاءَ، وإنَّما كانت عهودُهم مُطلقةً غيرَ لازمةٍ، كالمُشاركة، والوَكالة، وكان عهدُهم لأجل المصلحة، فلمَّا فَتَحَ اللهُ مكَّةَ، وأعزَّ الإسلامَ، وأذلَّ أهلَ الكُفرِ، لم يبقَ في الإمساكِ عن جِهادِهم مصلحةٌ، فأمَرَ اللهُ به، ولم يأمُرْ به حتى نَبَذَ إليهم على سواءٍ؛ لِئَلَّا يكون قتالُهم قبل إعلامِهم غَدرًا).

((أحكام أهل الذمة)) (884/2).

وقال أيضًا: (النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرسل أبا بكرٍ، وأردَفَه بعليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهما يؤذِّنُ بسورةِ «براءة»، فنبذ العهودَ إلى جميعِ المُشركينَ مُطلقًا، لم ينبِذْها إلى مَن نقضَ دونَ مَن لم ينقُضْ.

وأيضًا فالقرآنُ نبَذَها إلى المشركين، وإنَّما استثنى مَن كان له مُدَّةٌ ووفاءٌ، فمن كان فيه هذانِ الشَّرطانِ لم يُنبَذْ إليه.

فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ.

أي: فما دامَ المُشرِكونَ مُستَقيمينَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- على ما تعاهَدْتُم عليه، متمسِّكينَ بما عاقَدْتُموهم عليه، فاستَقِيموا لهم كذلك إلى انتهاءِ مُدَّةِ العَهدِ، وأوْفُوا لهم بعهدِهم، ولا تَبدَؤُوهم بنَقضِه.

إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يتَّقونَ اللهَ، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويجتَنِبونَ نَواهِيَه، ومن ذلك أنَّهم يُوفُونَ بالعُهودِ، ولا يَغدِرونَ.

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8).

وأيضًا فإنَّه سُبحانه قال: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ [التوبة: 7] فجعل نَفسَ الشِّركِ مانعًا مِن العَهدِ إلَّا الذين لهم عَهدٌ مُؤقَّتٌ، وهم به مُوفون).

((أحكام أهل الذمة)) (887/2).

وقال ابنُ عاشور: (ليس المرادُ كُلَّ مَن عاهد عند المَسجِدِ الحرامِ كما قد يتوهَّمه المتوَهِّمُ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ مأذونًا بأنْ يُعاهِدَ فريقًا آخَرَ منهم).

((تفسير ابن عاشور)) (122/10).

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً.

أي: كيفَ يكونُ للمُشرِكينَ عَهدُ أمانٍ، والحالُ أنَّهم إن يغلِبُوكم- أيُّها المؤمِنونَ- لا يَرحَموكم، ولا يُراعُوا فيكم اللهَ، ولا قَرابةً، ولا عَهدًا؟![28]

يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ.

أي: يَقولُ لكم المُشرِكونَ بألسِنَتِهم كلامًا طَيِّبًا يُرضيكم- أيُّها المؤمِنونَ- لكِنَّ قُلوبَهم تمتَنِعُ أن تُوافِقَ ما يَنطِقونَ به؛ فهي مُنطَوِيةٌ على بُغضِكم وعَداوَتِكم، والامتناعِ عَن محبَّتِكم، والدُّخولِ في دِينِكم.

---

(28) وممَّن ذهب إلى أنَّ الإلَّ هنا بمعنى القَرابةِ، والذِّمَّةَ بمعنى العَهدِ: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ كثيرٍ.
يُنظر: ((الوسيط)) (479/2)، ((مجموع الفتاوى)) (140/29)، ((تفسير ابن كثير)) (115/4).
وممَّن قال مِن السَّلَفِ بأنَّ الإلَّ هي القرابةُ: ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاك، والسُّدِّي، ومقاتل.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1758/6)، ((تفسير ابن جرير)) (355/11، 356)، ((تفسير ابن الجوزي)) (238/2).
وممَّن قال مِن السَّلَفِ بأنَّ الذِّمَّةَ هي العَهدُ: ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاك في أحدِ قولَيه، وسعيدُ بن جُبير، وقتادة، ومجاهدٌ في إحدى الرِّوايات عنه.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1758/6)، ((تفسير ابن جرير)) (355/11، 356)، ((تفسير ابن الجوزي)) (239/2).
وقال ابنُ جريرٍ: (والإلُّ: اسمٌ يشتَمِلُ على معانٍ ثلاثةٍ: وهي العَهدُ والعَقدُ، والحِلْفُ، والقَرابةُ، وهو أيضًا بمعنى (الله).
فإذ كانت الكَلِمةُ تَشمَلُ هذه المعانيَ الثَّلاثةَ، ولم يكُنِ اللهُ خَصَّ من ذلك معنًى دونَ معنًى، فالصَّوابُ أن يَعُمَّ ذلك، كما عَمَّ بها جَلَّ ثناؤه معانيَها الثَّلاثةَ، فيُقال: لا يَرقُبونَ في مؤمِنٍ اللهَ، ولا قرابةً، ولا عهدًا ولا ميثاقًا).
((تفسير ابن جرير)) (358/11).
وقال الشِّنقيطي عن اختيارِ ابنِ جَريرٍ: (وهذا الذي ذهَبَ إليه هو من حَملِ المُشتَرَكِ على مَعانيه، وحَملُ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه أو مَعانيه، ممَّا اختلفَ فيه علماءُ الأصولِ، والذي حرَّرَه المُحَقِّقونَ مِن أصوليِّي أصحابِ المذاهِبِ الأربعةِ: هو جوازُ حَملِ المُشترَكِ على مَعنَيَيه أو معانيه).
((العذب النمير)) (293/5).

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [آل عمران: 118–120].

وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ.

أي: وأكثَرُ أولئك القَومِ خارِجونَ عَن طاعةِ اللهِ، ناقِضونَ للعُهودِ، لا ديانةَ لهم، ولا مُروءةَ.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (9 – 12)

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12)

غريب الكلمات:

نَكَثُوا: أي: نَقَضوا، وأصلُ (نكث): يدلُّ على نَقضِ شَيءٍ.

تفسير الآيات:

اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (9).

اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً.

أي: استبدَلَ أولئك المُشرِكونَ، بآياتِ القُرآنِ شَيئًا قليلًا مِن عَرَضِ الدُّنيا، ومَتاعِها الفاني، فترَكوا اتِّباعَها لذلك، واتَّبَعوا أهواءَهم.[29]

---

(29) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/116)، ((تفسير السعدي)) (ص: 330)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/297، 298).

قال ابنُ عاشور: (هؤلاءِ الذين بَقُوا على الشِّركِ مِن العَرَبِ بعد فتحِ مكَّةَ وظهورِ الإسلامِ على مُعظَمِ بلادِ العَرَبِ، ليس لهم امتراءٌ في صِحَّةِ الإسلامِ ونُهوضِ حُجَّتِه، ولكنَّهم بَقُوا على الشِّركِ لِمَنافِعَ يجتنُونَها من عوائِدِ قومِهم؛ مِن غاراتٍ يَشُنُّها بعضُهم على بعضٍ، ومحبَّةِ الأحوالِ الجاهليَّةِ مِن خَمرٍ ومَيسرٍ وزِنًا، وغير ذلك من المذمَّات واللذَّات الفائتة، وذلك شيءٌ قليلٌ، آثَرُوه على الهدى والنَّجاة في الآخرة، فلِكَونِ آياتِ صِدقِ القُرآنِ أصبحت ثابتةً عندهم جُعِلَت مثلَ مالٍ بأيديهم، بذَلُوه وفرَّطوا فيه لأجلِ اقتناءِ منافِعَ قليلةٍ؛ فلذلك مثَّل حالَهم بحالِ مَن اشترى شيئًا بِشَيءٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (10/125).

واستبعَدَ الشنقيطيُّ جِدًّا ما قاله جماعةٌ مِن العُلَماءِ: أنَّ هذه الآيةَ نزَلَت في قومٍ مِن الأعرابِ كانوا عاهَدُوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدعاهم أبو سفيانَ بنُ حَربٍ، وأطعَمَهم أكلةً، ونقَضُوا العهودَ بسبَبِ ذلك.

قال: (لأنَّ هذه الآيةَ مِن براءة نزَلَت بعد إسلامِ أبي سفيانَ؛ لأنَّ أبا سفيانَ أسلَمَ عامَ الفَتحِ عامَ ثَمانٍ، وهذه نزلَتْ عامَ تِسعٍ).

((العذب النمير)) (5/297).

وقال الشنقيطي أيضًا: (واختلَفَ العلماءُ بالمراد بهذا الثَّمَنِ القَليل ...

والتَّحقيقُ- إن شاء اللهُ تعالى- أنَّ المعنى: أنَّ الكُفَّار تبَدَّلوا من آياتِ اللهِ والعمَلِ بما جاء عن اللهِ ثَمَنًا قَليلًا مِن مَتاعِ الحياةِ الدُّنيا، وهو-مَثَلًا- عدَمُ التقيُّدِ بالشَّرعِ، وبقاؤُهم على ما كانوا عليه، واتِّباعُهم أهواءَهم، كما قال جلَّ وعلا: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ [البقرة:90] فتعَوَّضوا من هذا اتِّباعَهم هواهم، وبقاءَهم على ما كانوا عليه؛ لأنَّه أحَبُّ إليهم.

وهذا شيءٌ تافِهٌ تعوَّضوا منه سَعادةَ الدُّنيا والآخرة).

فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ.

أي: فتسبَّبَ عن ضَلالِهِم قيامُهم بإضلالِ غَيرِهم، فمَنَعوا أنفسهم من قبولِ الحقّ واتِّباعِه، ومنعوا غيرَهم مِن الدُّخولِ في الإسلامِ، وحاوَلُوا رَدَّ المُسلِمينَ عن اتِّباعِ الحَقِّ.

إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ.

أي: بِئسَ ما كان يعمَلُه أولئك المُشرِكونَ؛ مِن استبدالِهِم الكُفرَ بالإيمانِ، وصَدِّهم النَّاسَ عن سبيلِ الرَّحمنِ.

لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10).

لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً.

أي: لا يُراعي أولئك المُشرِكونَ في أيِّ مُؤمنٍ قَدَروا عليه اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا.

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ.

أي: وأولئك المُشرِكونَ هم المُجاوِزونَ حُدودَ اللهِ، الظَّالِمونَ لِعبادِ اللَّهِ.

((العذب النمير)) (297/5).

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11).

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ.

أي: فإن رجعَ المُشرِكونَ عن كُفرِهم إلى الإيمانِ باللهِ، وأدَّوُا الصَّلواتِ المفروضةَ، وأعطَوُا الزَّكاةَ الواجبةَ مُستحِقِّيها؛ فهُم إخوانُكم- أيُّها المُسلِمونَ- في الإسلامِ.

وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

أي: ونُبَيِّنُ آياتِ القُرآنِ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ بَيانَه وآياتِه، فيَفهمُونَها، ويتفَكَّرونَ فيها، وينتَفِعونَ بها.

كما قال تعالى: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [فصلت: 3].

وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (12).

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ.

أي: وإن نقَضَ أولئك المُشرِكونَ عُهودَهم مِن بعدِ ما عاهَدُوكم على ألَّا يُقاتِلوكم، ولا يُظاهِروا عليكم أحدًا مِن أعدائِكم.(30)

وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ.

أي: وقدحوا في دينِكم الإسلامِ، وعابُوه وانتقَصُوه.

(30) قال الشنقيطي: (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ الأيمانُ: جمعُ يمينٍ.
قال بعضُ العلماء: هي العهودُ.
وقال بعض العلماء: هي الأيمانُ التي تؤكَّدُ بها العهودُ؛ لأنَّهم إذا أُخِذَت عليهم العُهودُ، أكَّدُوها بالأيمانِ).
((العذب النمير)) (302/5).
ولكِن ردَّ ابنُ تيميَّةَ هذا القولَ، فقال: (واليَمينُ هنا المرادُ بها العُهودُ لا القَسَمُ باللهِ– فيما ذَكَره المفَسِّرونَ– وهو كذلك؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يقاسِمْهم باللهِ عامَ الحُدَيبيَةِ، وإنما عاقَدَهم عقدًا، ونسخةُ الكِتابِ معروفةٌ ليس فيها قسَمٌ؛ وهذا لأنَّ اليمينَ يقال: إنَّما سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ المُعاهِدَينِ يمُدُّ كُلٌّ منهما يمينَه إلى الآخَرِ، ثم غُلِّبَت حتى صار مجرَّدُ الكلامِ بالعَهدِ يُسمَّى يمينًا، ويقال: سُمِّيت يمينًا؛ لأنَّ اليمينَ هي القوَّةُ والشِّدَّةُ...
فلما كان الحَلْفُ معقودًا مشَدَّدًا سُمِّيَ يمينًا، فاسمُ اليمينِ جامِعٌ للعَقدِ الذي بين العَبدِ وبين ربِّه، وإن كان نَذْرًا...
وللعَهدِ الذي بين المخلوقينَ، ومنه قولُه تعالى: وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا والنَّهيُ عن نقضِ العُهودِ وإن لم يكُن فيها قَسَمٌ، وقال تعالى: وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ وإنما لفظُ العهدِ: «بايعناك على ألَّا نفِرَّ» ليس فيه قَسَمٌ، وقد سمَّاهم مُعاهِدينَ لله).
((الصارم المسلول)) (ص: 17– 18).

فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ.

أي: فقاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- رؤساءَ الكُفرِ الذين نقَضُوا العُهودَ، وطَعَنوا في الإسلامِ.[31]

إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ لَا إِيْمَانَ قيل: على معنى أنَّهم لا إسلامَ لهم ولا دينَ، فهم كفَّارٌ. وقيل: المرادُ معنى الأمنِ، أي: لا أمانَ لهم، فقد بطَلَ الأمانُ الذي أعطَيتُموهم؛ لأنَّهم قد نقَضُوا عَهْدَهم.[32]

---

(31) اختُلِفَ في المعنيين بأئمة الكفر على قولين: الأول: هم أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، ونظراؤهم.

والثاني: أنه لم يأتِ أهلها بعدُ.

ورجَّح ابنُ عطية (٤/ ٢٧٠) مستندًا إلى دلالة العموم شمول الآية لهذه الأقوال، فقال: «وأَصْوَبُ ما في هذا أن يُقال: إنّه لا يُعنى بها مُعيَّن، وإنما وقع الأمر بقتال أئمة الناكثين بالعهود من الكَفَرة إلى يوم القيامة دون تعيين، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي رسول الله – ﷺ – أن تكون الإشارة إليهم أولًا بقوله: ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة؛ إذ الذي يتولى قتال النبي – ﷺ – والدفع في صدر شريعته هو إمام مَن يَكْفُر بذلك الشرع إلى يوم القيامة، ثم تأتي في كل جيل من الكفار أئمة خاصة بجيلٍ جيل».

ووافقه ابنُ كثير (٧/ ١٥٥) فقال: «الآية عامَّةٌ، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامَّة لهم ولغيرهم».

وانتقد ابنُ عطية مستندًا إلى التاريخ قول قتادة بأنّه أبو جهل وأضرابه قائلًا: «وهذا –إن لم يُتَأَوَّل أنّه ذكرهم على جهة المثال– ضعيف؛ لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير».

ووجَّه قول حذيفة؟ بقوله: «يريد: لم ينقرضوا، فهم يحيون أبدًا ويُقاتلون».

(32) قرأ بها ابن عامر.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (278/2).

ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 174)، ((معاني القراءات)) للأزهري (448/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 315)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (305/5).

2- قِراءةُ لَا أَيْمَانَ على معنى أنَّه لا عَهْدَ لهم، أي: هم لا يُوفُونَ بِعُهودِهم ومَواثيقِهم.

إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ.(33)

أي: إنَّ رُؤَساءَ الكُفرِ لا عُهودَ لهم صادقةً يُوفُونَ بها.

لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ.

أي: قاتِلُوهم؛ كي ينتَهُوا عن الكُفرِ والضَّلالِ.(34)

---

(33) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/278).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 174)، ((معاني القراءات)) للأزهري (1/448)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 315)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/305).

(34) وممَّن فسَّر قولَه تعالى: لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ بأنَّ معناه انتهاؤُهم عن الكُفر: الواحديُّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 455)، ((تفسير ابن كثير)) (4/116)، ((تفسير ابن عاشور)) (10/131).

وممن فسَّره بأنه: الانتهاءُ عن الطَّعنِ في الدِّين، والمظاهرةِ على المسلمين: ابنُ جريرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/363).

وممَّن فسَّره بأنَّه: انتهاؤُهم عن الكُفرِ وعن الطَّعنِ في الإسلامِ، فجمَع بينَ المعنيينِ: السعديُّ، والشنقيطيُّ.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 330)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/306، 307).

وذهب ابن تيميَّةَ إلى أنَّ المُرادَ: الانتهاءُ عن نقضِ العَهدِ، والطَّعنِ في الدِّين.

يُنظر: ((الصارم المسلول)) (ص: 392).

وردَّ ابنُ عاشورٍ أن يكونَ المرادُ بالانتهاءِ: الانتهاءُ عن نقضِ العَهدِ، أو الطَّعنِ في الدِّينِ.

فقال: (لم يُذكَر مُتعلِّق فعل يَنْتَهُونَ ولا يُحتَمَلُ أن يكونَ الانتهاءُ عن نكْثِ العَهدِ؛ لأنَّ عَهدَهم لا يُقبَلُ بعد أن نكثوا؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ، ولا أن يكونَ الانتهاءُ عن الطَّعنِ في الدِّينِ؛ لأنَّه إن كان طعْنُهم في دِيننا حاصلًا في مدَّةِ قِتالِهم، فلا جَدْوى لِرَجاءِ انتِهائِهم عنه، وإن كان بعد أن تضَعَ الحَربُ أوزارَها، فإنَّه لا يستقيمُ؛ إذ لا غايةَ لِتَنهيةِ القَتلِ بين المُسلِمينَ وبينهم، فتعيَّنَ أنَّ المُرادَ: لعلَّهم ينتهونَ عن الكُفرِ).

((تفسير ابن عاشور)) (10/131).

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (13–16)

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ
أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ
يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)

غريب الكلمات:

يُخْزِهِمْ: أي: يُذِلَّهم، والخِزْيُ: الهوانُ، وأصلُه: يدلُّ على الإبعادِ.

وَلِيجَةً: أي: بِطَانةً، دُخَلاءَ مِن المُشرِكِينَ يُخالِطونَهم ويودُّونَهم. وكلُّ شَيءٍ أدخَلْتَه في شَيءٍ وليسَ منه، يُقالُ له: (وَليجةٌ)، وأصلُ (ولج): يدلُّ على دخولِ شَيءٍ.

تفسير الآيات:

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (13).

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ.

أي: ألَا تُقاتِلونَ- أيُّها المؤمنونَ- المُشرِكينَ الذين نقَضُوا العهدَ الذي بينَكم وبينهم؟![35]

وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ.

أي: وعَزَموا بقُلوبِهم على إخراجِ رَسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مكَّةَ.[36]

كما قال تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [الأنفال: 30].

وقال سبحانه: وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: 76].

---

(35) قال الرازي: (نَكْثُهم العَهدَ: كُلُّ المُفَسِّرينَ حَمَلَه على نَقْضِ العَهدِ).
((تفسير الرازي)) (535/15).

(36) وممَّن اختار أنَّهم همُّوا بإخراجِه مِن مكَّةَ قبل الهجرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي.
يُنظر: المصادر السابقة.

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ [محمد: 13].

وقال جلَّ جلالُه: يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ [الممتحنة: 1].

وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

أي: وهَؤلاءِ المُشرِكونَ بَدَؤُوكم- أيُّها المؤمِنونَ- بنَقضِ العَهدِ الذي بينكم، بقِتالِ حُلَفائِكم خُزاعةَ.(37)

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ.

أي: أتخافُونَ- أيُّها المؤمِنونَ- على أنفُسِكم مِن هؤلاءِ المُشرِكينَ، فتَترُكوا قتالَهم؛ لِئلَّا ينالَكم منهم مَكروهٌ؟ فاللهُ أَوْلى أن تخافوا مِن عُقوبتِه بترْكِكم جهادَ أولئكَ المُشرِكين، إن كُنتُم مُؤمنينَ حقًّا.(38)

(37) وممَّن اختار أنَّ المَقصودَ بذلك نقضُ المُشركِينَ للعَهدِ بقتالِ خُزاعةَ حُلفاءِ المُسلمين: الواحدي، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي.
يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف مجاهدٌ، وعكرمةُ.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1762/6)، ((تفسير ابن جرير)) (368/11).
واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المراد: بدؤوكم بالقتالِ يومَ بَدرٍ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (367/11).
(38) قال ابنُ عطيَّةَ: (قولُه إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ كما تقولُ: افعَلْ كذا إن كنتَ رجلًا، أي: رجُلًا كاملًا، فهذا معناه: إن كنتُم مُؤمِنينَ كامِلِي الإيمانِ؛ لأنَّ إيمانَهم قد كان استقرَّ).
((تفسير ابن عطية)) (13/3).

كما قال تعالى: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران: 175].

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (14).

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ.

أي: قاتِلوا- أيُّها المُؤمنونَ- هؤلاءِ المُشرِكينَ الذين نقَضُوا عهودَهم؛ فإنَّكم إن تُقاتِلوهم يقتُلْهم اللهُ بأيديكم.(39)

وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ.

أي: ويُذِلُّهم اللهُ ويُهِنْهُم بالأسرِ، ويَمنَحْكم النَّصرَ عليهم.

وقال الشنقيطي: (فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ (إنْ) في قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ تُشكِلُ دائمًا على المتعلِّمينَ، وبعضِ العُلَماءِ، و (إنْ) هذه هي التي اختلَفَ فيها البصريُّونَ والكوفيُّونَ، وهي كثيرةٌ في القرآن، فالبصريونَ يقولون: إنَّ (إنْ) هذه صيغةُ شرطٍ جِيءَ بها مُرادًا بها التَّهييجُ، وقُوَّةُ الحَملِ على الامتثالِ، وهو أسلوبٌ عربيٌّ مَعروفٌ؛ أنَّ العَرَبَ تنطِقُ بأداة الشَّرطِ، ولا تُريدُ به حقيقةَ تَعليقِ جزاءٍ على شرطٍ، وإنَّما تريدُ به التَّهييجَ والدَّعوةَ الصَّارمةَ إلى الامتثالِ...
أمَّا الكوفيونَ فإنَّهم يقولون: إنَّ (إنْ) هذه بمعنى (إذْ) وأنَّها تعليليَّةٌ، ويقولون: «فَاللَّهُ أحَقُّ أن تخشَوْه إذْ كُنتُم مُؤمنينَ» أي: لأجلِ كَونِكم كنتم مُؤمنينَ؛ فذلك يستوجِبُ منكم الخَشية).
((العذب النمير)) للشنقيطي (5/312-313).

(39) قال الشنقيطي: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ هذا التَّعذيبُ الذي يُعَذِّبُهم اللهُ بأيديهم: هو القَتلُ بالضَّربِ الوَجيعِ، الذي يصِلُ به صاحِبُه إلى النَّارِ).
((العذب النمير)) (5/314).

وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ.

أي: ويُداوِ اللهُ صُدورَ قَومٍ مُؤمنينَ، ظَلَمَهم المُشرِكون وقَهَروهم، فتنشَرِحْ صُدورُهم بالانتصارِ عليهم وقَتْلِهم، وأَسْرِهم، ويَزُلْ ما حصَلَ في قُلوبِهم من الألَمِ.(40)

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15).

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ.

أي: ويُزِلِ اللهُ الغَيظَ الكامِنَ في قُلوبِ المُؤمنينَ بِسبَبِ ظُلمِ الكُفَّارِ وقَهْرِهم لهم.

---

(40) قال أبو حيان: (جاء التَّركيبُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ لِيَشمَلَ المُخاطَبينَ وكُلَّ مُؤمِنٍ؛ لأنَّ ما يُصيبُ أهلَ الكُفرِ مِن العَذابِ والخِزيِ هو شِفاءٌ لِصَدرِ كُلِّ مُؤمِنٍ.

وقيل: المرادُ قَومٌ مُعَيَّنونَ...

قال مجاهِدٌ والسُّدِّي: هم خُزاعةُ.

ووجهُ تَخصيصِهم أنَّهم هم الذين نُقِضَ فيهم العَهدُ ونالَتْهم الحَربُ، وكان يومَئذٍ في خُزاعةَ مؤمنونَ كَثيرٌ).

((تفسير أبي حيان)) (382/5، 383).

وقال الشنقيطي: (قال جماهيرُ مِن أهلِ التَّفسيرِ: إنَّ المُرادَ بالقَومِ المؤمنينَ أنَّهم خُزاعةُ؛ حيث تمالأَ عليهم البَكْريُّونَ وقُريشٌ، وقَتَلوهم في الحَرَمِ، واستنجَدُوا بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

((العذب النمير)) (315/5).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (369/11)، ((تفسير ابن كثير)) (118/4).

وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ.

أي: ويتوبُ اللهُ على مَن يَشاءُ أن يتوبَ عليهم من أولئك المُشركِينَ، بأن يُوفِّقَهم للدُّخولِ في الإسلامِ، ويَقبَلَ منهم التَّوبةَ مِن الكُفرِ والآثامِ.(41)

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: واللهُ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصلِحُ عِبادَه، وعِلمُه بمن يستحِقُّ منهم التَّوفيقَ للتَّوبةِ، ومَن يستحِقُّ منهم الخِذلانَ عنها، حكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به، ومن ذلك حِكمَتُه في تَصريفِ عِبادِه مِن حالٍ إلى حالٍ.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16).

(41) قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: وَيَتُوبُ اللَّهُ على مَنْ يَشَـاءُ القراءةُ بالرَّفعِ على الاسـتئنافِ؛ لأنَّه ليس من جنسِ الأوَّلِ؛ ولهذا لم يقُلْ (وَيَتُبْ) بالجَزمِ؛ لأنَّ القِتالَ غَيرُ موجِبٍ لهم التَّوبةَ من اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهو مُوجِبٌ لهم العَذابَ والخِزيَ، وشِـفاءَ صُـدورِ المؤمنينَ، وذَهابَ غَيظِ قُلوبِهم.

ونظيرُه: فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ [الشورى: 24] تَمَّ الكَلامُ.

ثمَّ قال: وَيَمْحُ اللَّهُ البَاطِلَ).

((تفسير القرطبي)) (87/8).

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ.

أي: أظَنَنْتُم– أيُّها المُسلِمونَ–[42] أن يترُكَكم اللهُ دون أن يَختَبِرَكم بالجِهادِ، فيعلَمَ الصَّادِقينَ منكم الذين يُجاهِدونَ في سبيلِه، مِن الكاذِبينَ المُضَيِّعينَ ما أمَرَ به من جهادِ الكافرينَ؛ عِلمًا ظاهِرًا مَشهودًا يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ؟[43]

كما قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: 142].

وقال سُبحانه: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [آل عمران: 179].

---

(42) قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للمُسلِمينَ، على تفاوُتِ مَراتِبِهم في مُدَّةِ إسلامِهم، فشَمِلَ المُنافِقينَ؛ لأنَّهم أظهَروا الإسلامَ).
((تفسير ابن عاشور)) (137/10).

(43) قال الزجَّاج: (اللهُ جَلَّ وعَزَّ قد عَلِمَ قبلَ أمْرِهم بالقِتالِ مَن يُقاتِلُ ممَّن لا يُقاتِلُ، ولكِنَّه كان يعلَمُ ذلك غيبًا، فأراد العِلمَ الذي يُجازي عليه؛ لأنَّه جَلَّ وعَزَّ إنَّما يُجازي على ما عَمِلوا).
((معاني القرآن)) (437/2).
ويُنظَر: ((تفسير ابن الجوزي)) (242/2)، ((تفسير ابن كثير)) (119/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 331).
وقال الشنقيطي: (قال البغوي رحمه الله في تفسيرِ هذه الآية الكريمة: وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ يعني: أحَسِبْتُم أن يترُكَكم اللهُ ولم يَرَ اللهُ عَمَلَكم حتى يتبيَّنَ للنَّاسِ المُخلِص من غيرِه.
وعلى هذا التَّفسيرِ الذي فَسَّرَها به، فالمعنى يُشبِهُ قولَه: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ [التوبة: آية 105]).
((العذب النمير)) (320/5).

وقال عزَّ وجلَّ: الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت: 1 – 3].

وقال جلَّ جلاله: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ [محمد: 31].

وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً.

أي: ولمَّا يَعْلمِ الله الَّذين جاهدُوا مِنكم، والَّذين لم يتَّخِذوا مِن دُونِ اللهِ ولا رَسولِه ولا المُؤمنينَ بِطانةَ سُوءٍ مِن الكُفَّارِ، يُوالُونَهم ويُفشُونَ إليهم أسرارَ المُؤمنينَ.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ [المائدة: 51 – 53].

وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

أي: واللهُ عَليمٌ بِجَميعِ أعمالِكم الخَفِيَّةِ– أيُّها المُسلِمونَ– فيُجازيكم عليها؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، ومن ذلك اتِّخاذُ بِطانةٍ مِن الكافِرينَ.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (17–19)

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)
أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19)

غريب الكلمات:

سِقَايَةَ الْحَاجِّ: أي: سَقْيَ الحَجيجِ، و(سقاية) مصدرٌ مِن (سقى)، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشيءِ الماءَ، وما أشبهَه.

وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ: أي: القِيامَ بِمَصالِحِه ومُعاهَدتَه. والعِمارةُ: نَقيضُ الخَرابِ، و(عمارة) مصدرُ (عمَر)، وأصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زمانٍ.

تفسير الآيات:

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17).

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ.

أي: ما ينبغي للمُشركينَ أن يَعمُروا مساجِدَ اللهِ ببِنائِها وتزيينِها، والعبادةِ فيها، والحالُ أنَّهم شاهِدونَ على أنفُسِهم بالكُفرِ؛ بما يأتُونَه من أقوالٍ وأفعالٍ كُفريَّةٍ، يُقِرُّونَ بها، ولا يُمكِنُهم إنكارُها.(44)

---

(44) وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بعِمارةِ المساجِدِ هنا: العبادةُ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، والسعدي، وابنُ عاشورٍ.
إلَّا أنَّ ابنَ عاشورٍ يرى أنَّ المرادَ بـمَساجِدَ اللهِ: مواضِعُ عبادتِه، والمعنِيُّ بذلك: المسجِدُ الحرامُ وما يَتْبَعُه من المَسعَى وعَرَفةَ، والمشعَرِ الحرامِ والجَمَرات، والمَنْحَرِ من مِنًى.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (374/11)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (499/17)، ((تفسير السعدي)) (ص: 331)، ((تفسير ابن عاشور)) (139/10-140).
قال ابنُ رجبٍ: (عِمارةُ المساجِدِ تكونُ بمَعنيينِ: أحدُهما: عِمارَتُها الحسيَّةُ؛ ببنائِها وإصلاحِها وترميمِها، وما أشبَهَ ذلك.
والثاني: عِمارتُها المعنويَّةُ؛ بالصَّلاةِ فيها، وذِكرِ اللهِ وتلاوةِ كِتابِه، ونَشْرِ العِلمِ الذي أنزَلَه على رسولِه، ونحوِ ذلك.
وقد فُسِّرَت الآيةُ بكُلِّ واحدٍ مِن المعنيَين، وفُسِّرَت بهما جميعًا، والمعنى الثَّاني أخصُّ بها...
واتَّفقوا على مَنْعِ الكُفَّارِ مِن إظهارِ دِينِهم في مساجِدِ المسلمينَ، لا نعلَمُ في ذلك خِلافًا.
وهذا ممَّا يدُلُّ على اتِّفاقِ النَّاسِ على أنَّ العِمارةَ المَعنويَّةَ مُرادةٌ مِن الآيةِ).
((فتح الباري)) (481/2-483).
وقال الواحديُّ: (أكثرُ المفسِّرين حملوا العمارةَ ههنا على دخولِ المسجدِ الحرامِ والقعودِ فيه).
((البسيط)) (32/10 8).
وقال الرازي: (عمارةُ المساجدِ قسمان: إمَّا بلزومِها، وكثرةِ إتيانِها يُقال: فلانٌ يعمرُ مجلسَ فلانٍ، إذا كثُر غشيانُه إيَّاه، وإمَّا بالعمارةِ المعروفةِ في البناءِ).
((تفسير الرازي)) (9/16).

أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ.

أي: أولئك المُشرِكونَ قد بَطَلَت أعمالُهم- ومنها عِمارةُ البَيتِ الحَرامِ- فلا يُؤجَرونَ عليها في الآخرةِ؛ بِسَبَبِ شِرْكِهم.

كما قال سُبحانه: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [هود: 15-16].

وقال تعالى: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان: 23].

وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ.

أي: وأولئك المُشرِكونَ في نارِ جهنَّمَ، ماكِثونَ فيها على الدَّوامِ.

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18).

ومن رجَّح أنَّ المرادَ بها: بناءُ المساجِدِ وترميمُها وتزيينُها: الشنقيطي.
يُنظر: ((العذب النمير)) (5/327-328).

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ.

أي: ما يَعمُرُ مَساجِدَ اللهِ حقًّا– بقَصْدِها وعبادةِ اللهِ تعالى وذِكْرِه فيها، وببنائِها وتَرميمِها والعنايةِ بها–[45] إلَّا المُؤمِنُ باللهِ عزَّ وجلَّ، وبالبَعْثِ والقيامةِ.

كما قال تعالى: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ [النور: 36–37].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا [الجن: 18].

وقال سُبحانه: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا [البقرة: 114].

وعن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((مَن بنى مَسجِدًا يبتغي به وَجهَ اللهِ، بنى اللهُ له مِثلَه في الجنَّةِ)).[46]

---

(45) قال ابنُ كثيرٍ: (ليس المرادُ مِن عِمارَتِها زَخْرفَتها وإقامة صُورَتِها فقط، إنَّما عِمارتُها بذِكرِ اللهِ فيها، وإقامةِ شَرْعِه فيها، ورفْعِها عن الدَّنَسِ والشِّرْكِ).

((تفسير ابن كثير)) (1/388).

(46) رواه البخاري (450)، ومسلم (533).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ - ﷺ -، قال: ((سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ يومَ القيامةِ في ظِلِّه، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه)) وذكَرَ منهم: ((ورجُلٌ قَلبُه مُعلَّقٌ في المسجِدِ)).(47)

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ.

أي: وأقامَ الصَّلاةَ المكتوبةَ بِحُدودِها، وأدَّى الزَّكاةَ الواجبةَ عليه في مالِه إلى مُستحِقِّيها، ولم يَخَفْ إلَّا اللهَ تعالى وَحْدَه، فلم يترُكْ أمرَ اللهِ ونَهْيَه؛ لِخَشيةِ غيرِه.(48)

---

(47) رواه البخاري (6806) واللفظ له، ومسلم (1031).

(48) قال الواحدي: (قولُه تعالى: وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ قال الزجَّاجُ: تأويلُه: لم يَخَفْ في بابِ الدِّينِ إلَّا اللهَ جَلَّ وعزَّ، وقال أهل المعاني: يعني: لا يترُكُ هذه العباداتِ لِخَشيةِ أحدٍ، ولكنْ يخشى اللهَ فيُقيمُ ذلك، والخَشيةُ مِن غَيرِ اللهِ المنهيُّ عنها: أن يترُكَ أمْرَ اللهِ لِخَشيةِ غيرِه، فأمَّا أن يخشى النَّاسَ خَشيةً لا تؤدِّيه إلى تَرْكِ أمرِ اللهِ، فليس بمنهيٍّ عنه).

((البسيط)) (10/334).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (8/90).

وقال أبو حيان: (وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ قال ابنُ عطيةَ: يُريدُ خشيةَ التَّعظيمِ والعبادةِ والطَّاعةِ، ولا مَحالةَ أنَّ الإنسانَ يخشى غيرَه، ويخشى المحاذيرَ الدُّنيويَّةَ، وينبغي أن يَخشَى في ذلك كلِّه قَضاءَ اللهِ وتَصريفَه.

وقال الزَّمخشري: هي الخشيةُ والتقوى في أبوابِ الدِّينِ، وألَّا يختارَ على رِضا اللهِ رِضا غيرِه، وإذا اعترَضه أمرانِ أحدُهما حَقُّ اللهِ تعالى، والآخَرُ حَقُّ نَفسِه؛ خاف اللهَ، وآثَرَ حَقَّ اللهِ على حقِّ نَفسِه.

وقيل: كانوا يَخشَونَ الأصنامَ ويرجُونَها، فأُريدَ نفيُ تلك الخشيةِ عنهم).

((تفسير أبي حيان)) (5/387).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (2/255)، ((تفسير ابن عطية)) (3/16).

فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ.

أي: فعُمَّارُ المَساجِدِ المُؤمِنونَ باللهِ وباليومِ الآخِرِ، المقيمونَ الصَّلاةَ والمؤتونَ الزكاةَ، الذين يَخشَونَ اللهَ تعالى وَحدَه، هم مِن الذينَ هداهم اللهُ للتمَسُّك بالحَقِّ المُوصِلِ إلى الجنَّةِ.(49)

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19.

(49) جماهيرُ العُلَماءِ يقولون: «عسى» مِن اللهِ واجِبةٌ؛ لأنَّ اللهَ كريمٌ لا يُطمِعُ في شيءٍ إلَّا هو فاعِلُه؛ لِشِدَّةِ كَرَمِه- جَلَّ وعلا- وفَضْلِه.

يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (332/5).

قال الواحدي: (وعسى مِن اللهِ واجبةٌ، ولكِنْ ذُكِرَ بِلَفظِ عسى؛ ليكونُوا على رجاءٍ وطَمَعٍ وحَذَرٍ).

((البسيط)) (335/10).

وقيل: هي بمعنى خَليقٌ، أي: فخليقٌ أن يكونُوا من المُهتَدينَ، وقيل: إنَّ الرَّجاءَ راجِعٌ إلى العِبادِ.

يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (393/2).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (255/2)، ((تفسير الرازي)) (11/16).

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

أي: أجَعَلْتُم[50] - أيُّها النَّاسُ-أصحابَ[51] سَقْيِ الحَجيجِ وعمارةِ المَسجِدِ الحرامِ[52] المُشركينَ، كالمؤمنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، والمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ؟!

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ عند مِنبَرِ رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فقال رجلٌ: ما أُبالي ألَّا أعمَلَ عَمَلًا بعد الإسلامِ إلَّا أنْ أسقِيَ الحاجَّ، وقال آخَرُ: ما أُبالي ألَّا أعمَلَ عَمَلًا بعد الإسلامِ إلَّا أن أعمُرَ المَسجِدَ الحَرامَ، وقال آخَرُ: الجِهادُ في سبيلِ اللهِ أفضَلُ ممَّا قُلتُم، فزَجَرَهم عُمَرُ،

---

(50) قال الشِّـنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ (جَعَلَ) هنا هي التي بمعنى (اعتقَدَ)، وأنَّه أنكَرَ عليهم اعتِقادَهم تساوِيَ هذَينِ الأمرينِ، وهما بعيدٌ مِن المُساواة، بينهما بَونٌ عَظيمٌ، وبَونٌ شاسِعٌ.
وكان بعضُهم يقولُ: لا يبعُدُ أن تكونَ هي التي بمعنى (صيَّر) أي: صيَّرتُم هذا كهذا، وادَّعَيتُم أنَّه مِثلُه).
((العذب النمير)) (337/5).

(51) قال الشنقيطي: (كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ لا بُدَّ أن يُقدَّرَ مُضافٌ في أحدِ الأمرَينِ.
قال بَعضُ العُلماءِ: يُقَدَّرُ في الأوَّلِ، والمعنى: أجعَلْتُم أصحابَ سِقايةِ الحاجِّ، أو أهلَ سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ كمَن آمَنَ، أي: كالذينَ آمنوا باللهِ؟ وقال بعضُ العُلَماءِ: يُقدَّرُ المضافُ في الثَّاني: أي: أجعلْتُم سقايةَ الحاجِّ وعِمارةَ المسجِدِ كعَمَلِ مَن آمَنَ باللهِ.
والأمرانِ جائزانِ، وأظهَرُهما: تقديرُه في الأوَّلِ، والمعنى: أجعلْتُم أهلَ سِقايةِ الحاجِّ وأصحابَ عِمارةِ المسجِدِ كالذين آمَنوا باللهِ، لا يَكونونَ مِثلَهم أبدًا).
((العذب النمير)) (341/5).

(52) قال ابنُ عاشور: (السِّقايةُ: صِيغةٌ للصِّناعة، أي: صناعة السَّقيِ، وهي السَّقيُ مِن ماءِ زَمزم، ولذلك أُضيفَت السِّقايةُ إلى الحاجِّ.
وكذلك العمارةُ صِناعةُ التَّعميرِ، أي: القيام على تعميرِ شَيءٍ بالإصلاحِ والحراسةِ ونحو ذلك...
وأضيفَتْ إلى المسجِدِ الحرامِ؛ لأنَّها عمَلٌ في ذاتِ المَسجِدِ).
((تفسير ابن عاشور)) (143/10).

وقال: لا تَرفَعوا أصواتَكم عند مِنبرِ رَسولِ اللهِ - ﷺ - وهو يومُ الجُمُعةِ، ولكِنْ إذا صَلَّيْتُ الجُمُعةَ دخَلْتُ فاستفتَيْتُه فيما اختلَفْتُم فيه، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ الآية إلى آخِرِها)).[53]

لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ.

أي: لا يجعَلُ اللهُ سُقاةَ الحاجِّ وعُمَّارَ المسجِدِ الحرامِ مِن الكُفَّارِ، في منزلةِ المُؤمِنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، والمُجاهِدينَ في سبيلِ اللهِ.

---

(53) رواه مسلم (1879).

قال القرطبي: (هذا المَساقُ يقتضي أنَّها إنَّما نزَلَت عند اختلافِ المُسلِمينَ في الأفضَلِ مِن هذه الأعمالِ.

وحينئذٍ لا يَليقُ أن يُقالَ لهم في آخِرِ الآيةِ: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فتعيَّنَ الإشكالُ.

وإزالَتُه بأن يُقالَ: إنَّ بعضَ الرُّواةِ تَسامَحَ في قَولِه: (فأنزَلَ اللهُ الآيةَ).

وإنَّما قرأ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الآيةَ على عُمَرَ حينَ سألَه، فظَنَّ الرَّاوي أنَّها نزَلَت حينئذٍ.

واستدَلَّ بها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أنَّ الجهادَ أفضَلُ ممَّا قال أولئك الذين سَمِعَهم عُمرُ، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أُنزِلَ عليه، لا أنَّها نزَلَت في هؤلاءِ.

واللهُ أعلم).

((تفسير القرطبي)) (92/8)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (365/5).

وقال الشنقيطي عن كلامِ القرطبيِّ: (وكلامُه فيه أجوَدُ ما وقفْتُ عليه في إزالةِ إشكالِه).

((العذب النمير)) (336/5-337).

وقال القاسمي: (قولُ النعمانِ (فأنزل الله) بمعنى أنَّ مثلَ هذا التحاورِ نزَل فيه فيصلٌ متقدِّمٌ، وهو هذه الآيةُ، لا بمعنى أنَّه كان سببًا لنزولِها...

وهذا الاستعمالُ شائعٌ بينَ السلفِ، ومن لم يتفطَّنْ له تتناقض عندَه الرواياتُ، ويحار في المخرجِ، فافهمْ ذلك وتفطَّنْ له) ((تفسير القاسمي)) (365/5).

كما قال تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الجاثية: 21].

وقال سبحانه: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [القلم: 35-36].

وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

أي: واللهُ لا يوفّقُ للتَّوبةِ، ولِفِعلِ الأعمالِ الصَّالحةِ، الكُفَّارَ والمُشرِكِينَ، ومنهم أهلُ سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ، مِن المُشركِينَ الذين ظَلَموا بمُساواةِ أعمالِهم هذه بالإيمانِ باللهِ وباليومِ الآخِرِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ، فوَضَعوا الأشياءَ في غيرِ مواضِعِها.

كما قال تعالى: وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ [إبراهيم: 27].

وقال سبحانه: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان: 13].

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (20–22)

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)

غريب الكلمات:

مُقِيمٌ: أي: دائِمٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ، ويُعبَّر بالإقامةِ عن الدوامِ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتصابٍ أو عَزمٍ.

تفسير الآيات:

الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20).

الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ.

أي: أصحابُ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الذين آمَنوا باللهِ تعالى، وبِكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وهاجَرُوا مِن أوطانِهم ودِيارِهم إلى مَدينةِ رَسولِ اللهِ، وجاهَدوا لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تعالى بأموالِهم وأنفُسِهم، أولئك أرفَعُ مَنزلةً، وأعلى مكانةً عِندَ اللهِ مِن سُقاةِ الحاجِّ، وعُمَّارِ المَسجِدِ الحَرامِ مِن المُشركينَ.

كما قال تعالى: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 95-96].

وقال سبحانه: لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [الحديد: 10].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((لا تسُبُّوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحدَكم أنفقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بلغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه[54])).[55]

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ.

أي: وأولئك– الذين آمَنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سبيلِ اللهِ– هم الذينَ يَظفَرونَ بمَطلوبِهم بِدُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ.

كما قال تعالى: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ [آل عمران: 185].

وقال سُبحانه: لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ [الحشر: 20].

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (21).

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ.

أي: يُعْلِمُ اللهُ الذين آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ، بأنَّ لهم رحمةً عظيمةً مِن ربِّهم، يزولُ بها عنهم الشرورُ، ويصلُ إليهم بها كلُّ خيرٍ، وأنَّه رَضِيَ عنهم رضًا كامِلًا، فلا يسخطُ عليهم أبدًا.

---

(54) النَّصيفُ: أي: نِصفُ الْمُدِّ.
والمعنى: لا ينالُ أحَدُكم بإنفاقِ مِثلِ أُحُدٍ ذَهبًا مِن الأجرِ والفَضلِ، ما ينالُ أحدُهم بإنفاقِ مُدِّ طَعامٍ أو نِصفٍ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (9/3875).
(55) رواه البخاري (3673) واللفظ له، ومسلم (2540).

كما قال تعالى: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 100].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [الصف: 10 – 13].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ. فيقولون: لبَّيكَ ربَّنا وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يديكَ. فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نَرضَى يا رَبِّ، وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أُعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بَعدَه أبدًا)).[56]

وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ.

أي: ويُبَشِّرُهم اللهُ أيضًا بجنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ دائِمٌ لا يَزولُ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [فصلت: 8].

(56) رواه البخاري (7518)، ومسلم (2829).

وقال سُبحانه: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا [الطلاق: 11].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبِيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ في الجنَّةِ مِئةَ درجةٍ، أعَدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سبيلِه، كُلُّ دَرَجتَينِ ما بينهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فَسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ)).[57]

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22).

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.

أي: ماكِثينَ في تلك الجَنَّاتِ بلا نهايةٍ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا [الكهف: 107– 108].

إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ عنده جزاءٌ وثوابٌ كَبيرٌ على الأعمالِ الصَّالحةِ، يمنَحُه للمُؤمِنينَ في الآخرةِ.

(57) رواه البخاري (7423).

كما قال تعالى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [السجدة: 17].

وقال سُبحانه: يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ [الزخرف: 68–73].

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (23–24)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)

غريب الكلمات:

وَعَشِيرَتُكُمْ: العَشِيرَةُ: أهلُ الرَّجل الذين يتكثَّر بهم، أو الجماعةُ التي ترجِعُ إلى عَقدٍ واحدٍ كعَقدِ العشرةِ فما زادَ، ومنه المعاشرَةُ، وهي الاجتماعُ على الشَّيءِ، وَأصلُ (عشر): يدلُّ على مداخلةٍ ومخالطةٍ.

اقْتَرَفْتُمُوهَا: أي: اكتَسَبتُموها وحصَّلْتُموها، والاقترافُ: الاكْتِسابُ، حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استعمالًا، وأصلُ (الاقترافِ): اقتطاعُ الشيءِ مِن مكانِه إلى غيرِه، وأصلُ (قرف): يَدُلُّ عَلَى مُخالطةِ الشَّيءِ، والالتِباسِ به، وادِّراعِه، ومنه: اقْتَرَفْتُ الشَّيءَ: اكْتَسَبْتُه، وكأنَّه لابَسَه وادَّرَعه.

كَسَادَهَا: أي: فَوَاتَ وَقتِ رواجِها، والكَسادُ: خِلافُ النَّفاقِ ونقِيضُه، وأصلُ (كسد): يدلُّ على الشَّيءِ الدُّونِ لا يُرغَبُ فيه.

فَتَرَبَّصُوا: أي: انتَظِرُوا وتمهَّلُوا، والتَّربُّصُ: الانتِظارُ بالشَّيءِ، وأصلُ (ربص): يدلُّ على الانتظارِ.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ.

أي: يا أيُّها الذين آمنوا، لا تتَّخِذوا آباءَكم وإخوانَكم في النَّسَبِ بِطانةً وأصدقاءَ، تُناصِرونَهم، وتُفشُونَ إليهم أسرارَ المُسلِمينَ، وتُؤثِرونَ المُكْثَ بينهم على الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ، إن اختارُوا– على وجهِ الرِّضا والمحبَّةِ– الكُفرَ باللهِ، وآثَرُوه على الإيمانِ به سبُحانه.[58]

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

أي: ومَن يتَّخِذْ منكم– أيُّها المُؤمِنونَ– أقارِبَه الكُفَّارَ بِطانةً، يُحِبُّهم ويُناصِرُهم، ويُؤثِرُ المُقامَ بينهم على الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ، فأولئك هم الذين عَصَوُا اللهَ، وخالَفُوا أمرَه، فوَضَعوا الوَلايةَ في غَيرِ مَوضِعِها، واتَّخَذوا من يَضرُّهم أولياءَ، وترَكوا ما ينفَعُهم مِن الهجرةِ والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى.

---

(58) قال ابنُ عطية: (ظاهِرُ هذه المُخاطَبةِ أنَّها لجَميعِ المُؤمِنينَ كافَّةً، وهي باقيةُ الحُكمِ إلى يومِ القِيامةِ).
((تفسير ابن عطية)) (17/3).

قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24).

قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ.

أي: قل- يا محمَّدُ- للمُتخلِّفينَ عن الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ: إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم، وإخوانُكم في النَّسَبِ وزوجاتُكم، وعمومُ أقارِبِكم.

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا.

أي: وأموالٌ اكتسَبْتُموها، وتَعِبتُم في تَحصيلِها، وتجارةٌ تَخافونَ- إن هاجَرْتُم- عدَمَ بَيعِها ورواجِها، أو رُخْصَ سِعرِها ونقصَ أرباحِها، وبيوتٌ تُحِبُّونَ سُكْناها، فلا تُريدونَ تَرْكَها.

أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ.

أي: إن كانت تلك الأشياءُ أحبَّ إليكم مِن اللهِ ورَسولِه، وجهادٍ لإعلاءِ كَلِمتِه تعالى.

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحبَّ إليه ممَّا سِواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا لله، وأن يَكرَهَ أن يعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ)).(59)

وعنه أيضًا، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم، حتى أكونَ أحبَّ إليه مِن وَلَدِه ووالِدِه والنَّاسِ أجمَعينَ)).(60)

وعن عبدِ اللهِ بنِ هِشامٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ - ﷺ -، وهو آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، لأنت أحبُّ إليَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن نفسي، فقال النبيُّ - ﷺ -: لا والذي نفسي بِيَدِه، حتَّى أكونَ أحبَّ إليك مِن نَفسِك. فقال له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللهِ لأنتَ أحَبُّ إليَّ مِن نفسي. فقال النبيُّ - ﷺ -: الآنَ يا عُمَرُ)).(61)

فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ.

أي: فانتَظِرُوا- أيُّها المُتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ والجِهادِ- حتى يأتيَكم اللهُ بعُقوبةٍ عاجلةٍ أو آجِلةٍ.(62)

---

(59) رواه البخاري (16)، ومسلم (43) واللفظ له.

(60) رواه البخاري (15)، ومسلم (44) واللفظ له.

(61) رواه البخاري (6632).

(62) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (343/10)، ((تفسير الرازي)) (17/16)، ((تفسير السعدي)) (ص: 332)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (363/5).

وقيل: حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ أي: فتحِ مكةَ.

ونسَبه الواحديُّ للأكثرينَ.

عن أبي أُمامةَ رَضِيَ الله عنه، عنِ النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((مَن لم يَغْزُ أو يُجهِّزْ غازِيًا، أو يَخْلُفْ غازيًا في أهلِه بخَيرٍ؛ أصابَه اللهُ سُبحانه بقارعةٍ قبلَ يومِ القيامةِ)).(63)

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((مَن مات ولم يَغزُ، ولم يحدِّث به نفسَه، مات علَى شُعبةٍ من نِفاقٍ)).(64)

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((إذا تبايَعتُم بالعِينة،(65) وأخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ،(66) ورَضِيتُم بالزَّرعِ، وتَركْتم الجِهادَ؛ سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه، حتى ترجِعُوا إلى دينِكم)).(67)

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (385/11)، ((الوسيط)) للواحدي (487/2).
قال الشوكانيُّ: (وفيه بعدٌ؛ فقد رُوي أنَّ هذه السورةَ نزلتْ بعدَ الفتحِ).
((تفسير الشوكاني)) (396/2)، ويُنظر ((تفسير ابن عاشور)) (154/10).

(63) أخرجه أبو داود (2503)، وابن ماجة (2762) واللفظ له، والدارمي (2462)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (99).
صحح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (437)، وحسن الحديث الألباني في ((صحيح أبي داود)) (2503).

(64) رواه مسلم (1910).

(65) العِينَة: هي أن يبيعَ مِن الرَّجُل سلعةً بثَمَنٍ معلومٍ إلى أجَلٍ مُسمًّى، ثمَّ يَشترِيها منه نقدًا بأقَلَّ مِن الثَّمَنِ الذي باعها به.
يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (616/1).

(66) أخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ: كنايةٌ عن الاشتغالِ بالحَرْثِ.
يُنظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (84/1).

(67) أخرجه أبو داود (3462) واللفظ له، وأحمد (5007)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (432/12) (13583).
قال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (771/5): له طريق صحيح، وصحح إسناده ابن تيمية في ((بيان الدليل)) (109)، وقال ابن عبد الهادي في ((المحرر)) (315): رجال إسناده رجال الصحيح ، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (318/5): له طرق يشد بعضها بعضا، وصححه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (11) بمجموع طرقه.

وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.

أي: واللهُ لا يوفّقُ للخَيرِ الخارِجينَ عن طاعَتِه إلى مَعصِيَتِه، المُؤْثِرينَ على محبَّةِ الله تعالى شيئًا مِن تلك المذكوراتِ.(68)

(68) قال الشنقيطي: (مِثلُ هذه الآياتِ فيه سُؤالٌ معروفٌ للعُلَماء، كقَولِه تعالى: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ، لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فاللهُ جلَّ وعلا نفى هدايتَه للفاسِقينَ، ونفى هدايتَه للظَّالِمينَ، مع أنَّا نُشاهِدُ بعضَ الفاسقينَ الظَّالِمينَ يهديه اللهُ، وكم من كافرٍ شَديدٍ في الكُفرِ، ظالِمٍ فاسقٍ يهديه اللهُ! هذا وجهُ الإشكالِ.

وأجاب العُلَماءُ عن هذا بجوابَيْنِ: أحدُهما: أنَّ قولَه: لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ من العامّ المخصوص، وأنَّ المُرادَ بها الذين سبَقَ في علمِ اللهِ أنَّهم لا يَهتَدونَ مِن الفَسَقةِ والظَّلَمةِ، الذين قال الله فيهم: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ [يونس: 96-97] وقال بعضُ العُلَماءِ: لا يهديهم ما زالوا مُتَّصِفينَ بالظُّلمِ والفِسقِ، فإذا نَزَعوا عن ذلك برحمةِ اللهِ وهدايتِه، زال عنهم اسمُ الفِسقِ والظُّلمِ، فلا مانع إذَن من هُداهم.

هكذا قالَه بعضُ العُلَماءِ.

واللهُ تعالى أعلَمُ).

((العذب النمير)) (364/5).

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (25–27)

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا
وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26) ثُمَّ
يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27)

غريب الكلمات:

رَحُبَتْ: **أي: اتَّسَعَت، وأصلُ (رحب): يدل على سَعَةٍ.**

تفسير الآيات:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (25).

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ.

أي: لقد نصَرَكم اللهُ- أيُّها المُؤمنونَ أصحابَ رَسولِ اللهِ- على أعدائِكم الكُفَّارِ في غزَواتٍ كثيرةٍ.(69)

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا.

أي: ونَصَرَكم اللهُ أيضًا في غزوةِ حُنَينٍ، حين أعجَبَتْكم كَثْرَتُكم، فلم تُفِدْكم تلك الكَثرةُ شَيْئًا.(70)

---

(69) قال القاسمي: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ أي: في مَواقِفِ حروبٍ كثيرةٍ، ووَقَعاتٍ شَهيرةٍ؛ كغزوةِ بدرٍ وقُرَيظةَ، والنَّضيرِ والحُدَيبيَةِ، وخَيبر وفتحِ مكَّة.

وكانت غَزَواتُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم- على ما ذُكِرَ في الصَّحيحينِ من حديثِ زيدِ بنِ أرقَمَ- تِسعَ عَشرةَ غَزوةً.

زاد بُرَيدةُ في حديثٍ: قاتَلَ في ثمانٍ منهُنَّ، ويقال: إنَّ جَميعَ غَزَواتِه وسَراياه وبُعوثِه سبعونَ، وقيل: ثمانونَ).

((تفسير القاسمي)) (5/368).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (2/259)، ((تفسير الرازي)) (16/18)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (4/81-83)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/365).

(70) قال ابنُ جرير: (حُنَينٌ: وادٍ بين مكَّةَ والطَّائفِ).

((تفسير ابن جرير)) (11/386).

وقال ابن كثير: (كانت وقعةُ حُنَينٍ بعدَ فَتحِ مكَّةَ في شوَّال سنة ثمانٍ مِن الهجرةِ).

((تفسير ابن كثير)) (4/125).

وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ.

أي: وضاقَت عليكم الأرضُ مع سَعَتِها؛ لِشِدَّةِ ما أصابَكم.[71]

ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ.

أي: ثمَّ فَرَرتُم مِن الكُفَّارِ مُنهَزِمينَ.[72]

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ حُنَينٍ أقبَلَت هوازِنُ وغَطَفانُ وغيرُهم بنَعَمِهم وذَرارِيِّهم، ومع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم عَشرةُ آلافٍ، ومِنَ الطُّلَقاءِ، فأدبَرُوا عنه حتى بَقِيَ وَحدَه، فنادى يومَئذٍ نِداءَين، لم يَخلِطْ بينهما؛ التفتَ عن يمينِه فقال: يا معشَرَ الأنصارِ. قالوا: لبَّيكَ

---

(71) قال الواحدي: (ومعنى الآية: إنَّكم لشِدَّةِ ما لَحِقَكم من الخَوفِ، ضاقَت عليكم الأرضُ، فلم تَجِدوا فيها موضِعًا يصلُحُ لكم لِفرارِكم عن عَدُوِّكم).

((البسيط)) (347/10).

وقال السعدي: (وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بما أصابَكم مِنَ الهَمِّ والغَمِّ حين انهَزَمْتم).

((تفسير السعدي)) (ص: 332).

وقال الشنقيطي: (والخائفُ يضيقُ عليه فضاءُ الأرضِ الواسعُ؛ لأن مَنِ اشتَدَّ خوفُه ضاقَتِ الأرضُ في عينِه، وإن كانت طويلةً عريضةً واسعةً).

((العذب النمير)) (389/5).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (100/8).

(72) قال الشوكاني: (ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ أي: انهزَمْتُم حالَ كَونِكم مُدبِرينَ، أي: مُوَلِّينَ أدبارَكم، جاعلينَ لها إلى جهةِ عَدُوِّكم).

((تفسير الشوكاني)) (397/2).

يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ نَحن معَك، ثمَّ التفتَ عن يَسارِه فقال: يا مَعشَرَ الأنصارِ. قالوا: لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ نَحنُ معك، وهو على بَغلةٍ بَيضاءَ، فنزَلَ فقال: أنا عَبدُ اللهِ ورَسولُه، فانهزَمَ المُشرِكونَ)).[73]

وعن العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَهِدْتُ مع رسولِ اللهِ – ﷺ – يومَ حُنَينٍ، فلَزِمْتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رسولَ اللهِ – ﷺ –، فلم نُفارِقْه، ورسولُ اللهِ – ﷺ – على بغلةٍ له بيضاءَ، أهداها له فَروةُ ابنُ نُفاثةَ الجُذاميُّ، فلمَّا التقى المُسلِمونَ والكُفَّارُ ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرين، فطَفِقَ رَسولُ الله – ﷺ – يُركِضُ بَغلَتَه قِبَلَ الكُفَّارِ، قال عبَّاسٌ: وأنا آخِذٌ بلِجامِ بَغلةِ رَسولِ اللهِ – ﷺ – أكُفُّها؛ إرادةَ ألَّا تُسرِعَ، وأبو سُفيانَ آخِذٌ بركابِ رَسولِ اللهِ – ﷺ –، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: أيْ عبَّاسُ، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ. فقال عبَّاس – وكان رَجُلًا صَيِّتًا –: فقُلتُ بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرةِ؟ قال: فواللهِ، لكأنَّ عَطفتَهم – حين سَمِعوا صوتي – عَطفةُ البَقَرِ على أولادِها، فقالوا: يا لَبيكَ، يا لَبَّيك، قال: فاقتَتَلوا والكُفَّارَ، والدُّعوةُ في الأنصارِ يقولون: يا مَعشرَ الأنصارِ، يا مَعشرَ الأنصارِ. قال: ثمَّ قَصُرَت الدَّعوةُ على بني الحارِثِ بنِ الخَزْرجِ، فقالوا: يا بَني الحارِثِ بنِ الخَزرجِ، يا بني الحارِثِ ابنِ الخزرجِ، فنظَرَ رَسولُ الله – ﷺ –، وهو على بَغلَتِه كالمُتطاوِلِ عليها إلى قِتالِهم، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: هذا حينَ حِمِيَ الوَطيسُ. ثم أخذَ رسولُ الله – ﷺ – حَصَياتٍ

(73) رواه البخاري (4337) واللفظ له، ومسلم (1059).

فرمى بهِنَّ وُجوهَ الكُفَّارِ، ثم قال: انهزَموا وربِّ مُحمَّدٍ.قال: فذهَبْتُ أنظُرُ، فإذا القِتالُ على هَيئَتِه فيما أرى، قال: فواللهِ، ما هو إلَّا أن رماهم بحَصَياتِه، فما زِلْتُ أرى حَدَّهم كَليلًا، وأمْرَهم مُدبِرًا)).[74]

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((افتتَحْنا مكَّةَ، ثم إنَّا غَزَوْنا حُنينًا، فجاء المُشركون بأحسَنِ صُفوفٍ رأيتُ، فصُفَّتِ الخَيلُ، ثم صُفَّتِ المُقاتِلة، ثم صُفَّتِ النِّساءُ مِن وراء ذلك، ثمَّ صُفَّتِ الغَنَمُ، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ، ونحن بَشَرٌ كثيرٌ، وعلى مُجَنِّبةِ خَيلِنا خالدُ بنُ الوليد، فجَعَلَتْ خيلُنا تلوي خَلْفَ ظُهورِنا، فلم نلبَثْ أن انكشَفَت خَيلُنا، وفرَّتِ الأعرابُ ومَن نعلَمُ مِن النَّاسِ، فنادى رسولُ اللهِ – ﷺ –: يا لَلمُهاجِرينَ، يا لَلمُهاجِرينَ. ثم قال: يا لَلأنصارِ، يا لَلأنصارِ. قُلنا: لبَّيك يا رسولَ الله، قال: فتقدَّمَ رَسولُ اللهِ – ﷺ –، فايْمُ اللهِ، ما أتَيناهم حتَّى هَزَمَهم اللهُ، فقَبَضْنا ذلك المالَ، ثم انطَلَقْنا إلى الطَّائِفِ فحاصَرْناهم أربعينَ ليلةً، ثم رَجَعْنا إلى مكَّةَ، فنزَلْنا، فجعل رسولُ اللهِ – ﷺ – يُعطي الرَّجُلَ المِئةَ مِن الإبِلِ)).[75]

وعن أبي إسحاقَ، قال: ((قال رجلٌ للبَراءِ: يا أبا عُمارةَ، أفرَرْتم يومَ حُنَينٍ؟! قال: لا واللهِ، ما ولَّى رَسولُ الله – ﷺ –، ولكِنَّه خرَجَ شُبَّانُ أصحابِه وأخِفَّاؤُهم حُسَّرًا، ليس عليهم سِلاحٌ أو كثيرُ سِلاحٍ، فلَقُوا قومًا رُماةً، لا يكادُ يَسقُطُ لهم سَهمٌ؛ جَمْعَ هوازِنَ وبني نَصرٍ، فرَشَقوهم رشْقًا ما يكادُونَ يُخطِئونَ،

---

(74) رواه مسلم (1775).
(75) رواه مسلم (1059).

فأقبَلُوا هناك إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، ورسولُ اللهِ - ﷺ - على بَغلَتِه البَيضاءِ، وأبو سفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ يقودُ به، فنزل فاستنصَرَ، وقال: أنا النبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ)).[76]

ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (26).

ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

أي: ثمَّ بعد أن ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرينَ يومَ حُنَينٍ، أنزَلَ اللهُ ثَباتَه وطُمأنينَتَه على رسولِه محمَّدٍ - ﷺ -، وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ، فأذهَبَ خوفَهم.[77]

وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا.

أي: وأنزَلَ اللهُ يومَ حُنَينٍ جُنودًا مِن الملائكةِ، لم تَرَوْها- أيُّها المُسلِمونَ- أنزَلَها اللهُ تعالى لِتَجْبينِ الكُفَّارِ، وتقويةِ قُلوبِ المُؤمِنينَ، وتَثبيتِهم، وتَبشيرِهم بالنَّصرِ.[78]

---

(76) رواه البخاري (2864)، ومسلم (1776) واللفظ له.

(77) قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: المُرادُ بالمُؤمِنينَ الذينَ أنزَلَ اللهُ سَكينتَه عليهم: مَن ثَبَتوا معه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.
وقال بعضُ العُلَماءِ: يدخُلُ فيهم الذينَ رَجَعوا بعد الفِرارِ والهَزيمةِ، وقاتلوا معه عَدُوَّه.
والتَّحقيقُ: أنَّ اللهَ أنزَلَ سكينَتَه على الجَميعِ: الذين بَقُوا معه ولم يَفِرُّوا، والذين رَجَعوا إليه).
((العذب النمير)) (390/5).

(78) قال الرازي: (لا خلافَ أنَّ المُرادَ إنزالُ المَلائكةِ).
((تفسير الرازي)) (20/16).

وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ.

أي: وعذَّب اللهُ يومَ حُنَينٍ الكافرينَ، بأيدي المُؤمِنينَ؛ بقَتلِهم وأسْرِهم، وأخْذِ أمْوالِهم، وسَبْيِ أهالِيهم وذَراريِّهم.

وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ.

أي: وذلك التَّعذيبُ الذي أصابَهم، هو جَزاءُ أهلِ الكُفرِ في الدُّنيا؛ بسبَبِ كُفرِهم.

ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (27).

وقال القرطبي: (وَأَنْزَلَ جُنودًا لَمْ تَرَوْهَا وهم الملائكةُ؛ يُقَوُّونَ المُؤمِنينَ بما يُلقونَ في قُلوبِهم مِن الخواطِرِ والتَّثبيتِ، ويُضْعِفونَ الكافِرينَ بالتَّجبينِ لهم من حيثُ لا يَرَونَهم، ومن غيرِ قِتالٍ؛ لأنَّ الملائكةَ لم تُقاتِلْ إلَّا يومَ بَدرٍ).
((تفسير القرطبي)) (101/8).

وقال الشنقيطي: (قد قدَّمْنا في سورةِ الأنفالِ أنَّ أَظْهَرَ الأقوالِ أنَّ الملائكةَ قاتَلَت يومَ بدرٍ، وأنَّها لم تُقَاتِلْ في غيرِها، بل تأتي لِتَجبينِ الكُفَّارِ، وتقويةِ قلوبِ المؤمنينَ وَنُصرتِهم، هذا هو الظَّاهِرُ).
((العذب النمير)) (393/5).

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء.

أي: ثمَّ يُوفِّقُ اللهُ للتَّوبةِ- مِن بعدِ تَعذيبِ الكافِرينَ في الدُّنيا- مَن يشاءُ أن يتوبَ عليه مِنهم، فيَهديه إلى الإسلامِ.(79)

---

(79) قال ابنُ عاشور: (هذا إشارةٌ إلى إسلامِ هَوازِنَ بعد تلك الهزيمةِ؛ فإنَّهم جاؤوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مسلمينَ تائبينَ، وسألُوه أن يرُدَّ إليهم سَبْيَهم وغنائمَهم، فذلك أكبرُ مِنَّةٍ في نَصرِ المُسلِمينَ؛ إذ أصبحَ الجُندُ العَدُوُّ لهم مُسلِمينَ معهم، لا يَخافونَهم بعد ذلك اليَوم).

((تفسير ابن عاشور)) (10/158-159).

قال ابنُ كثير: (قد تاب اللهُ على بقيَّةِ هوازِنَ، وأسلموا وقَدِموا عليه مُسلِمينَ، ولَحِقوه وقد قاربَ مكَّةَ عند الجِعْرَانةِ، وذلك بعد الوَقعةِ بقَريبٍ مِن عشرينَ يومًا، فعند ذلك خيَّرَهم بين سَبْيِهم وبين أموالِهم، فاختاروا سَبْيَهم، وكانوا ستَّةَ آلافِ أسيرٍ ما بين صبيٍّ وامرأةٍ، فردَّه عليهم، وقسَمَ أموالَهم بين الغانِمينَ، ونفَّلَ أناسًا مِن الطُّلَقاءِ؛ لِيَتألَّفَ قُلوبَهم على الإسلامِ، فأعطاهم مئةً مئةً مِن الإبِلِ).

((تفسير ابن كثير)) (4/130).

وقال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ يدخُلُ فيه المُنهَزِمونَ الذين انهَزَموا عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مَن رجَعَ منهم وكَرَّ، ومَن لم يرجِعْ.

قالوا: ويدخُلُ فيه الكافِرونَ الذين قال الله [فيهم]: وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا؛ لأنَّ كثيرًا منهم تابوا فتابَ اللهُ عليهم...

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ على من يشاءُ أن يتوبَ عليه، وهذه يُفهَمُ منها أنَّه تعالى تاب على الذينَ انهَزَموا وإن لم يُصَرِّحْ بها).

((العذب النمير)) (5/394، 396).

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أي: واللهُ غفورٌ لِذُنوبِ التَّائِبينَ إليه، فيستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم فيُوفِّقُهم- سُبحانَه- للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منهم، ولا يُعَذِّبُهم بعدَها.

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (28–29)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)

غريب الكلمات:

عَيْلَةً: أي: فَقرًا وفاقةً؛ من: عال يَعِيلُ عَيلةً: إذا احتاجَ.

يَدِينُونَ: أي: يُسلِمُونَ، ويُطيعونَ؛ يقالُ: دان له يَدِينُ دِينًا: إذا انقادَ وطاعَ، وأصلُ (دين): يدلُّ على جنسٍ مِن الانقيادِ.

الْجِزْيَةَ: أي: الخراجَ المجعولَ على رأسِ الذِّميّ، وتسميتُها بذلك للاجتزاءِ بها عن حَقْنِ دَمِهم، وأصلُ (جزي): يدلُّ على قيامِ الشَّيءِ مَقامَ غَيرِه ومُكافأتِه إيَّاه.

صَاغِرُونَ: أي: أذِلَّاءُ مَقهورونَ، وأصلُ (صغر): يدلُّ على قِلَّةٍ وحَقارةٍ.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، المُطَهَّرةُ بواطِنُهم بالإيمانِ، ما المُشرِكونَ بجَميعِ مِلَلِهم وأديانِهم إلَّا نَجِسةٌ وخَبيثةٌ بواطِنُهم؛ بالشِّركِ والكُفرِ بالرَّحمنِ.[80]

---

(80) قال الشوكاني: (استَدَلَّ بالآيةِ من قال: بأنَّ المُشرِكَ نَجِسُ الذَّاتِ، كما ذهب إليه بعضُ الظَّاهريَّة والزيدية. ورُوِيَ عن الحسن البصري، وهو محكيٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ.
وذهب الجُمهورُ مِن السَّلَفِ والخَلَفِ– ومنهم أهلُ المذاهِبِ الأربعةِ– إلى أنَّ الكافِرَ ليس بنَجِسِ الذَّاتِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانه أحلَّ طَعامَهم، وثبت عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك مِن فِعْلِه وقَوْلِه ما يُفيدُ عَدمَ نَجاسةِ ذَواتِهم؛ فأكَلَ في آنِيَتِهم، وشَرِبَ منها، وتوضَّأَ فيها، وأنزَلَهم في مَسجِدِه).
((تفسير الشوكاني)) (2/399)، ويُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (1/506).
وقال محمد رشيد رضا: (وقيل: المرادُ بنَجاسَتِهم تلبُّسُهم بها دائمًا؛ لِعَدَمِ تعبُّدِهم بالطَّهارةِ كالمُسلمين، وقولُ الجُمهورِ بأنَّ المرادَ النَّجاسةُ المَعنويَّةُ، أظهَرُ، والجمعُ بين القولينِ أَوْلى؛ لأنَّه أعَمُّ).
((تفسير المنار)) (10/243).
ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (1/233)، ((تفسير ابن كثير)) (4/131).

فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا.

أي: لِأنَّ المُشركِينَ نَجَسٌ، فلا تُمكِّنُوهم مِن دُخُولِ جميعِ الحَرَمِ، بعد هذا العامِ التَّاسعِ للهِجرةِ، الذي نبَذْتُم فيه لِجَميعِ المُشرِكينَ عُهودَهم.(81)

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَعَثَني أبو بكرٍ الصِّدّيقُ في الحَجَّةِ التي أمَّرَه عليها رَسولُ اللهِ – ﷺ – قبل حَجَّةِ الوَداعِ، في رَهطٍ يُؤَذِّنونَ في النَّاسِ يومَ النَّحرِ: لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفُ بالبَيتِ عُرْيانٌ))(82)

وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء.

أي: وإنْ خِفْتُم– أيُّها المُؤمنونَ– فقرًا بسبَبِ مَنْعِكم المُشرِكينَ مِن دُخولِ الحَرَمِ، وانقطاعِ التِّجارةِ التي بينكم وبينهم؛ فسوف يُغنِيكم اللهُ مِن رِزقِه(83) إن شاءَ.

---

(81) قال الشِّنقيطي: (وعلى كُلِّ حالٍ، فالمشركونَ، كعَبَدةِ الأوثانِ؛ أجْمَعَ جميعُ العلماءِ على مَنْعِهم مِن دُخولِ المسجدِ، واختلفوا في الكتابيِّ وفي غيرِ المسجدِ من سائرِ الحَرَمِ، وقد بَيَّنَّا أنَّ الصَّوابَ– إن شاء الله– مَنْعُهم مِن ذلك كُلِّه).
((العذب النمير)) (409/5).

(82) رواه البخاري (369)، ومسلم (1347) واللفظ له.

(83) قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماءِ: أغْناهم مِن فَضلِه بما فَتَحَ من بابِ الجِزْيةِ.
قالوا: والدَّليلُ عليه أنَّ الآيةَ التي بعدَها آيةُ الجِزيةِ، فأخَذَ المُسلمونَ الجزيةَ من الكفَّارِ، واستغنَى بها المسلمونَ.
وقال بعضُ العلماءِ: أغْناهم بإنزالِ المطَرِ، وأخصَبَتِ الأرضُ، فأخصَبَتْ بلادُ اليَمَنِ، وأخصبَت تَبَالةُ وجُرَشُ، وجَلَبوا لهم من الطَّعامِ والوَدَكِ، وأسلَمَ قبائِلُ العَرَبِ في اليَمَنِ، وفي نجدٍ وفي غيره، فكانوا يحجُّونَ كُلَّ سَنةٍ ويأتونَهم بمثْلِ ما كانوا يأتونَهم به من الطَّعامِ والأموالِ، فأغناهم اللهُ بذلك).
((العذب النمير)) (415/5–416).

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ الله عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تُخفِيه صُدورُكم مِن خَوفِ العَيْلةِ، وعليمٌ بما يَصلُحُ لِعبادِه، فيَعلَمُ مَن يليقُ به الغِنى، ومَن لا يَليقُ به، حكيمٌ في شَرْعِه وفي تَدبيرِ شُؤونِ خَلْقِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29).

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ.

أي: قاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ إيمانًا صحيحًا، ولا يُؤمِنونَ بالبَعثِ يومَ القيامةِ، والجَنَّةِ والنَّارِ.(84)

---

(84) قال ابنُ كثيرٍ: (هذه الآيةُ الكريمةُ نزَلَت أوَّلَ الأمرِ بقتالِ أهلِ الكِتابِ، بعد ما تمهَّدَتْ أمورُ المُشركين، ودخل النَّاسُ في دينِ اللهِ أفواجًا، فلما استقامَت جزيرةُ العَرَبِ، أمر اللهُ رسولَه بقتالِ أهلِ الكِتابَيْنِ: اليَهودِ والنصارى، وكان ذلك في سنةِ تِسعٍ؛ ولهذا تجهَّزَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقتالِ الرُّومِ، ودعا النَّاسَ إلى ذلك، وأظهَرَه لهم، وبعَثَ إلى أحياءِ العَرَبِ حولَ المدينةِ فندَبَهم، فأوعَبُوا معه، واجتمَعَ من المُقاتِلةِ نحوٌ مِن ثلاثينَ ألفًا، وتخلَّف بعضُ النَّاسِ مِن أهلِ المدينةِ ومَن حَولَها مِن المُنافِقينَ، وغيرِهم، وكان ذلك في عامِ جَدْبٍ، ووقْتِ قَيظٍ وحَرٍّ، وخرج عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يريدُ الشَّامَ لِقتالِ الرُّومِ، فبلَغَ تَبوكَ، فنزَلَ بها، وأقام على مائِها قريبًا مِن عِشرينَ يومًا، ثم استخار اللهَ في الرُّجوعِ، فرجَعَ عامَه ذلك؛ لِضِيقِ الحالِ، وضَعْفِ النَّاسِ).

((تفسير ابن كثير)) (132/4).

وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ.

أي: ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ، وما حرَّم رسولُه، فلا يتَّبِعون شَريعَتَه.(85)

وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ.

أي: والكُفَّارُ الذين أمَرْناكم بقِتالِهم- أيُّها المُؤمِنونَ- مِن اليَهودِ والنَّصارى، الذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ، لا يدينونَ بالإسلامِ.(86)

---

(85) قال الرازي: (قوله تعالى: وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وفيه وجهان؛ الأول: أنَّهم لا يُحَرِّمونَ ما حُرِّمَ في القرآنِ وسُنَّةِ الرَّسولِ.

والثاني: قال أبو روق: لا يعملونَ بما في التَّوراة والإنجيل، بل حَرَّفوهما، وأتَوْا بأحكامٍ كثيرةٍ مِن قِبَلِ أنفُسِهم).

((تفسير الرازي)) (25/16).

وقال أبو السعود: (وقيل: المرادُ برسولِه: الرَّسولُ الذي يزعُمونَ اتِّباعَه، أي: يُخالِفونَ أصْلَ دِينِهم المنسوخِ اعتقادًا وعملًا).

((تفسير أبي السعود)) (58/4).

(86) قال ابن تيمية: (دخَلَ في الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ جميعُ أهلِ الكِتابِ الذين بلَغَتْهم دعوتُه، ولم يُؤمِنوا به).

((الجواب الصحيح)) (64/3).

قال الشنقيطي: (وفي قولِه: دِينَ الْحَقِّ وجهانِ من التفسيرِ: أحدُهما: أن (الحقَّ) هو ضِدُّ الباطلِ، وأنَّ دينَ الحقِّ من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه.

أي: الدينُ الذي هو الحقُّ الذي هو دينُ الإسلامِ.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [آل عمران: 85].

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ [آل عمران: 19].

الوجهُ الثاني: أن الحقَّ هو اللَّه، فالحقُّ من أسماءِ اللَّهِ.

وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ أي: دين الله الذي شَرَعَهُ على لسانِ نَبِيِّهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم).

((العذب النمير)) (420/5).

وقال ابنُ جريرٍ: (ولا يُطيعون الله طاعةَ الحقِّ.

حَتَّىٰ يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

أي: قاتِلوهم إلى أن يَقْبَلوا دفْعَ أموالِ الجِزْيةِ– التي تُؤخَذُ جزاءَ تركِ المسلمينَ قتالَهم، وإقامتِهم آمنينَ بينَ أظهرِ المسلمينَ،وذلك في حالِ كونِهم لم يُسلِموا– فيَبْذُلوها لكم بأيديهم، وهُم أذلَّاءُ مَقهورونَ.[87]

يعني أنَّهم لا يُطيعون طاعةَ أهلِ الإسلامِ).

((تفسير ابن جرير)) (406/11).

(87) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: عَنْ يَدٍ هو أن يدفعوها بأيديهم، ولا يُقبل منهم إرسالُها: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسعديُّ.يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/406-407)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 460)، ((تفسير السعدي)) (ص: 334).وممن اختار أنَّ المعنى: عن قهرٍ لهم وغلبةٍ: ابنُ كثيرٍ، والسمينُ الحلبيُّ.يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/133)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (6/37).

وممن اختار أنَّ المعنى: عن قدرةٍ وسعةٍ، فلا يُظلمون ويرهقون: محمد رشيد رضا.يُنظر: ((تفسير المنار)) (10/255).

وقال الشنقيطي: (قولُه في هذه الآية الكريمة: عَنْ يَدٍ فيه أوجهٌ مِن التفسيرِ معروفةٌ عند العُلماءِ لا يكذبُ بعضُها بعضًا؛ قال بعضُ العلماءِ: يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ: أي: عن قهرٍ وتحت ذُلٍّ، وكلُّ ما أعطاه الإنسانُ مقهورًا ذليلًا تقول العربُ: أعطاه عن يدٍ.

وقال بعض العلماء: يعطيه عن يدٍ، معناه: يسلِّمُه بيدِه ولا يرسِلُ به غيره، فالدافعُ واقِفٌ والآخِذُ جالِسٌ.

وقال بعض العلماء: عَنْ يَدٍ أي: نقدًا مُتسَلَّمًا باليدِ لا نسيئةً.

وقال بعض العلماء: عَنْ يَدٍ أي: عن اعترافِهم بنعمةِ المُسلمين عليهم؛ حيث قَبِلوا منهم العِوَضَ ولم يقتُلوهم) ((العذب النمير)) (5/ 421).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/250)، ((تفسير ابن عطية)) (3/23).

وقد اتَّفق الفقهاءُ على أنَّ الجزيةَ تُقبلُ مِن أهلِ الكتابِ والمجوسِ، واختلفوا في المشركينَ وعبدةِ الأوثانِ، كما اختلفوا في أوصافِ أهلِ الكتابِ والمجوسِ الذين تُقبل منهم الجزيةُ.

يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (2/166)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (15/166).

وقال ابن القيم: (الجزيةُ تؤخَذُ من كلِّ كافرٍ...

ولا يُقالُ: إنَّ القُرآنَ يدُلُّ على اختصاصِها بأهلِ الكِتابِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه أمَرَ بقِتالِ أهلِ الكتابِ، حتى يُعطُوا الجِزيةَ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمَرَ بقِتالِ المُشركِينَ حتى يعطُوا الجزيةَ، فيُؤخَذُ مِن أهلِ الكِتابِ بالقُرآنِ، ومِن عُمومِ الكُفَّارِ بالسُّنَّةِ، وقد

أخَذَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من المجوسِ، وهم عُبَّادُ النَّارِ، لا فَرْقَ بينهم وبين عَبَدةِ الأوثانِ، ولا يَصِحُّ أنَّهم من أهلِ الكِتابِ، ولا كان لهم كِتابٌ).

((أحكام أهل الذمة)) (1/89).

وقال أيضًا: (قولُه تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فلا يجوز الإمساكُ عن قتالِهم إلَّا إذا كانوا صاغرين حالَ إعطاءِ الجزيةِ.

والمرادُ بإعطاءِ الجِزيةِ من حينِ بَذْلِها أو التزامِها إلى حينِ تَسليمِها وإقباضِها، فإنَّهم إذا بَذَلوا الجزيةَ شَرَعوا في الإعطاءِ، ووجَبَ الكَفُّ عنهم إلى أن نقبِضَها منهم، فمتى لم يلتزموها، أو التَزَموها وامتَنَعوا من تسليمِها، لم يكونوا مُعطِينَ لها، فليس المرادُ أن يكونوا صاغرينَ حال تناوُلِ الجِزيةِ منهم فقط، ويفارِقُهم الصَّغارُ فيما عدا هذا الوقتَ، هذا باطِلٌ قطعًا).

((أحكام أهل الذمة)) (3/1377).

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (30–31)

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)

غريب الكلمات:

يُضَاهِئُونَ: أي: يُشابِهونَ، والمُضاهاةُ: مُعارَضةُ الفِعلِ بمِثْلِه، يقالُ: ضاهَيْتُه: إذا فعَلْتَ مثلَ فِعْلِه، وأَصْلُ (ضهي): يدلُّ على مُشابَهَةِ شَيءٍ لِشَيءٍ.

تفسير الآيتين:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30).

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ.

أي: وقالت اليهودُ:[88] عُزَيرٌ هو ابنُ اللهِ!

---

(88) قال ابنُ تيميةَ بعدَ أن ذكَر أنَّ جمهورَ اليهودِ لا يقولون ذلك: (وبالجملة إنَّ قائلِي ذلك من اليهودِ قَليلٌ، ولكِنَّ الخبَرَ عن الجِنسِ).

((درء تعارض العقل والنقل)) (7/88-89).

وقال ابنُ الجوزي: (فإن قيل: إن كان قول بعضِهم، فلِمَ أُضيفَ إلى جَميعِهم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنَّ إيقاعَ اسْمِ الجماعةِ على الواحِدِ مَعروفٌ في اللُّغةِ...

والثاني: أنَّ مَن لم يَقُلْه، لم يُنْكِرْه).

((تفسير ابن الجوزي)) (2/252).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (10/168).

وقال الشوكانيُّ: (وظاهرُ قولِه: وقالت اليهود أنَّ هذه المقالةَ لجميعِهم).

((تفسير الشوكاني)) (2/402)، ونسَب ابنُ الجوزيِّ لابنِ عباسٍ أنَّ الذين قالوا هذا هم جميعُ بني إسرائيلَ.

((تفسير ابن الجوزي)) (2/251).

قال الشنقيطي: (ومما يَدُلُّ على أنَّ هذه المقالةَ صَدَرَتْ من اليهودِ أن هذا القرآنَ يُتْلَى من قديمِ الزمانِ من نزولِ هذه الآيةِ، ولم يُعْلَمْ أن يهوديًّا في زمانِها كَذَّبَ بذلك، وقال: ما قُلْنَا هذا! مع مسارعتِهم إلى التكذيبِ).

((العذب النمير)) (5/438).

وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ.

أي: وقالت النَّصارى: المسيحُ عيسى ابنُ مَريمَ، هو ابنُ اللهِ!

كما قال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ [البقرة: 116].

وقال سبحانه: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا [مريم: 88 – 92].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: لِيَتْبَعْ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقى أحدٌ كان يعبُدُ غيرَ اللهِ– سُبحانه– من الأصنامِ والأنصابِ إلَّا يَتساقَطونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يبقَ إلَّا مَن كان يعبُدُ اللهَ مِن بَرٍّ وفاجرٍ وَغُبَّرٍ[89] أهلِ الكِتابِ، فيُدعى اليَهودُ، فيقالُ لهم: ما كُنْتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عُزَيرَ ابنَ اللهِ، فيُقال: كذَبْتُم؛ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا وَلَدٍ، فماذا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنا يا رَبَّنا، فاسْقِنا، فيُشارُ إليهم: ألَا تَرِدُونَ؟[90]

(89) غُبَّرٍ (بضَمِّ الغَينِ وفتح الباء المُشَدَّدة) أي: بَقايَا.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (26/3).

(90) تَرِدُونَ: مِن الوُرودِ على الماءِ، أي: الوُصولِ إلى تناوُلِه.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (332/6).

فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ، يَحطِمُ[91] بعضُها بعضًا، فيتساقَطونَ في النَّارِ، ثم يُدعَى النَّصارى، فيُقالُ لهم: ما كُنتُم تَعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ المسيحَ ابنَ اللهِ، فيُقال لهم: كَذَبْتُم؛ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا وَلَدٍ، فيُقال لهم: ماذا تَبغُونَ؟ فيقولونَ: عَطِشْنا يا رَبَّنا، فاسْقِنا، قال: فيُشارُ إليهم: ألَا تَرِدُونَ؟ فيُحشَرونَ إلى جَهنَّمَ، كأنَّها سرابٌ، يَحطِمُ بعضُها بعضًا، فيتَساقَطونَ في النَّارِ)).[92]

ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ.

أي: نِسبَةُ الوَلَدِ إلى اللهِ تعالى كَذِبًا وزورًا هو قولُ اليهودِ والنَّصارى بألسنتِهم، فلا مُستنَدَ لهم فيما ادَّعَوه.[93]

---

(91) يَحطِمُ: أي: يَكسِرُ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (7/82).
(92) رواه البخاري (4581)، ومسلم (183) واللفظ له.
(93) قال ابن عطية: (قوله: بِأَفْوَاهِهِمْ يتضمَّنُ معنيَين: أحدهما: إلزامُهم المقالةَ، والتَّأكيدُ في ذلك، كما قال: يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ [البقرة: 79]، وكقَوله تعالى: وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ [الأنعام: 38] ، والمعنى الثاني في قوله: بِأَفْوَاهِهِمْ أي: هو ساذَجٌ لا حُجَّةَ عليه ولا بُرهانَ، غايةُ بيانِه أنْ يُقالَ بالأفواهِ قولًا مُجَرَّدًا نفس دَعْوى).
((تفسير ابن عطية)) (3/24).
ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (3/200)، ((البسيط)) للواحدي (10/378، 379)، ((تفسير الشوكاني)) (2/402، 403).

يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ.

أي: يُشابِهُ قَولُ اليهودِ والنَّصارى في نِسبَتِهم الوَلَدَ إلى الله تعالى، قَولَ الكُفَّارِ مِن الأُمَمِ قَبلَهم في ذلك.(94)

---

(94) قال الرازي: (في تفسيرِ هذه الآيةِ وُجوهٌ: الأول: أنَّ المُرادَ أنَّ هذا القولَ مِن اليَهودِ والنَّصارى يُضاهي قَولَ المُشركِينَ: الملائكةُ بناتُ اللهِ.
الثاني: أنَّ الضَّميرَ للنَّصارى، أي: قولُهم: المسيحُ ابنُ اللهِ، يُضاهِي قولَ اليَهودِ: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ؛ لأنَّهم أقدَمُ منهم.
الثالث: أنَّ هذا القَولَ مِن النَّصارى يُضاهي قَولَ قُدَمائِهم، يعني: أنَّه كُفرٌ قَديمٌ، فهو غيرُ مُستَحدَثٍ).
((تفسير الرازي)) (30/16).
ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (353/2)، ((تفسير الزمخشري)) (264/2)، ((تفسير ابن الجوزي)) (252/2)، ((تفسير القرطبي)) (118/8)، ((تفسير ابن جزي)) (336/1)، ((تفسير أبي حيان)) (403/5).
وممَّن اختار أنَّ المُرادَ بالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ: الكُفَّارُ مِن الأمَمِ السَّابقة: ابن كثير، وابن عاشور.
يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: يُشابِه قَولُ اليَهودِ والنصارى في نِسبَتِهم الولَدَ إلى اللهِ، قَولَ أسلافِهم الذين كَفَروا مِن قَبْلِهم.
وهو قولُ ابن قتيبة، والزجاج.
يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 184)، ((معاني القرآن)) للزجاج (443/2).
وقيل: يُشابِهُ قَولُ اليهودِ والنَّصارى في نِسبتِهم الولدَ إلى اللهِ، قَولَ مُشركِي العَرَبِ الذين كفَروا مِن قَبْلِهم، إذ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ.
وهذا اختيارُ السعدي، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 335)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (438/5).
وقيل: يشابِهُ قَولُ النَّصارى في نِسبَتِهم الولَدَ إلى اللهِ، قَولَ اليَهودِ الذين كَفَروا مِن قَبْلِهم.
وهو اختيارُ ابن جرير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/413، 414).
قال الشنقيطي: (وهذا كلُّه لا يُكذِبُ بَعضُه بعضًا).
((العذب النمير)) (438/5).
وقال ابنُ تيميَّةَ بعد أن ضعَّفَ القَولَ بأنَّهم قدماءُ الذين كَفَروا، أو مُشركو العَرَبِ: (فلعَلَّه الصابئونَ المُشرِكونَ الذين كانوا قبلَ موسى والمسيحِ بأرْضِ الشَّامِ ومِصرَ وغيرِها، الذين يجعلونَ الملائكةَ أولادًا له).

قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ.

أي: لعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، كيف يُصرَفونَ عَنِ الحقّ، فيَضِلُّونَ عنه، ويَعْدِلونَ إلى الباطِلِ، ومِن أينَ يتطرَّقُ إليهم ذلك الصَّرْفُ بعد وضوحِ الدَّليلِ على أنَّ اللهَ تعالى لم يتَّخِذْ وَلَدًا؟![95]

كما قال تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ [المائدة: 72 – 77].

((مجموع الفتاوى)) (440/2).

(95) قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: المُقاتَلةُ أصـــلُها مِن القَتلِ، فإذا أُخبِرَ عن اللهِ بها، كانت بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ، فهو بمنزلةِ المَقتولِ الهالِكِ).

((الوسيط)) (490/2).

اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31).

اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ.

أي: اتَّخذَ اليَهودُ عُلَماءَهم، واتَّخذ النَّصارى عُبَّادَهم، سادةً يُطيعونَهم مِن دُونِ اللهِ، في تحليلِ الحرامِ، وتَحريمِ الحَلالِ.(96)

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ.

أي: واتَّخَذَ النَّصارى المسيحَ عِيسى ابنَ مَريمَ إلهًا مِن دُونِ الله سُبحانَه!

وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا.

أي: وما أُمِرَ اليَهودُ والنَّصارى في كُتُبِهم إلَّا أن يعبُدوا ويُطيعُوا مَعبودًا واحدًا، وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، المُتَفَرِّدُ بالتَّشريعِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ دونَ ما سِواه.

---

(96) قال الرازي: (حاصِـــلُ الكلامِ أنَّ تلك الربوبيَّةَ يحتملُ أن يكونَ المرادُ منها أنَّهم أطاعوهم فيما كانوا مُخالِفينَ فيه لِحُكمِ الله، وأن يكونَ المرادُ منها أنَّهم قَبِلوا أنواعَ الكُفرِ، فكَفَروا باللهِ، فصـارَ ذلك جاريًا مجرى أنَّهم اتَّخذوهم أربابًا مِن دونِ اللهِ، ويحتملُ أنَّهم أثبَتوا في حَقِّهم الحُلولَ والاتِّحادَ.
وكُلُّ هذه الوجوهِ الأربعةِ مُشاهَدٌ وواقِعٌ في هذه الأمَّةِ).
((تفسير الرازي)) (31/16).

كما قال تعالى: وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ [البينة: 4-5].

لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ.

أي: لا مُستَحِقَّ للعبادةِ إلَّا اللهُ وَحدَه.

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أي: تنَزَّه اللهُ وتقَدَّس أتمَّ تنزيهٍ، عن شِرْكِ المُشرِكينَ، وافتراءاتِ الكافِرينَ.

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (32–33)

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)

تفسير الآيتين:

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32).

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ.

أي: يريدُ اليَهودُ والنَّصارى أن يُبْطِلوا دينَ اللهِ الإسلامَ، بما يقولونَه بألسِنَتِهم مِن تكذيبٍ للحَقِّ، وافتراءاتٍ عليه.(97)

كما قال تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [الصف: 7، 8].

وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ.

أي: ولا يَرضى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ دينَه، ويُظهِرَه للنَّاس.

كما قال تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا [المائدة: 3].

---

(97) قال ابن كثير: (مَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ مَن يريدُ أن يُطفِئَ شُعاعَ الشَّمسِ، أو نورَ القَمرِ بنَفْخِه! وهذا لا سبيلَ إليه، فكذلك ما أَرسَلَ اللهُ به رسولَه؛ لا بُدَّ أن يَتِمَّ ويَظهَرَ).
((تفسير ابن كثير)) (136/4).

وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

أي: ولو كَرِهَ الكُفَّارُ إتمامَ اللهِ دينَه، فإنَّه سيُتِمُّه لا محالةَ.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33).

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الذي بعَثَ رَسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالعِلمِ النَّافعِ المُشتَمِل على الإيمانِ الصَّحيحِ، ومعرفةِ الشَّرائعِ والأحكامِ، وبَعَثَه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِل على الأعمالِ الصَّالحةِ النَّافعةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

أي: ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ بالغَلَبةِ والانتصارِ على أهلِ الأديانِ، ويُعلِيَه بالحُجَّةِ والبُرهانِ على سائرِ الأديانِ.[98]

---

(98) قال الرازي: (لا دينَ بخلافِ الإسلامِ، إلَّا وقد قَهَرَهم المسلمونَ، وظَهَروا عليهم في بعضِ المواضِعِ، وإن لم يكُن كذلك في جميعِ مَواضِعِهم، فقهَروا اليهودَ وأخرَجُوهم من بلادِ العَرَب، وغَلَبوا النَّصارى على بلادِ الشَّامِ وما والاها إلى ناحيةِ الرُّومِ والغَرْبِ، وغَلَبوا المجوسَ على مُلْكِهم، وغَلَبوا عُبَّادَ الأصنامِ على كثيرٍ من بلادِهم ممَّا يلي التُّركَ والهِندَ، وكذلك سائرُ الأديان؛ فثبت أنَّ الذي أخبرَ الله عنه في هذه الآيةِ قد وقع وحصَل، وكان ذلك إخبارًا عن الغَيبِ، فكان مُعجِزًا).
((تفسير الرازي)) (33/16).

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((لا يذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى. فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إن كنْتُ لَأظنُّ حين أنزلَ اللهُ: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيكونُ من ذلك ما شاءَ اللهُ)).(99)

وعن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((إنَّ اللهَ زَوَى(100) لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتِي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها)).(101)

وعن خبَّابِ بن الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، وهو متوسِّدٌ بُردةً له في ظِلِّ الكعبةِ، قُلنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا، ألَا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمن قبلَكم يُحفَرُ له

وقال ابن عاشـور: (ظهورُ الإسلامِ على الدِّينِ كُلِّه حصَلَ في العالَمِ، باتِّباعِ أهلِ المِلَلِ إيَّاه في سـائرِ الأقطار، بالرَّغمِ على كراهيةِ أقوامِهم وعظماءِ مِلَلِهم ذلك، ومُقاوَمَتِهم إيَّاه بكلِّ حيلةٍ، ومع ذلك فقد ظهرَ وعلا، وبان فضـلُه على الأديانِ التي جاوَرَها...

ولا يلزَمُ مِن إظهارِه على الأديانِ أن تنقرِضَ تلك الأديانُ).

((تفسير ابن عاشور)) (10/173، 174).

وقال الألباني: (تُبَشِّرُنا هذه الآيةُ الكريمةُ بأنَّ المُستقبَلَ للإسلامِ، بسَيطَرتِه وظُهورِه وحُكْمِه على الأديانِ كلِّها، وقد يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ ذلك قد تحقَّقَ في عهدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعهدِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ والملوكِ الصَّالحين، وليس كذلك، فالذي تحقَّقَ إنَّما هو جزءٌ مِن هذا الوَعدِ الصَّادِقِ).

((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (1/31).

(99) رواه مسلم (2907).

(100) زَوَى لِي الأرضَ:أي: قَبَضَها وطَوَاها، وجَعَلَها مجموعةً كَهَيئةِ كَفٍّ في مرآةِ نَظَرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (9/3676).

(101) رواه مسلم (2889).

في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه، فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عصَبٍ، وما يصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ، أو الذِّئبَ على غنَمِه، ولكنَّكم تَستعجِلون)).[102]

وعن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ)).[103]

---

(102) رواه البخاري (3612).

(103) أخرجه أحمد (16957)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (6155)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (58/2) (1280)، والحاكم في ((المستدرك)) (8326).

قال الحاكم (615/5): صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (17/6): رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (158): على شرط مسلم.

وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

أي: ولو كَرِهَ المشركونَ ظُهورَ الإسلامِ على جميعِ الأديانِ، فإنَّ اللهَ سيُظهِرُه.(104)

(104) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ الضمير يعود على الدين، وإظهاره أن تصير الأديان كلها دينًا واحدًا، وهو الإسلام، وذلك عند نزول عيسى ابن مريم – عليه السلام –.

وثانيها: أنّ الضمير يعود على الدين، وإظهاره أن يجعله أعلاها وأظهرها، وإن كان معه غيره كان دونه.

وثالثها: أنّ الضمير يعود على الرسول – ﷺ –، وإظهاره على الدين كله أن يطلعه ويعلمه الشرائع كلها، والحلال والحرام.

وعلَّقَ ابنُ عطية (٤/ ٢٩٩) على القول الأول بقوله: «كأنّ هذه الفرقة رأت الإظهار على أتم وجوهه، أي: حتى لا يبقى معه دين آخر».

وعلَّقَ على القول الثاني بقوله: «هذا لا يحتاج إلى نزول عيسى، بل كان هذا في صدر الأمة، وهو حتى الآن –إن شاء الله–».

واسْتَدْرَكَ على القول الثالث، ومالَ إلى الثاني مستندًا إلى السياق، ودلالة العقل بقوله: «هذا التأويل وإن كان صحيحًا جائزًا فالآخرُ أبرعُ منه، وأَلْيَقُ بنظام الآية، وأحرى مع كراهية المشركين».

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (34–35)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)

غريب الكلمات:

يَكْنِزُونَ: أي: يجمَعونَ، والكَنْزُ: جعلُ المالِ بعضِه على بعضٍ وحفظُه. وكلُّ ما لم تؤدَّ زكاتُه فهو كنزٌ، وأَصلُ (كنز) يدلُّ على تجَمُّعٍ في الشَّيءِ.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

أي: يا أيُّها المُؤمنونَ، إنَّ كثيرًا[105] مِن عُلَماءِ اليهودِ وعُبَّادِ النَّصارى، يتملَّكونَ أموالَ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ؛ فاحْذَروا التشبُّه بعُلَماءِ السُّوءِ، والعُبَّادِ الضالِّينَ، ولا تكونُوا مِثْلَهم.

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ.

أي: ويُعرِضُ أولئك الأحبارُ والرُّهبانُ عن اتِّباعِ الحقِّ، ويَمنعونَ النَّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ.[106]

---

(105) قال ابن عاشــور: (أسـنَدَ الحُكمَ إلى كثيرٍ منهم دونَ جميعِهم؛ لأنَّهم لم يَخْلُوا من وجودِ الصَّـالحينَ فيهم، مثل عبدِ اللهِ ابنِ سَلَامٍ، ومُخَيريقٍ).
((تفسير ابن عاشور)) (175/10).

(106) قال ابنُ عاشـور: (الصدُّ عن سبيلِ الله: الإعراضُ عن متابعةِ الدِّينِ الحَقِّ في خاصَّـةِ النَّفسِ، وإغراءُ النَّاسِ بالإعراضِ عن ذلك، فيكون هذا بالنِّسـبةِ لأحكامِ دينِهم؛ إذ يُغيِّرونَ العمَلَ بها، ويُضَـلِّلونَ العامَّةَ في حقيقَتِها، حتى يَعمَلوا بخلافِها، وهم يَحسَـبونَ أنَّهم مُتَّبِعونَ لِدينِهم، ويكونُ ذلك أيضًـا بالنِّسـبةِ إلى دِينِ الإسـلامِ؛ إذ يُنكِرونَ نُبوَّةَ مُحمَّدٍ صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم، ويُعلِّمونَ أتباعَ مِلَّتِهم أنَّ الإسلامَ ليس بِدينِ الحَقِّ).
((تفسير ابن عاشور)) (175/10).

وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بقولِه تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا [التوبة: 103]. (107)

عن خالدِ بنِ أسلمَ، قال: (خرَجْنا مع عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، فقال أعرابيٌّ: أخبِرْني عن قَولِ الله تعالى: وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه قال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما: مَن كَنَزَها فلم يُؤَدِّ زَكاتَها، فوَيلٌ له؛ إنَّما كان هذا قَبلَ أن تُنزَلَ الزَّكاةُ،(108) فلما أُنزِلَت جعَلَها اللهُ طُهرًا للأموالِ).(109)

---

(107) وهو قولُ ابنِ عُمَرَ، وعُمرَ بن عبد العزيز، وعِراكِ بنِ مالكٍ، وهبَةِ الله بن سلامة المُقري، وابن حزم، وابن البارزي، ومرعي الحنبلي.

يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للمقري (ص: 99)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: 40)، ((تفسير ابن عطية)) (28/3)، ((ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه)) لابن البارزي (ص: 35)، ((تفسير ابن كثير)) (139/4)، ((قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن)) لمرعي الحنبلي (ص: 117)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (117/2).

(108) قال ابن حجر: (قولُه: «إنَّما كان هذا قبلَ أنْ تَنزِلَ الزَّكاةُ» هذا مُشْعِرٌ بأنَّ الوَعيدَ على الاكْتِنازِ، وهو حَبْسُ ما فضَلَ عَنِ الحاجَةِ عَنِ المُواساةِ به كان في أوَّلِ الإسلامِ ثُمَّ نُسِخَ ذلك بفَرْضِ الزَّكاةِ، لَمَّا فَتَحَ اللهُ الفُتوحَ، وقُدِّرَتْ نُصُبُ الزَّكاةِ، فعلى هذا المُرادُ بنُزولِ الزَّكاةِ بيانُ نُصُبِها ومَقاديرِها، لا إنزالُ أصْلِها، والله أعلم).

((فتح الباري)) (273/3).

(109) رواه البخاري (1404).

قال محمد رشيد رضا: (المرادُ: أنَّ هذا الحُكمَ- وهو وجوبُ إنفاقِ كُلِّ ما يملِكُ المؤمنُ مِن النَّقدَينِ- كان في أوَّلِ الإسلامِ، وقَبلَ فَرْضِ الزَّكاةِ، وليس معناه أنَّ آيةَ براءة هذه نزلت قبل إيجابِ الزَّكاةِ؛ لِما عليه الجمهورُ مِن أنَّ الزَّكاةَ فُرِضَت في السَّنَةِ الثانية من الهجرة، وبراءة نزَلَت سنةَ تِسعٍ).

وقيل: الآيةُ مُحكَمةٌ، ولا نَسْخَ فيها.(110)

وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

((تفسير المنار)) (351/10).

(110) وهو قول جمهور المفسرين.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (395/10)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (467/2-468).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه اختلف المفَسِّرون في هذه الآية على ثلاثةِ أقوال:...

الثالث: أنها في المسلمينَ، قاله ابن عباس والسُّدِّي، وفي المراد بالإنفاقِ هاهنا قولان: أحدهما: إخراجُ الزكاةِ، وهذا مذهَبُ الجمهور، والآيةُ على هذا مُحكَمةٌ...

والثاني: أن المرادَ بالإنفاقِ إخراجُ ما فضَلَ عن الحاجةِ، وقد زعم بعضُ نَقَلةِ التَّفسيرِ: أنَّه كان يجب عليهم إخراجُ ذلك في أوَّلِ الإسلامِ، ثم نُسِخَ بالزكاةِ، وفي هذا القولِ بُعدٌ).

((نواسخ القرآن)) (467/2-468).

وقال البغوي: (الآيةُ نزَلَت في مَنْعِ الزَّكاةِ، لا في جَمْعِ المالِ الحلالِ؛ قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ، للرَّجُلِ الصَّالِحِ»).

((تفسير البغوي)) (343/2).

وقال ابن عاشور: (وجهُ مُناسَبةِ نُزولِ هذه الآيةِ في هذه السُّورة: أنَّ هذه السُّورةَ نَزَلت إثرَ غَزوةِ تَبوكَ، وكانت غزوةُ تَبوكَ في وقتِ عُسرةٍ، وكانت الحاجةُ إلى العُدَّةِ والظَّهرِ كثيرةً، كما أشارت إليه آيةُ: وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ [التوبة: 92] ، وقد ورد في السِّيرةِ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حضَّ أهلَ الغِنى على النَّفَقةِ والحملانِ في سبيلِ اللهِ، وقد أنفق عثمانُ ابنُ عَفَّانَ ألفَ دينارٍ ذَهبًا على جيشِ غَزوةِ تَبوك، وحَمَل كثيرٌ مِن أهل الغِنى، فالذين انكَمَشوا عن النَّفَقةِ هم الذين عَنَتْهم الآيةُ بـ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه ولا شَكَّ أنَّهم من المنافقين...

والوعيدُ مَنوطٌ بالكنزِ وعَدَمِ الإنفاقِ، فليس الكَنزُ وَحْدَه بمُتوَعَّدٍ عليه، وليست الآيةُ في مَعرِضِ أحكامِ ادِّخارِ المال، وفي مَعرِضِ إيجابِ الإنفاقِ، ولا هي في تعيينِ سُبُلِ البِرِّ والمعروفِ التي يجِبُ الإخراجُ لأجْلِها من المالِ، ولا داعيَ إلى تأويلِ الكَنزِ بالمالِ الذي لم تؤَدَّ زكاتُه حين وجوبِها، ولا إلى تأويلِ الإنفاقِ بأداءِ الزَّكاةِ الواجبة، ولا إلى تأويلِ سبيلِ الله بالصَّدَقاتِ الواجبة؛ لأنَّه ليس المرادُ باسمِ الموصول العمومَ، بل أُريدَ به العهدُ، فلا حاجة إلى ادِّعاءِ أنَّها نسَخَتْها آيةُ وُجوبِ الزكاة؛ فإنَّ وُجوبَ الزَّكاةِ سابقٌ على وقتِ نُزولِ هذه الآيةِ).

((تفسير ابن عاشور)) (176/10، 177).

أي: والذين يجمعونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ بعضَها إلى بعضٍ، ويُمسِكُونَها، ولا يُخرِجونَ حقوقَ اللهِ منها- مِن الزَّكاةِ والنَّفَقاتِ الواجِبةِ، وبَذْلِها في الجهادِ- فبَشِّرْهم يا مُحمَّدُ بعذابٍ مُوجِعٍ.(111)

كما قال تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [آل عمران: 180].

---

(111) قال الواحدي: (الأكثرونَ على أنَّ قَولَه تعالى: وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ... إلى آخره، مُستأنَفٌ نازِلٌ في هذه الأمَّةِ ...

واختلفوا في المرادِ بهذا الكَنزِ، وترْكِ هذا الإنفاقِ؛ فالذي عليه الأكثرونَ- وهو الإجماعُ اليومَ- أنَّ المُرادَ بهذا الكَنزِ: هو جَمعُ المالِ الذي لا تؤدَّى زكاتُه).

((البسيط)) (10/393، 395).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/424)، ((تفسير الرازي)) (16/35)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/118).

وقال القرطبي: (قال أبو ذَرٍّ وغيرُه: المرادُ بها: أهلُ الكتابِ وغيرُهم مِن المسلمينَ، وهو الصَّحيحُ؛ لأنه لو أراد أهلَ الكِتابِ خاصَّةً، لقال: ويَكنِزونَ، بغيرِ وَالَّذِينَ).

((تفسير القرطبي)) (8/123).

ويُنظر: ((صحيح ابن خزيمة)) (4/10،9)، ((تفسير أبي حيان)) (5/411)، ((تفسير الشوكاني)) (2/406)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (10/349)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/118).

وقال الشنقيطي: (كان أبو ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه عنده مذهَبٌ معروفٌ مُخالِفٌ لجميعِ أقوالِ الصَّحابةِ، يضيقُ في اقتناءِ المالِ، وكان رضِي اللهُ عنه يقول: إنَّ الإنسانَ إذا ادَّخَرَ شيئًا زائدًا عن خَلَّتِه الضروريَّةِ، فهو كنزٌ يُكوى به وَجهُه وظَهرُه وجَنبُه، وكان يذكُرُ هذا للنَّاسِ؛ ومن أجلِ هذا أمَرَه عُثمانُ رَضِيَ اللهُ عنه أيَّامَ خِلافتِه أن يخرُجَ إلى الربذةِ، وتوفِّيَ بها رضي اللهُ عنه وأرضاه، وأبو ذَرٍّ معذورٌ؛ لأنه جاء النبيَّ في أوَّلِ الإسلامِ، وكان المسلمون في أوَّلِ الإسلامِ فُقَراءَ ليس عندهم شيءٌ، وكان التَّشديدُ في إمساكِ الذَّهَبِ والفضَّةِ في ذلك الوقتِ عَظيمًا، فسَمِعَ من النبيِّ شيئًا ورجع إلى أهلِه بالباديةِ، ثم أنزل اللهُ فريضةَ الزَّكاةِ، وكثُرَ المالُ واتَّسعَ الأمرُ، وزال التَّشديدُ، ولم يَعلَمْ رَضِيَ اللهُ عنه بشيءٍ من ذلك، فصار على التَّشديدِ الأوَّلِ؛ لأنَّه سَمِعَه من رسولِ اللهِ، ولم يسمَعْ ما طرأ بعد ذلك).

((العذب النمير)) (5/454).

وقال سبحانه: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ [الهمزة: 1– 4].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((همُ الأخسَرونَ وربِّ الكعبةِ. فقلتُ: يا رسولَ الله، فِدَاك أبي وأمِّي، مَن هُم؟ قال: هم الأكثَرونَ أموالًا، إلَّا من قال هكذا وهكذا وهكذا– مِن بينِ يَدَيه ومِن خَلْفِه وعن يَمينِه وعن شِمالِه– وقليلٌ ما هم، ما مِن صاحِبِ إبلٍ ولا بقَرٍ ولا غَنَمٍ، لا يُؤدِّي زكاتَها، إلَّا جاءت يومَ القيامةِ أعظَمَ ما كانت وأسْمَنَه، تنطَحُه بِقُرونِها، وتَطَؤُه بأظلافِها، كلَّما نَفِدَت أُخْراها، عادت عليه أُولاها، حتى يُقضَى بين النَّاسِ)).(112)

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((مَن آتاه اللهُ مالًا فلم يؤَدِّ زكاتَه؛ مُثِّلَ له مالُه شُجاعًا أقرَعَ(113) له زَبِيبتانِ،(114) يُطَوِّقُه يومَ القِيامةِ، يأخُذُ بلِهْزِمَتَيه– يعني بشِدْقَيه– يقولُ: أنا مالُك، أنا كَنْزُك. ثمَّ تلا هذه الآيةَ: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ... إلى آخِرِ الآيةِ)).(115)

---

(112) رواه البخاري (6638)، ومسلم (990) واللفظ له.

(113) أقرع: أي الذي لا شَعْرَ على رأسِه؛ لِكَثرةِ سَمِّه، وطُولِ عُمُرِه.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (4/1267).

(114) الزَّبِيبةُ: نُكْتة سوداءُ فوقَ عين الحيَّة وقيل غير ذلك.

ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (2/704).

(115) رواه البخاري (4565).

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: ((كنتُ ألبَسُ أوْضاحًا[116] مِن ذَهَبٍ، فقُلتُ: يا رسولَ الله، أكَنْزٌ هو؟ فقال: ما بلَغَ أن تُؤدَّى زكاتُه فزُكِّي، فليس بكَنزٍ)).[117]

وعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلَ في الفِضَّةِ والذَّهَبِ ما نَزَلَ، قالوا: فأيَّ المالِ نتَّخِذُ؟ قال عُمَرُ: فأنا أعلَمُ لكم ذلك. فأوضَعَ على بَعيرِه، فأدرَكَ النَّبيَّ - ﷺ -، وأنا في أثَرِه، فقال: يا رسولَ الله، أيَّ المالِ نَتَّخِذُ؟ فقال: ليتَّخِذْ أحدُكم قَلبًا شاكرًا، ولِسانًا ذاكرًا، وزوجةً مُؤمِنةً تُعِينُ أحَدَكم على أمْرِ الآخِرةِ)).[118]

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35).

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ.

---

(116) أوْضاح: جمْعُ وَضَحٍ: نوعٌ من الحَلْيِ، يُعمَلُ مِن الفِضَّةِ، سُمِّيَ به لبياضِه.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (4/1295).

(117) رواه أبو داود (1564)، والطبراني (23/281) (613)، والحاكم (1/547)، والبيهقي (4/83) (7485).
حسَّنه ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (10/439)، وحسن الألبانيُّ في ((ضعيف سنن أبي داود)) (1564) المرفوع منه فقط، وحسَّن إسناده النوويُّ في ((المجموع)) (6/13)، وصحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (14/104).

(118) أخرجه الترمذي (3094) بنحوه، وابن ماجه (1856) واللفظ له، وأحمد (22437).
حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (1517).

أي: يومَ[119] يُوقَدُ فيه على كُنوزِهم في نارِ جهنَّمَ، فتُحرق بالذَّهَبِ والفِضَّةِ المكنُوزةِ جِباهُهم وجُنوبُهم وظهورُهم.[120]

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ، لا يؤدِّي منها حَقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القِيامةِ، صُفِّحَت له صفائحَ[121] من نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ

(119) قال ابنُ جريرٍ: (فاليومُ مِن صِلَةِ العذابِ الأليمِ، كأنَّه قِيل: يُبَشِّرُهم بعذابٍ أليمٍ يُعَذِّبُهم اللهُ به في يومِ يُحْمَى عليها).
((تفسير ابن جرير)) (436/11).
وقال القرطبيُّ: («يَوْمَ» ظرفٌ، والتَّقديرُ يُعذَّبونَ يومَ يُحْمَى.
ولا يصحُّ أنْ يكونَ على تقديرِ: فبشِّرْهم يومَ يُحْمَى عليها؛ لأنَّ البشارةَ لا تكونُ حينَئِذٍ).
((تفسير القرطبي)) (129/8).
(120) قال الواحدي: (قال المفسِّرون: من كان له مالٌ في الدُّنيا لم يؤدِّ زكاتَه، أُحمِيَ دراهمُه ودنانيرُه في نارِ جهنَّم، وكُوِيَ بها في هذه المواضِعِ؛ لا يُوضَعُ دينارٌ مكانَ دِينارٍ، ولا دِرهَمٌ مكانَ دِرهَمٍ، ولكن يُوسَّعُ جِلْدُه، فيُوضَعُ بكُلِّ دِرهمٍ ودينارٍ كَيَّةٌ على جِلْدِه»، وهذا معنى قولِ ابنِ مَسعودٍ وابنِ عبَّاسٍ).
((البسيط)) (403/10).
وقال ابن عاشور: (كيفيَّةُ إحضارِ تلك الدَّراهم والدَّنانيرِ لِتُحمى؛ مِن شُؤونِ الآخرةِ الخارِقةِ للعاداتِ المألوفة، فبقدرةِ الله تُحضَرُ تلك الدَّنانيرُ والدَّراهمُ أو أمثالُها، كما ورد في حديثِ مانعِ الزكاةِ في المُوطَّأِ والصَّحيحين أنَّه «يُمثَّلُ له مالُه شُجاعًا أقرَعَ يأخُذُ بلِهزِمَتَيه، يقول: أنا مالُك، أنا كَنْزُك»، وبقدرة الله يُكوى المُمتَنِعون من إنفاقِها في سبيلِ الله، وإن كانت قد تَداوَلَ أعيانَها خَلْقٌ كثيرٌ في الدُّنيا، بانتقالِها من يدٍ إلى يدٍ، ومن بلدٍ إلى بلدٍ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ).
((تفسير ابن عاشور)) (179/10).
(121) صُفِّحَت له صفائِحَ: تصفيحُ الشَّيءِ: جَعْلُه عَريضًا، والصفائح: جَمعُ صَفيحةٍ؛ مِن صَفَّحْتُ الشَّيءَ: إذا بسطْتَه.
يُنظر: ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (409/2)، ((نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار)) للعيني (79/8).

جهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبِينُه وظَهْرُه، كُلَّما بَرُدَت أُعِيدَت له، في يومٍ كان مِقدارُه خَمسينَ ألفَ سَنَةٍ، حتى يُقضَى بين العِبادِ، فيُرى سَبيلَه؛ إمَّا إلى الجنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ)).[122]

وعن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (بَشِّرِ الكانِزينَ بِرَضْفٍ[123] يُحْمَى عليه في نارِ جهنَّمَ، ثم يُوضَعُ على حَلَمةِ ثَدْيِ أحَدِهم حتى يَخرُجَ مِن نُغْضِ[124] كَتِفِه، ويُوضَعُ على نُغْضِ كَتِفِه حتى يَخرُجَ مِن حَلَمةِ ثَدْيِه، يتزَلزَلُ.[125][126]

هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ.

أي: يُقالُ تَوبيخًا وتَهَكُّمًا مِن الذينَ تُكوَى جِباهُهم وجُنوبُهم وظُهورُهم، بِكُنوزِهم: هذا الذي تُكوَونَ به في النَّارِ هو ما جَمَعْتُم في الدُّنيا لأنفُسِكم، دونَ أن تُؤَدُّوا حُقوقَ اللهِ فيه، فاطعَمُوا عذابَ هذا الذي كُنتُم تَكْنِزونَه.

---

(122) رواه مسلم (987).

(123) الرَّضْف: الحِجَارَةُ المُحْمَاةُ على النَّار.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (2/231)، ((شرح النووي على مسلم)) (7/77).

(124) النُّغْضُ: هو العَظْمُ الرَّقيقُ على طَرَفِ الكَتِف.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (7/78).

(125) الزَّلْزَلَةُ في الأصْل: الحَرَكَةُ العظيمةُ والإزعاجُ الشديدُ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (2/308).
قال النوويُّ: (قولُه «يتزلزل» أي يتحرَّك.
قال القاضي: قيل: معناه أنَّه بسببِ نضجِه يتحرَّك لكونِه يهتري، قال: والصوابُ أنَّ الحركةَ والتزلزلَ إنَّما هو للرضفِ، أي يتحرَّك من نغضِ كتفِه حتَّى يخرجَ مِن حلمةِ ثديه) ((شرح النووي على مسلم)) (7/78).

(126) رواه البخاري (1407) واللفظ له، ومسلم (992).

عن جابرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((ما من صاحِبِ إبلٍ ولا بقَرٍ ولا غَنَمٍ، لا يؤدّي حَقَّها، إلا أُقعِدَ لها يومَ القيامةِ بِقَاعٍ قَرقَرٍ[127] تطؤه ذاتُ الظِّلْفِ بظِلْفِها[128] وتنطَحُه ذاتُ القَرنِ بِقَرنِها، ليس فيها يومَئذٍ جَمَّاءُ[129] ولا مَكسورةُ القرْنِ. قلْنا: يا رسولَ الله، وما حَقُّها؟ قال: إطراقُ فَحْلِها،[130] وإعارةُ دَلْوِها،[131] ومَنيحَتُها، وحَلْبُها على الماءِ، وحَملٌ عليها في سبيلِ الله. ولا مِن صاحِبِ مالٍ لا يُؤَدِّي زكاتَه، إلَّا تَحوَّلَ يومَ القِيامةِ شُجاعًا أقرَعَ، يَتْبَعُ صاحِبَه حيثما ذهَبَ، وهو يفِرُّ منه، ويُقال: هذا مالُك الذي كنْتَ تبخَلُ به، فإذا رأى أنَّه لا بُدَّ منه، أدخَلَ يدَه في فِيه، فجعَلَ يَقضَمُها [132] كما يَقْضَمُ الفحلُ)).[133]

---

(127) القَرقَر: هو المكانُ الواسِعُ المُستَوي.
يُنظر: ((حاشية السيوطي على سنن النسائي)) (13/5).
(128) الظِّلفُ: هو للبَقَر والغَنَم كالحافِرِ للفَرَس والبغل، والخُفِّ للبَعير.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (159/3).
(129) الجَمَّاءُ: التي لا قَرْنَ لها.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (300/1).
(130) إطراقُ فَحلِها: أي: إنزاؤُه.
يقال: طَرَقَ الفَحلُ النَّاقةَ: إذا نزا عليها.
يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (420/1).
(131) المنيحةُ: ناقةٌ أو بقَرةٌ أو شاةٌ ينتفِعُ بلَبَنِها ووَبَرِها وصُوفِها وشعَرِها زمانًا ثم يردُّها.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (72/7).
(132) يَقضَمُها: أي: يأكُلُها.
يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (500/3).
(133) رواه مسلم (988).

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (36–37)

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ **(36)** إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ **(37)**

غريب الكلمات:

عِدَّةَ: أي: عَدَدَ، وأصل العدِّ: إِحْصاءُ الشيءِ.

حُرُمٌ: أي: مُحَرَّمةٌ، وأصلُ (حرم): يدلُّ على مَنعٍ وتَشديدٍ.

الْدِّيْنُ الْقَيِّمُ: أي: الدينُ الصَّحيحُ المستقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ، والعدَدُ المُستوِي والمُستوفَى، وأصلُ (قوم): يدلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ وحِفظِه.

النَّسِيءُ: أي: تَأْخيرُ تَحْرِيمِ المُحَرَّمِ، وأصلُ (نسأ): يدلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ.

لِيُوَاطِئُوا: أي: لِيُوافِقوا، والمُواطَأةُ: المُوافَقةُ، وأصلُه أن يطَأَ الرَّجُلُ برِجلِه مَوطِئَ صاحِبِه.

تفسير الآيتين:

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36).

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ.

أي: إنَّ عددَ الشُّهورِ في حُكمِ الله وتقديرِه، اثنا عشَرَ شَهرًا قَمَرِيًّا، مكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ مُنذُ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [يونس: 5].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ - ﷺ - أنَّه قال: ((إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ؛ السَّنةُ اثنا عشَرَ شَهرًا، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متوالياتٌ: ذُو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورجَبُ شَهرُ مُضَرَ، الذي بين جُمادى وشَعبانَ)).(134)

---

(134) رواه البخاري (7447)، ومسلم (1679) واللفظ له.

قال ابن كثيرٍ: (قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحديثِ: ((إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ))، تقريرٌ منه- صلواتُ الله وسلامُه عليه- وتثبيتٌ للأمْرِ على ما جعلَه اللهُ تعالى في أوَّلِ الأمرِ، من غيرِ تقديمٍ ولا تأخيرٍ، ولا زيادةٍ ولا نقصٍ، ولا نَسيءٍ ولا تبديلٍ، كما قال في تحريمِ مكةَ: «إنَّ هذا البلَدَ حَرَّمه اللهُ يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ؛ فهو حرامٌ بحُرمةِ

مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ. (135)

الله إلى يومِ القيامة»، وهكذا قال هاهنا: «إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ» أي: الأمرُ اليومَ شَرعًا كما ابتدأ اللهُ ذلك في كتابِه يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ.

وقد قال بعض المفسّرين والمتكلّمين على هذا الحديثِ: إن المرادَ بِقَولِه: «قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ» أنَّه اتَّفَقَ أنْ حَجَّ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تلك السَّنةِ في ذي الحِجَّةِ، وأنَّ العَرَب قد كانت نَسَأتِ النَّسيءَ، يحجُّونَ في كثيرٍ من السنين، بل أكثَرِها، في غير ذي الحِجَّة!! وزعموا أنَّ حَجَّةَ الصِّدِّيقِ في سنةِ تِسعٍ كانت في ذي القَعدةِ! وفي هذا نظَرٌ).

((تفسير ابن كثير)) (146/4).

ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (493/5 – 495).

(135) قال ابنُ كثير (٧/ ١٩٨ – ١٩٩): «اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: أحدهما –وهو الأشــهر–: أنّه منســوخ؛ لأنه تعالى قال هاهنا: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفســكم﴾، وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مُشْعِرٌ بأنه أمر بذلك أمرًا عامًّا، فلو كان مُحَرَّمًا في الشهر الحرام لأوشك أن يُقَيِّده بانسلاخها؛ ولأنّ رسول الله – ﷺ – حاصر أهل الطائف في شهرٍ حرامٍ –وهو ذو القعدة– كما ثبت في الصحيحين: أنّه خرج إلى هوازن في شوال، فلمّا كسرهم، واستفاء أموالهم، ورجع فلُّهم، فلجئوا إلى الطائف؛ عمد إلى الطائف، فحاصرها أربعين يومًا، وانصرف ولم يفتتحها.

فثبت أنّه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أنّ ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ [التوبة: ٥]».

أي: مِن هذه الشُّهورِ الاثنَي عشَرَ أربعةُ أشهُرٍ، يَحْرُم انتهاكُ المحارِمِ فيها،[136] أشَدَّ ممَّا يَحرُمُ في غيرِها، وهي: ذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، ومُحرَّمٌ، ورجَب.[137]

---

(136) اختلف العلماءُ في تحريمِ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ؛ فذهَب الجمهورُ إلى أنَّ تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ منسوخٌ بالأمرِ بقتالِ المشركين حيثما وُجِدوا، في قولِه تعالى: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وممن ذهَب إلى ذلك سعيدُ بنُ المسيبِ، وسليمانُ بنُ يَسارٍ، وقتادةُ، والزهريُّ، وعطاءٌ الخراسانيُّ، وسفيانُ الثوريُّ، وأبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سلَّام، وابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلام (ص: 206- 208)، ((تفسير ابن جرير)) (663/3)، ((تفسير القرطبي)) (134/8).

وذهَب آخرونَ إلى أنَّ تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ باقٍ، غيرُ منسوخٍ، وهو قولُ عطاءِ بنِ أبي رباحٍ، ورجَّحه ابنُ القيِّم، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ.

يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلام (207/1)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (302/3، 303)، ((تفسير الشوكاني)) (409/2، 410)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (482/5).

قال ابنُ كثيرٍ: (اختلف العُلَماءُ في تحريمِ ابتداءِ القِتالِ في الشَّهرِ الحرام: هل هو منسوخٌ أو مُحكَمٌ؟ على قولين: أحدُهما- وهو الأشهَرُ- أنَّه منسوخٌ؛ لأنَّه تعالى قال هاهنا: فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ، وأمر بقتالِ المشركين، وظاهِرُ السِّياقِ مُشْعِرٌ بأنَّه أمَرَ بذلك أمرًا عامًّا، فلو كان مُحَرَّمًا في الشَّهرِ الحرامِ، لأوشَكَ أن يُقَيِّدَه بانسلاخِها؛ ولأنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حاصَرَ أهلَ الطَّائِفِ في شَهرٍ حرامٍ- وهو ذو القَعدة- كما ثبت في الصَّحيحين: أنه خرج إلى هوازِنَ في شوَّال، فلما كسرَهم واستفاءَ أموالَهم، ورجَعَ فَلُّهم، فلجَؤوا إلى الطَّائِفِ- عَمد إلى الطَّائِفِ فحاصَرَها أربعينَ يومًا، وانصرف ولم يفتَتِحْها، فثبت أنَّه حاصر في الشَّهرِ الحرامِ.

والقَولُ الآخَر: أنَّ ابتداءَ القِتالِ في الشَّهرِ الحرامِ حَرامٌ، وأنَّه لم يُنسَخْ تَحريمُ الحرامِ).

((تفسير ابن كثير)) (149/4).

وقال ابن القيم: (غزوُ الطَّائِفِ كان من تمامِ غزوةِ هَوازِنَ، وهم بدَؤُوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقتالِ، ولَمَّا انهزموا دخَلَ مَلِكُهم- وهو مالك بن عوف النضري- مع ثقيفٍ في حِصنِ الطَّائِفِ، مُحاربينَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان غزوُهم من تمامِ الغَزوةِ التي شَرَعَ فيها، واللهُ أعلم.

وقال الله تعالى في سورة المائدة، وهي من آخِرِ القُرآنِ نُزولًا، وليس فيها منسوخٌ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ [المائدة:2] ، وقال في سورة البقرة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [البقرة: 217] ، فهاتان آيتانِ مدنيَّتان بينهما في التُّزول نحوُ ثمانيةِ أعوام، وليس في كتابِ الله ولا سُنَّةِ

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.

أي: هذا الذي أخبَرْتُكم به- مِن كَونِ الشُّهورِ اثنَيَ عَشَرَ شَهرًا، منها أربعةٌ حُرُمٌ- هو الدِّينُ المُستَقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ.

رَسولِه ناسِخٌ لِحُكمِهما، ولا أجمَعَت الأمَّةُ على نَسْخِه، ومن استدَلَّ على نسخِه بقَولِه تعالى: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً [التوبة:36] ونحوِها من العُموماتِ، فقد استدَلَّ على النَّسخِ بما لا يدُلُّ عليه).

((زاد المعاد)) (3/302، 303).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (2/409، 410).

وقال الشنقيطي: (وَمِنْ أَصْرَحِ الأدلةِ في ذلك هو الحديثُ الذي أَشَرْنَا إليه؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خطَب به يومَ النحرِ في حجةِ الوداعِ عامَ عَشْرٍ، ولم يَعِشْ بعد ذلك إلا نحوَ ثمانينَ يومًا، وقد صَرَّحَ فيه بأن ذلك الشهرَ حرامٌ، وذلك اليومَ حرامٌ، وذلك البلدَ حرامٌ، ولم يأْتِ بعدَ ذلك شيءٌ يَنْسَخُ هذا التحريمَ الثابتَ عنه، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه).

((العذب النمير)) (5/482).

(137) قال الواحدي: (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ وهي: رجَب، وذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّم، في قولِ الجَميعِ).

((البسيط)) (10/409).

وقال الشنقيطي: (فالتَّحقيقُ أنَّ هذه الصورةَ التي نزل بها القرآنُ، التي كان يفعَلُ لهم الكِنانيُّونَ: أنَّهم سنةً يُحَرِّمون صَفرًا، ويُحِلُّون المُحَرَّم مكانَه، وفي سنةٍ يُبقونَ الأمرَ على حالِه، فيُحِلُّونَ المُحَرَّمَ سَنةً، ويُحَرِّمونه سنةً؛ لِيُواطِئوا بذلك- يُوافِقوا- عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ، وهي أربعةُ أشهُرٍ مِن السَّنَةِ).

((العذب النمير)) (5/495).

فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ.

أي: فلا تَظلِموا- أيُّها النَّاسُ- أنفُسَكم في هذه الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُم،[138] بارتكابِ السَّيِّئات.[139]

(138) ذهَب جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ إلى أنَّ معنى قوله: فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ أي: بإيقاعِ القتالِ فيها، والهتكِ لحرمتِها ولذا قالوا: إن تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرُمِ ثابتٌ محكمٌ لم يُنْسَخْ لهذه الآيةِ وغيرِها، وذهَب آخرونَ إلى أنَّ هذه الآيةَ على هذا التأويلِ منسوخةٌ بإباحةِ القتالِ في جميعِ الشهورِ، وذهب الجمهورُ إلى أنَّ الظلمَ هنا مؤوَّلٌ بارتكابِ المعاصي، وأنَّ حرمةَ المقاتلةِ في الأشهرِ الحرمِ منسوخةٌ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (8/134)، ((تفسير الشوكاني)) (2/409)، ((تفسير الألوسي)) (5/283).

(139) وهو قولُ جمهورِ المفسِّرين، منهم: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والرازي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ.

ونسَبه الرازي للجمهورِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/443، 444، 446)، ((البسيط)) للواحدي (10/412)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 462)، ((تفسير الرازي)) (16/43)، ((تفسير ابن كثير)) (4/148)، ((تفسير ابن عاشور)) (10/185).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: قتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/444).

قال القرطبي: (خصَّ اللهُ تعالى الأربعةَ الأشهُرَ الحُرُمَ بالذِّكرِ، ونهى عن الظُّلمِ فيها؛ تشريفًا لها، وإن كان منهيًّا عنه في كلِّ الزَّمانِ، كما قال تعالى: فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ [البقرة: 197] ، على هذا أكثَرُ أهلِ التَّأويلِ، أي: لا تَظلِموا في الأربعةِ الأشهُرِ أنفُسَكم).

((تفسير القرطبي)) (8/135).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/447).

وقيل: المعنى: فلا تَظلِموا أنفُسَكم بالمعاصي في جميعِ أشهُرِ السَّنَةِ، وممن اختاره ابنُ عطيَّةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (3/31).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/444).

وقال ابنُ عاشورٍ: (والأنفُسُ تحتَمِلُ أنَّها أنفُسُ الظَّالِمينَ في قَولِه: فَلَا تَظْلِمُوا أي: لا يظلِمْ كُلُّ واحدٍ نفسَه... ويجوز أن يكون الظُّلمُ بمعنى الاعتداءِ، ويكون المرادُ بالأنفُسِ أنفُسَ غيرِ الظَّالمينَ، وإضافتُها إلى ضميرِ المُخاطَبينَ للتَّنبيهِ على أنَّ الأمَّةَ كالنَّفسِ مِن الجسَدِ).

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ [المائدة: 2].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنهما، قال: ((لم يكُنْ رَسولُ الله - ﷺ - يغزُو في الشَّهرِ الحرامِ، إلَّا أن يُغزَى- أو يُغْزَوْا- فإذا حضَرَ ذاك، أقام حتى ينسلِخَ)).[140]

وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً.

أي: وقاتِلوا- أيُّها المُسلِمونَ- المُشرِكينَ كلَّهم، وأنتم مجتَمِعونَ مُؤتَلِفونَ مُتوافِقونَ جميعًا على قتالهم، بلا تفرُّقٍ ولا تخاذُلٍ ولا تقاطُعٍ، كما يقاتِلُكم المُشرِكونَ مُجتَمِعينَ غيرَ مُتفَرِّقينَ.[141]

((تفسير ابن عاشور)) (186/10).

(140) أخرجه القاسم بن سلام في ((الناسخ والمنسوخ)) (389)، وأحمد (14583)، والحارث بن أبي أسامة كما في ((بغية الباحث)) (645)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (4879).

صحح إسناده ابن كثير في ((التفسير)) (330/1)، وابن حجر في ((العجاب)) (470/1)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (69/6): رجاله رجال الصحيح، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (256): حسن على شرط مسلم.

(141) ممَّن اختار هذا القول: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والرازي، والشَّوكاني، ومحمد رشيد رضا.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (448/11)، ((تفسير ابن عطية)) (31/3)، ((تفسير الرازي)) (44/16)، ((تفسير الشوكاني)) (410/2)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (359/10).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1793/6)، ((تفسير ابن جرير)) (448/11).

قال ابن عطية: (قال بعضُ النَّاسِ: كان الفرضُ بهذه الآيةِ قد توجَّهَ على الأعيانِ، ثم نُسِخَ ذلك بعدُ، وجُعِلَ فَرضَ كِفايةٍ.

وهذا الذي قالوه لم يُعلَم قطُّ من شَرْعِ النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه ألزَمَ الأمَّةَ جَميعًا النَّفْرَ، وإنَّما معنى الآية: الحضُّ على قِتالِهم والتحزُّبُ عليهم وجَمعُ الكلِمةِ، ثم قيَّدَها بقولِه: كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ، فبِحَسَب قتالِهم واجتماعِهم لنا يكونُ فَرضُ اجتماعِنا لهم، وأمَّا الجِهادُ الذي يُنتَدَبُ إليه، فإنَّما هو فرضٌ على الكفايةِ؛ إذا قام به بعضُ الأمَّةِ سقَطَ عن الغَيرِ).

((تفسير ابن عطية)) (31/3).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (149/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 336).

وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ.

أي: واعلَموا- أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم إن قاتَلْتم المُشرِكينَ كافَّةً، واتَّقَيتُم اللهَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه؛ فإنَّ اللهَ معكم بِعَونِه وتأييدِه، وينصُرُكم على أعدائِكم المُشرِكينَ.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37).

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ.

وقيل: المعنى: وقاتِلوا- أيُّها المُسلِمونَ- جميعَ المُشرِكينَ، كما أنَّهم يستحِلُّونَ قِتالَكم جميعًا، وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ تيمية، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 462)، ((تفسير السمعاني)) (2/308)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (7/267)، ((تفسير السعدي)) (ص: 336)، ((تفسير ابن عاشور)) (10/187).

قال ابنُ تيميَّة: (وقَولُه تعالى: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً أي: قاتِلوهم كلَّهم، لا تَدَعُوا مُشرِكًا حتى تُقاتِلوه، فإنَّها أُنزِلَت بعد نَبْذِ العُهودِ، ليس المرادُ: قاتِلوهم مُجتَمِعينَ، أو جميعُكم؛ فإنَّ هذا لا يجِبُ، بل يُقاتَلون بحسَبِ المَصلحةِ، والجهادُ فرضٌ على الكفايةِ، فإذا كانت فرائِضُ الأعيانِ لم يؤكِّدِ المأمورونَ فيها بـ كَافَّةً، فكيفَ يؤكَّدُ بذلك في فُروضِ الكفايةِ؟! وإنما المقصودُ تعميمُ المقاتَلِينَ).

((مجموع الفتاوى)) (7/267).

وقال الواحدي: (يريدُ: قاتِلوهم كُلَّهم ولا تُحابوا بعضَهم بتَرْكِ القِتالِ؛ كما أنَّهم يستحِلُّونَ قِتالَ جَميعِكم، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: قاتِلوهم بأجمَعِكم، مجتمعينَ على قتالِهم كما يفعلونَ هم.

يريد: تعاوَنوا وتَناصَروا على ذلك ولا تتَخاذَلوا، وكِلا المعنيينِ يحتَمِلُه قولُه: جميعًا).

((البسيط)) (10/415، 416).

أي: إنَّما تأخيرُ تَحريمِ الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ، وتغييرُها عمَّا شَرَعَه اللهُ- بأن يكونَ شَهرُ مُحَرَّمٍ الحرامُ حلالًا، وشهرُ صَفَر الحَلالُ حَرامًا - زيادةٌ في كُفرِ مُشرِكي العَرَبِ، الذين ابتَدَعوا هذا التَّأخيرَ.(142)

يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ثلاثُ قِراءاتٍ:

1- قراءةُ: يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بضَمِّ الياءِ وفتح الضادِ، على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، أي: أنَّ الكافرين يُضَلُّون.(143)

2- قراءةُ: يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بضَمِّ الياء وكسرِ الضاد، ومعناه أنَّ الكفَّارَ يُضِلُّونَ بالنَّسيءِ أتباعَهم في إحْلالِهم المحَرَّمَ مَرَّةً، وتحريمِهم إيَّاه أخرى. أو: يُضِلُّ اللهُ الذين كفروا.(144)

---

(142) قال القرطبي: (قوله تعالى: زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ بيانٌ لِما فَعَلَتْه العَربُ مِن جَمْعِها من أنواعِ الكُفرِ؛ فإنَّها... أنكرَت البَعثَ فقالت: قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [يس: 78].
وأنكرَت بَعثةَ الرُّسُلِ، فقالوا: أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ [القمر: 24].
وزعَمَت أنَّ التَّحليلَ والتحريمَ إليها، فابتَدَعَتْه من ذاتِها مُقتَفِيةً لِشَهواتِها، فأحَلَّت ما حَرَّمَ الله، ولا مُبدِّلَ لِكَلِماتِه، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ).
((تفسير القرطبي)) (139/8).

(143) وقرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفص.
يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (279/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 318)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (47/6).

(144) وقرأ بها يعقوبُ الحضرميُّ.

3- قراءةُ: يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بفتحِ الياءِ وكَسرِ الضَّادِ، والفِعلُ للكفَّارِ الضَّالِّينَ، فهم يَضِلُّونَ لا يَهتَدونَ.(145)

يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ.

أي: يُضَلُّ بتأخيرِ تَحريمِ الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ، الذينَ كفروا.(146)

يُحِلّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا.

أي: يُحِلُّ الذينَ كَفروا ذلك النَّسيءَ عامًا دونَ عامٍ، فيُحِلُّونَ شَهرَ مُحَرَّمٍ عامًا، ويُحَرِّمونَه في عامٍ آخَرَ، فإذا قاتلوا في المحَرَّمِ أحلُّوه، وحرَّموا مكانَه صَفرًا، وإذا لم يُقاتِلوا فيه حرَّمُوه.

لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ.

أي: لِيُوافِقوا بتَحليلِهم شَهرَ مُحَرَّمٍ، وتَحريمِهم شَهرَ صَفَرٍ، عدَدَ الأشهُرِ الأربعةِ التي حَرَّمَها اللهُ كُلَّ عامٍ بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ في العَدَدِ، فيُحِلُّوا بتأخيرِ حُرمةِ شَهرِ مُحَرَّمٍ، ما حرَّمَه اللهُ تعالى!

يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (279/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (453/1)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (47/6).

(145) وقرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (279/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (453/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 318).

(146) قال الواحدي: (ومعناه: أنَّ كبراءَهم يُضِلُّونَهم بحَمْلِهم على هذا التَّأخيرِ في الشُّهورِ، فأُسنِدَ الفِعلُ إلى المفعولِ، كقوله تعالى في هذه الآية: زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ أي: زَيَّنَ لهم ذلك حامِلوهم وداعُوهم إليه).
((البسيط)) (427/10)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (46/16).

زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ.

أي: حُسِّنَ للمُشركِينَ سيِّئُ أعمالِهم وقَبيحُها.(147)

وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للحَقِّ المصرِّين على كفرهم، ويخذُلُهم عن الهُدى.(148)

---

(147) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٣١٣) أنّ قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يضاف إلى الله – عز وجل – والمراد به خلقه لكفرهم وإقرارهم عليه وتحبيبه لهم.

الثاني: أن يضاف إلى مُغويهم ومُضِلِّهم من الإنس والجن.

(148) قال الشوكاني: (لا يَهدِيهم هدايةً تُوصِلُهم إلى المطلوبِ، وأمَّا الهدايةُ بمعنى الدَّلالةِ على الحقِّ، والإرشادِ إليه؛ فقد نَصَبَها اللهُ سُبحانه لجَميعِ عِبادِه).

((تفسير الشوكاني)) (411/2).

قال الشنقيطي: (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ هذه الآيةُ وأمثالُها بالقرآنِ، فيها سؤالٌ مَعروفٌ، وإشكالٌ مشهورٌ، وهو أن يقول طالِبُ العلم: هذه الآيةُ وأمثالُها صـرَّحَ الله فيها بأنَّه لا يهدي الكافرينَ، مع أنَّا نُشـاهدُ اللهَ يهدي كثيرًا من الكافرين، فاللهُ يهدي من يشاءُ مِن الكفَّار، ويُضِلُّ من يشاء، فما وجهُ تعميمِه في قوله تعالى: لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ هذا وجهُ السؤالِ، وللعلماءِ عنه جوابان معروفان: أحدهما: أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ وأمثالَها في القرآنِ: مِن العامِّ المخصوصِ، أي: لا يهدي القومَ الكافرين الذين سـبَقَ في عِلمِه عَدمُ هدايتِهم، وشـقاؤُهم شـقاءً أزليًّا، كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ [يونس: 96، 97] وقوله تعالى: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [يس:7] ونحوِ ذلك من الآيات.

وعلى أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ من العامِّ المخصوصِ بآياتٍ أُخَر، فلا إشكالَ.

وقال بعض العلماء: لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ما دامَ اللهُ جلَّ وعلا مُريدًا منهم أن يكونوا كافرين، فإذا شـاءَ اللهُ أن يهديَهم هداهم.

وقال بعضُ العلماءِ: لا يهديهم ما داموا مُصِرِّينَ على كُفْرِهم).

((العذب النمير)) (496/5-497).

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: 96–97].

وقال سبحانه: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ [يس: 7 – 11].

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (38–40)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

غريب الكلمات:

انْفِرُوا: أي: اخرُجُوا مِن مَنازِلِكم إلى مَغْزاكم، والنَّفْرُ: مُفارقةُ مكانٍ إلى مكانٍ لأمْرٍ هاجَه على ذلك، وأَصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ.

اثَّاقَلْتُمْ: أي: تَثاقَلْتُم، وتَباطَأتُم وتَكاسَلْتُم، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ.

مَتَاعُ: أي: مُتْعة، وانْتِفاع، وأصلُ (متَع): المنفعةُ، وامتدادُ مدَّةٍ في خيرٍ.

الْغَارِ: نَقْبٌ في الجبَلِ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ، وانحطاطٍ وتَطامُنٍ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (38).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ.

أي: ما الذي يَدعُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- إذا أُمِرْتُم بجِهادِ الكُفَّارِ لإعلاءِ كَلِمةِ الله، إلى أن تَتثاقلوا وتَتباطَؤوا وتتقاعَسُوا، وتَميلوا إلى لُزومِ أرضِكم ومَساكِنِكم؟![149]

---

(149) قال الواحدي: (أجمع المُفَسِّرونَ على أنَّ هذه الآيةَ حَثٌّ لِمَن تثاقَلَ عن غزوةِ تَبُوك، وذلك كان في زَمانِ عُسرةٍ مِن الناس، وجدْبٍ من البلادِ، وشِدَّةٍ من الحَرِّ، حين أخرفَت النَّخلُ، وطابَت الثِّمارُ، فعظُم ذلك على النَّاسِ، وشَقَّ عليهم الخروجُ إلى القتالِ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ).

((البسيط)) (430/10).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (447/2)، ((تفسير ابن عطية)) (34/3)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (499/5).

وقال الرازي: (إنَّما استثقَلَ النَّاسُ ذلك لوجوهٍ: أحدها: شِدَّةُ الزَّمانِ في الصَّيفِ والقَحْطِ.

وثانيها: بُعدُ المسافةِ، والحاجةُ إلى الاستعدادِ الكَثيرِ الزَّائدِ على ما جرَتْ به العادةُ في سائر الغَزَوات.

وثالثها: إدراكُ الثِّمارِ بالمدينةِ في ذلك الوقتِ.

ورابعها: شِدَّةُ الحَرِّ في ذلك الوقت.

وخامسها: مهابةُ عَسكرِ الرُّومِ.

فهذه الجِهاتُ الكثيرةُ اجتمَعَت فاقتَضَت تثاقُلَ النَّاسِ عن ذلك الغَزوِ.

والله أعلم).

((تفسير الرازي)) (47/16).

وقال ابن عطية: (العِتابُ في هذه الآية هو للقَبائِلِ وللمؤمنينَ الذين كانوا بالمدينةِ، وخَصَّ الثلاثةَ: كعبَ بنَ مالكٍ، ومُرارةَ بن الرَّبيعِ، وهلالَ بنَ أُميَّةَ، بذلك التَّذنيبِ الشَّديدِ بحَسَب مكانِهم من الصُّحبةِ؛ إذ هم من أهلِ بَدرٍ، وممَّن يُقتَدى بهم، وكان تخلُّفُهم لغَيرِ عِلَّةٍ).

أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ.

أي: ما لَكُم فَعَلْتُم ذلك- أيُّها المُؤمِنونَ- أَرِضًا منكم بنَعيمِ الحياةِ الدُّنيا وراحَتِها، بدَلًا مِن نعيمِ الجنَّةِ في الآخرةِ؟!

فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ.

أي: فما الذي يتمَتَّعُ به المتمَتِّعونَ في الحياةِ الدُّنيا- التي مالتْ بكم- مُقارنةً بما سيتمَتَّعُ به المُؤمنونَ في الجنَّةِ؛ إلَّا يسيرٌ محدودٌ، ووقتُه قصيرٌ معدودٌ، فكيف تُقَدِّمونَ القَليلَ الزَّائِلَ على الكثيرِ الباقي؟! فاطلُبوا- أيُّها المؤمنونَ- نعيمَ الآخرةِ بطاعةِ ربِّكم، والمُسارَعةِ إلى إجابةِ أمْرِه في النَّفيرِ؛ لجِهادِ عَدُوِّه وعَدُوِّكم.[150]

عن المُستَورِدِ بنِ شدَّادٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سَمِعْتُ رَسولَ الله - ﷺ - يقولُ: واللهِ ما الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحدُكم إصْبَعَه هذه في اليَمِّ، فلْينظُرْ بمَ ترجِعُ؟)).[151]

((تفسير ابن عطية)) (34/3).

(150) قال الرازي: (الدليلُ على أنَّ مَتاعَ الدُّنيا في الآخرةِ قَليلٌ: أنَّ لَذَّاتِ الدُّنيا خسيسةٌ في أنفُسِها، ومَشُوبةٌ بالآفاتِ والبليَّاتِ، ومُنقطعةٌ عن قريبٍ لا محالةَ، ومنافِعُ الآخرةِ شَريفةٌ عاليةٌ، خالصةٌ عن كلِّ الآفات، ودائمةٌ أبديَّةٌ سرمديَّةٌ؛ وذلك يوجِبُ القَطعَ بأنَّ متاعَ الدُّنيا قليلٌ حَقيرٌ خَسيسٌ).

((تفسير الرازي)) (47/16).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 337).

(151) رواه مسلم (2858).

إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39).

إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

أي: إنْ لم تُبادِروا- أيُّها المُؤمنونَ- بالخُروجِ إلى الجهادِ بعد أن دُعِيتم إليه، يُعَذِّبْكم اللهُ عَذابًا مُوجِعًا في الدُّنيا والآخرةِ.[152]

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سَمِعتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: إذا تبايَعْتُم بالعِينةِ، وأخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ، ورَضِيتُم بالزَّرعِ، وتَرَكتُم الجهادَ- سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه، حتى تَرجِعوا إلى دينِكم)).[153]

---

(152) قال ابنُ تيمية: (قد يكون العذابُ مِن عِندِه، وقد يكونُ بأيدي العِبادِ، فإذا ترك النَّاسُ الجِهادَ في سبيل الله، فقد يَبتَلِيهم بأن يُوقِعَ بينهم العداوةَ، حتى تقَعَ بينهم الفِتنةُ كما هو الواقِعُ؛ فإنَّ النَّاسَ إذا اشتَغَلوا بالجهادِ في سبيلِ الله، جمَعَ اللهُ قُلوبَهم وألَّف بينهم، وجعَلَ بأْسَهم على عَدُوِّ الله وعَدُوِّهم).
((مجموع الفتاوى)) (15/44).
وقال السعدي: (عدمُ النَّفيرِ في حالِ الاستنفارِ، مِن كبائِرِ الذُّنوبِ المُوجِبةِ لأشَدِّ العقاب؛ لِمَا فيها من المضارِّ الشَّديدة، فإنَّ المُتخَلِّفَ قد عصى اللهَ تعالى، وارتكَبَ نَهْيَه، ولم يساعِدْ على نصرِ دِينِ الله، ولا ذَبَّ عن كتابِ الله وشَرْعِه، ولا أعان إخوانَه المُسلمينَ على عَدُوِّهم الذي يريدُ أن يستأصِلَهم، ويمحَقَ دينَهم، وربما اقتدى به غيرُه من ضُعفاءِ الإيمانِ، بل ربما فَتَّ في أعضادِ مَنْ قاموا بجهادِ أعداءِ الله؛ فحقيقٌ بمَن هذا حالُه أن يتوعَّدَه اللهُ بالوعيدِ الشَّديدِ).
((تفسير السعدي)) (ص: 337).
(153) أخرجه أبو داود (3462) واللفظ له، وأحمد (5007)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (12/432) (13583).

وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ.

أي: ويَستبدِلِ اللهُ سبحانه بكم قومًا آخَرينَ، أطوعَ لله منكم، إذا استُنْفِروا إلى الجِهادِ أجابُوا، ونصَروا دينَ الله عزَّ وجلَّ.(154)

كما قال سبحانه: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا [النساء: 133].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [المائدة: 54].

وقال تعالى: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [محمد: 38].

وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا.

قال ابنُ القطانِ في ((الوهم والإيهام)) (771/5): له طريقٌ صحيحٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيمية في ((بيان الدليل)) (109)، وقال ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (315): رجالُ إسنادِه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (11) بمجموعِ طرقِه.

(154) قال الرازي: (المرادُ تنبيهُهم على أنَّه تعالى متكفِّلٌ بنصرِه على أعدائِه، فإنْ سارَعوا معه إلى الخُروجِ حَصَلت النُّصرةُ بهم، وإن تخَلَّفوا وقعَتِ النُّصرةُ بغيرِهم، وحصل العُتبى لهم؛ لئلَّا يتوهَّموا أنَّ غَلَبَةَ أعداءِ الدين، وعِزَّ الإسلامِ، لا يحصُلُ إلَّا بهم... قال المحقِّقون: إنَّ هذه الآيةَ خِطابٌ لِمَن استنفَرَهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يَنفِروا). ((تفسير الرازي)) (48/16).

ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (368/10).

أي: ولا تَضرُّوا اللهَ سُبحانَه شيئًا؛ فهو غَنيٌّ عنكم، وناصِرٌ دينَه، وإنَّما تَضرُّونَ أنفُسَكم، بتَرْكِكم الجهادَ في سَبيلِه عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا [آل عمران: 144].

وقال سبحانه: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ [الزمر: 7].

وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: واللهُ قادِرٌ على فِعلِ كلِّ شيءٍ، لا يُعجِزُه شَيءٌ أراده سبحانَه، ومِن ذلك قُدرتُه على استبدال قومٍ آخرينَ بكم، وعلى نصرِ دينِه مِن دُونِكم.

إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40).

إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ.

أي: إن تَترُكوا– أيُّها المُؤمِنونَ– نُصرةَ مُحمَّدٍ – ﷺ – على الكُفَّارِ، فسَينصرُه اللهُ تعالى كما نَصَرَه مِن قَبلُ، حين اضطَرَّه كفَّارُ قُريشٍ إلى الخُروجِ مِن مكَّةَ.

ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ.

أي: نصَرَ اللهُ رسولَه محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حين اضطُرَّ للخُروجِ مِن مكَّةَ، والحالُ أنَّه أحدُ اثنَينِ فحَسْبُ، ليس معه إلَّا أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه[155] حين كانا مُختَفِيَين من كفَّارِ قُرَيشٍ في غارٍ في جبَلِ ثَورٍ.[156]

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: قال النبيُّ - ﷺ - للمُسلِمينَ: ((إنِّي أُريتُ دارَ هجْرَتِكم، ذاتَ نَخلٍ بين لابَتَينِ- وهما الحَرَّتانِ- فهاجر مَن هاجَرَ قِبَلَ المدينةِ، ورجَعَ عامَّةُ مَن كان هاجَرَ بأرضِ الحَبَشةِ إلى المدينةِ، وتجهَّزَ أبو بكرٍ قِبَلَ المدينةِ، فقال له رسولُ الله - ﷺ -: على رِسْلِك[157] فإنِّي أرجو أن يُؤذَنَ لي، فقال أبو بكرٍ: وهل ترجو ذلك بأبي أنتَ؟ قال: نعم، فحَبَس أبو بكرٍ نَفسَه على رسولِ الله - ﷺ -؛ لِيصحَبَه، وعَلَف راحِلَتينِ- كانَتا عِندَه- ورَقَ السَّمُرِ- وهو الخَبَطُ- أربعةَ أشهُرٍ.

قالت عائشةُ: فبينما نحن يومًا جُلوسٌ في بيتِ أبي بكرٍ في نحرِ الظَّهيرةِ،[158] قال قائلٌ لأبي بكرٍ: هذا

---

(155) قال ابنُ عاشور: (الاثنانِ هما النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأبو بكرٍ، بتواتُرِ الخَبَر، وإجماعِ المُسلِمينَ كُلِّهم؛ ولِكَونِ الثَّاني معلومًا للسَّامعين كُلِّهم، لم يُحتَجْ إلى ذِكْرِه، وأيضًا لأنَّ المقصودَ تَعظيمُ هذا النَّصرِ مع قِلَّةِ العَدَدِ).

((تفسير ابن عاشور)) (202/10).

(156) قال ابن تيمية: (لا خلافَ بين أهلِ العِلمِ أنَّ الغارَ المذكورَ في القرآنِ، إنَّما هو غارٌ بجَبَل ثَورٍ، قريبٌ من مكَّةَ، معروفٌ عند أهلِ مَكَّةَ إلى اليومِ).

((اقتضاء الصراط المستقيم)) (164/2).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (437/10).

(157) على رِسْلِك: أي: على مَهلِكَ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (217/6).

(158) نحرُ الظَّهيرةِ: وقتُ القائلةِ وشِدَّةِ الحَرِّ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (105/17).

رسولُ الله – ﷺ – مُتقنّعًا، في ساعةٍ لم يكُن يأتينا فيها. فقال أبو بكرٍ: فِداءٌ له أبي وأمي، واللهِ ما جاء به في هذه السَّاعةِ إلَّا أمرٌ! قالت: فجاء رسولُ الله – ﷺ – فاستأذَنَ، فأَذِنَ له فدخَلَ، فقال النبيُّ – ﷺ – لأبي بكرٍ: أَخرِجْ مَنْ عِندك. فقال أبو بكرٍ: إنَّما هم أهلُك، بأبي أنت يا رسولَ الله! قال: فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخُروجِ. فقال أبو بكرٍ: الصَّحابةَ[159] بأبي أنت يا رسولَ الله. قال رسولُ الله – ﷺ –: نعم. قال أبو بكرٍ: فخُذ– بأبي أنت يا رسولَ الله– إحدى راحِلَتَيَّ هاتينِ، قال رسولُ الله – ﷺ –: بالثَّمَنِ. قالت عائشةُ: فجَهَّزْناهما أحَثَّ الجهازِ،[160] وصَنَعْنا لهما سُفرةً في جِرابٍ،[161] فقطَعَت أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قِطعةً مِن نِطاقِها،[162] فربَطَت به على فَمِ الجِرابِ؛ فبذلك سُمِّيَت ذاتَ النِّطاقَينِ، قالت: ثم لَحِقَ رَسولُ الله – ﷺ – وأبو بكرٍ بغارٍ في جبَلِ ثَورٍ، فكَمِنا[163] فيه ثلاثَ ليالٍ،

---

(159) الصَّحابةَ: أي: أريدُ المُصاحَبةَ وأطلُبُها.

يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (117/15).

(160) أحَثَّ الجهازِ: أي: أسرَعَه وأعجَلَه.

يُنظر: ((طرح التثريب في شرح التقريب)) للعراقي (275/7).

(161) سُفرةً في جِرابٍ: أي: زادًا في جِرابٍ؛ لأنَّ أصلَ السُّفرةِ في اللُّغةِ الزَّادُ الذي يُصنَعُ للمُسافِرِ، ثمَّ استُعمِلَ في وعاءِ الزَّادِ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (132/1).

(162) النِّطاقُ: ما يُشَدُّ به الوسَطُ.

يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (11/6).

(163) فكَمِنا: أي: اختَفَيا.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (237/7).

يَبيتُ عندهما عبدُ الله بنُ أبي بكرٍ، وهو غلامٌ شابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ[164] فيُدلِجُ[165] مِن عِندِهما بسَحَرٍ، فيُصبِحُ مع قريشٍ بمكَّةَ كبائِتٍ، فلا يسمَعُ أمرًا يُكتادانِ به إلَّا وَعاه، حتى يأتِيَهما بخبرِ ذلك حينَ يختلِطُ الظَّلامُ، ويرعى عليهما عامِرُ بن فُهَيرةَ– مولى أبي بكرٍ– مِنْحةً مِن غَنَمٍ،[166] فيُرِيحُها[167] عليهما حين تذهَبُ ساعةٌ مِن العِشاءِ، فيَبيتانِ في رِسْلٍ– وهو لبَنُ مِنحَتِهما ورَضِيفِهما– حتى ينعِقَ بها[168] عامِرُ بن فُهَيرةَ بِغَلَسٍ[169] يفعَلُ ذلك في كلِّ ليلةٍ مِن تلك الليالي الثَّلاثِ، واستأجَرَ رَسولُ الله – ﷺ – وأبو بكرٍ رَجُلًا من بني الدِّيلِ هاديًا خِرِّيتًا– والخِرِّيتُ الماهرُ بالهدايةِ– وهو على دينِ كُفَّارِ قُريشٍ، فأَمِناه فدَفَعا إليه راحِلَتَيهما، وواعَداه غارَ ثَورٍ بعد ثلاثِ لَيالٍ، براحِلَتَيهما صُبحَ ثلاثٍ، وانطلَقَ معهما عامِرُ بنُ فُهَيرةَ، والدَّليلُ، فأخَذَ بهم طريقَ السَّواحِلِ)).[170]

---

(164) ثَقِفٌ لَقِنٌ: الحاذِقُ السَّريعُ الفَهمِ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (7/237).

(165) يُدْلِجُ: أي يَخرُجُ بسَحَرٍ إلى مكَّة.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (7/237).

(166) مِنْحة مِن غَنَم: شاةٌ يُعطيها الرَّجُلُ غيرَه؛ ليحلِبَها ثمَّ يَرُدَّها إليه.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (8/430).

(167) فيُرِيحُها: أي: فيَرُدُّها إلى المَراحِ، وهو مأواها في الليلِ.

يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (21/310)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 267).

(168) ينعق بها: أي: يصيح بغنمه.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (7/ 237).

(169) الغَلَسُ: هو ظَلامُ آخِرِ اللَّيلِ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (6/218).

(170) رواه البخاري (3905).

إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ.

أي: إذ يقولُ الرَّسولُ - ﷺ - لِصاحِبِه أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: لا تحزَنْ- يا أبا بكرٍ- لأنَّ اللهَ مَعَنا بنَصْرِه وحِفْظِه، ولن يَصِلَ المشركونَ إلينا.[171]

عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ الله عنه حَدَّثَه، قال: ((نظَرْتُ إلى أقدامِ المُشرِكينَ على رُؤوسِنا ونحن في الغارِ، فقلتُ: يا رسولَ الله، لو أنَّ أحَدَهم نظَرَ إلى قَدَمَيه أبصَرَنا تحت قَدَمَيه! فقال: يا أبا بكرٍ، ما ظَنُّك باثنينِ اللهُ ثالِثُهما؟)).[172]

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ - ﷺ - قال: ((لو كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أمَّتي خليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ، ولكِنْ أخي وصاحِبي)).[173]

---

(171) قال السمعاني: (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِه أي: لأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، باتِّفاقِ أهلِ العِلمِ).

((تفسير السمعاني)) (311/2).

وقال السعدي: (أجمع المُسلِمونَ على أنَّه هو المرادُ بهذه الآيةِ الكريمة؛ ولهذا عَدُّوا مَن أنكَرَ صُحبةَ أبي بكرٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كافِرًا؛ لأنَّه مُنكِرٌ للقُرآنِ الذي صَرَّحَ بها).

((تفسير السعدي)) (ص: 338).

ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (530/5).

(172) رواه البخاري (4663)، ومسلم (2381) واللفظ له.

(173) رواه البخاري (3656) واللفظ له، ومسلم (2383).

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((إنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عليَّ في مالِه وصُحبَتِه أبو بكرٍ، ولو كنتُ مُتَّخذًا خليلًا، لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خَليلًا، ولكِنْ أُخُوَّةُ الإسلامِ، لا تَبقَيَنَّ في المسجِدِ خَوْخَةٌ إلَّا خوخةُ(174) أبي بكرٍ)).(175)

فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ.

أي: فأنزَلَ اللهُ الطُّمأنينةَ والثَّباتَ على رسولِه محمَّدٍ – ﷺ –.(176)

---

(174) الخَوخَةُ: البابُ الصَّغيرُ بين البَيتَينِ أو الدَّارينِ ونحوه.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (151/15).

(175) رواه البخاري (3904)، ومسلم (2382) واللفظ له.

(176) القولُ بأنَّ الضَّميرَ في عَلَيْه عائدٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو اختيارُ مقاتلِ بن سليمان، وابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ جُزيّ، وابنِ كثيرٍ، والقاسميّ، والسعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي.

وعزاه ابنُ عطيةَ إلى الجمهورِ.

يُنظر: المصادر السابقة، و((تفسير ابن الجوزي)) (261/2).

وقيل: فأنزل اللهُ طُمأنينَتَه على أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه.

واختاره النحَّاس، والواحدي، وابن العربي، والرازي، والبيضاوي.

يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 186)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1801/6)، ((معاني القرآن)) للنحاس (210/3)، ((البسيط)) للواحدي (442/10)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (513/2)، ((تفسير الرازي)) (52/16)، ((تفسير البيضاوي)) (81/3).

وممَّن قال مِن السلفِ أنَّ الضَّميرَ في عليه عائدٌ على أبي بكرٍ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عباسٍ، وحبيبُ بنُ أبي ثابتٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1801/6)، ((تفسير ابن كثير)) (155/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (261/2).

وقيل: فأنزل الله طُمأنينَتَه على النبيّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ.

وهو قولُ المُبَرِّد، واختاره ابنُ الأنباري.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (441/10)، ((تفسير أبي حيان)) (422/5).

وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا.

أي: وقوَّى اللهُ رسولَه محمدًا – ﷺ –، وأعانَه بجُنودٍ مِن الملائكةِ، لم ترَوْها أنتم.(177)

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى.

أي: وجعلَ اللهُ كَلِمةَ الكُفَّارِ– وهي الشِّركُ والكُفرُ– حقيرةً مَقهورةً، منحطَّةً وساقطةً، فأذَلَّ اللهُ الشِّركَ وأهْلَه، وخذَلهم ودَحَرَهم.

وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا.

أي: وكَلِمةُ اللهِ– وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ودينُه الذي شرَعه لعبادِه– هي الغالِبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهْلِه.(178)

---

(177) قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: وَأَيَّدَهُ أي: قوَّاه، يعني النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بلا خلافٍ).
((تفسير ابن الجوزي)) (2/261).
وقال الواحدي: (قوله تعالى: وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا، قال ابن عباس: يريد: وقوَّاه بجنودٍ لم ترَوْها، يريد: الملائكةَ، يَدعونَ اللهَ له، وقال الزجَّاج: أيَّدَه بملائكةٍ يَصرِفونَ وجوهَ الكُفَّارِ وأبصارَهم عن أن يَرَوه، وقال غيرُه: يعني ما كان من تقويةِ الملائكةِ لِقَلبِه بالبِشارةِ بالنَّصرِ مِن ربِّه، ومن إلقاءِ اليأسِ في قُلوبِ المُشرِكينَ حتى انصَرَفوا خائبينَ، وهذه الأقوالُ على أنَّ هذا التأييدَ بالملائكةِ كان في الغارِ).
((البسيط)) (10/442).
ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (16/52)، ((تفسير ابن عاشور)) (10/204، 205)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (5/532).
(178) قال السعدي: (قوله وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا أي: كَلِماتُه القَدَريَّةُ وكَلِماتُه الدِّينيةُ؛ هي العاليةُ على كَلِمةِ غيرِه، التي من جُملَتِها قولُه تعالى: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم: 47] ، إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر: 51] ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [الصافات: 173] ، فدِينُ الله هو الظَّاهرُ العالي على سائِرِ الأديانِ، بالحُجَجِ الواضحةِ، والآياتِ الباهرةِ، والسُّلطانِ النَّاصرِ).

عن أبي موسى الأشعريّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سُئِلَ رسولُ الله – ﷺ – عن الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ رِياءً، أيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقال رسولُ الله – ﷺ –: مَن قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمةُ الله هي العُليا، فهو في سبيلِ الله)).[179]

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

واللهُ عَزيزٌ في انتقامِه وانتصارِه مِن الكُفَّارِ، لا يقهَرُه، ولا يَغلِبُه شَيءٌ، ولا يفوتُه أحَدٌ، قاهِرٌ غالِبٌ، مَنيعُ الجَنابِ، لا يُضامُ مَن لاذ ببابِه، حكيمٌ في أقوالِه وأفعالِه، وفي تدبيرِه خَلْقَه، يضَعُ سُبحانَه الأشياءَ مواضِعَها اللَّائِقةَ بها، وقد يؤخِّرُ نَصرَ حِزبِه إلى وقتٍ آخَرَ.

((تفسير السعدي)) (ص: 338).

(179) رواه البخاري (2810)، ومسلم (1904) واللفظ له.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (41-43)

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43)

غريب الكلمات:

خِفَافًا وَثِقَالًا: أي: خَفَّتْ عليكم الحَرَكةُ أو ثَقُلَت، مُوسِرينَ أو مُعسِرينَ، شبابًا أو شُيوخًا، والخِفافُ جمعُ خفيفٍ. والثقالُ: جمعُ ثقيلٍ، والخَفيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ.

عَرَضًا قَرِيبًا: أي: غَنيمةً حاضِرةً، سَهْلةَ التَّناوُلِ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، والعَرَضُ: طَمَعُ الدُّنيا، قليلًا كان أو كثيرًا، وسُمِّيَ به؛ لأنَّه يُعْرِضُ، أي: يُريكَ عُرضَه.

سَفَرًا قَاصِدًا: أي: مَوضعًا قريبًا سَهْلًا غيرَ شاقٍّ.

الشُّقَّةُ: أي: السَّفَرُ البَعيدُ المَسافةِ، والناحيةُ التي تلحَقُك المشَقَّةُ في الوصولِ إليها، وأصل (شقق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (41).

انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً.

أي: اخرُجوا- أيُّها المُؤمِنونَ- إلى جهادِ الكُفَّارِ مُسرِعِينَ،[180] سواءٌ خَفَّ عليكم الجِهادُ وسَهُلَ، أم ثقُلَ وصَعُبَ، سواءٌ كُنتم شبابًا أم شُيوخًا، أغنياءَ أم فُقَراءَ، أقوياءَ أم ضُعَفاءَ، نَشيطِينَ أم كُسالى، فارغينَ مِن الشُّغُلِ أم مَشغولينَ.[181]

---

(180) قال ابنُ كثيرٍ: (أمَرَ اللهُ تعالى بالنَّفيرِ العامِّ مع الرَّسولِ- صلواتُ الله وسلامُه عليه- عامَ غَزوةِ تبوك؛ لقتالِ أعداءِ الله من الرُّومِ الكَفَرةِ مِن أهلِ الكِتابِ).

((تفسير ابن كثير)) (156/4).

ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (535/5).

اختُلِف في معنى الخِفَّة والثّقَل اللَّذَيْن أمر الله بهما في الآية على ستّة أقوال: أولها: أنّ المعنى: شبابًا، وشيوخًا.

وثانيها: أنّ المعنى: مشاغيل، وغير مشاغيل.

وثالثها: أنّ المعنى: نِشاطًا، وغيرَ نِشاط.

ورابعها: أنّ المعنى: في اليسر والعسر، فقراء وأغنياء.

وخامسها: أنّ المعنى: رُكبانًا، ومُشاةً.

وسادسها: أنّ المعنى: ذا ضيعةٍ، وغيرَ ذي ضيعةٍ.

وذهب ابنُ جرير (١١/ ٤٧٤) إلى أنّ كلَّ تلك الأقوال تدخل تحت الآية، مســتندًا إلى عموم لفظها، فقال: «أولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يُقال: إنّ الله -تعالى ذِكْرُه- أمَرَ المؤمنين بالنَّفر لجهاد أعدائه في سبيله، خفافًا وثقالًا.

وقد يدخل في الخِفاف كلُّ مَن كان سهلًا عليه النفر لقوة بدنه على ذلك، وصحة جسمه، وشبابه، ومَن كان ذا يُسْرٍ بمالٍ، وفراغ من الاشتغال، وقادرًا على الظهر والركاب.

ويدخل في الثِّقال كلُّ مَن كان بخلاف ذلك، مِن ضعيف الجسم وعليله وسقيمه، ومِن مُعسِرٍ من المال، ومشتغلٍ بضَيْعَة ومعاش، ومَن كان لا ظهرَ له ولا ركاب، والشيخ، وذو السِّن، والعِيال.

فإذ كان قد يدخل في الخفاف والثقال مَن وصفنا مِن أهل الصفات التي ذكرنا، ولم يكن الله -جل ثناؤُه- خصَّ مِن ذلك صنفًا دون صنف في الكتاب، ولا على لسان الرسول - ﷺ -، ولا نَصَب على خصوصه دليلًا؛ وجب أن يُقال: إنّ الله -جل ثناؤه- أمر المؤمنين من أصحاب رسوله بالنفر للجهاد في سبيله خفافًا وثقالًا مع رسوله - ﷺ -، على كل حالٍ مِن أحوال الخفّة والثقل».

وهو ظاهر قول ابن كثير (٧/ ٢٠٨).

وقال ابنُ عطية (٤/ ٣٢٠): «هذه الأقوال إنّما هي على معنى المثال في الثِّقل، والخِفَّة».

كما قال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ [التوبة: 38].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إذا استُنفِرْتُم فانفِرُوا)).(182)

وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ.

أي: ابذُلوا جُهدَكم واستَفرِغوا وُسْعَكم– أيُّها المؤمنونَ– في إنفاقِ أموالِكم في تجهيزِ الغُزاةِ، والإعدادِ للجِهادِ، وقتالِ الكُفَّارِ بأنفُسِكم؛ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.(183)

---

(181) قال الجصَّاص: (معلومٌ في اعتقادِ جَميعِ المُسلِمينَ أنَّه إذا خاف أهلُ الثُّغورِ مِن العَدُوِّ، ولم تكن فيهم مقاوَمةٌ لهم، فخافوا على بلادِهم وأنفُسِهم وذرارِيِّهم: أنَّ الفَرضَ على كافَّةِ الأمَّةِ أن يَنفِرَ إليهم مَن يكُفُّ عادِيَتَهم عن المسلمينَ، وهذا لا خِلافَ فيه بين الأمَّةِ؛ إذ ليس مِن قَولِ أحدٍ مِن المسلمينَ إباحةُ القُعودِ عنهم، حتى يستبيحوا دماءَ المُسلمين، وسَبْيَ ذرارِيِّهم). ((أحكام القرآن)) (3/146-147).

وقال القرطبي: (إذا تعيَّنَ الجِهادُ بغَلَبةِ العَدُوِّ على قُطرٍ مِن الأقطارِ... وجب على جميعِ أهلِ تلك الدَّارِ أن ينفِروا ويَخرُجوا إليه خِفافًا وثِقالًا، شبابًا وشُيوخًا، كلٌّ على قَدرِ طاقَتِه، مَن كان له أبٌ بغَيرِ إذنِه، ومَن لا أبَ له، ولا يتخَلَّف أحدٌ يقدِرُ على الخروجِ، مِن مقاتِلٍ أو مُكثِرٍ.

فإنْ عجزَ أهلُ تلك البَلدةِ عن القيامِ بعَدُوِّهم، كان على مَن قارَبَهم وجاوَرَهم أن يخرُجوا على حسَبِ ما لَزِمَ أهلَ تلك البلدةِ، حتى يعلموا أنَّ فيهم طاقةً على القيامِ بهم ومُدافَعتِهم، وكذلك كلُّ مَن علِمَ بِضَعفِهم عن عَدُوِّهم، وعلِمَ أنَّه يُدرِكُهم ويُمكِنُه غِياثُهم، لَزِمَه أيضًا الخروجُ إليهم، فالمُسلِمونَ كُلُّهم يدٌ على مَن سواهم، حتى إذا قام بدَفعِ العَدُوِّ أهلُ النَّاحيةِ التي نزل العدوُّ عليها واحتَلَّ بها؛ سقَطَ الفَرضُ عن الآخرينَ، ولو قارب العدُوُّ دارَ الإسلامِ ولم يَدخُلوها، لَزِمَهم أيضًا الخروجُ إليه، حتى يَظهَرَ دِينُ اللهِ، وتُحمى البَيضةُ، وتُحفَظَ الحَوزةُ، ويُخزى العَدُوُّ، ولا خلافَ في هذا). ((تفسير القرطبي)) (8/151، 152).

(182) رواه البخاري (3077)، ومسلم (1353).

(183) قال الجصاص: (أوجَبَ فَرضَ الجهادِ بالمالِ والنَّفسِ جميعًا: فمَن كان له مالٌ وهو مريضٌ أو مُقعَدٌ، أو ضعيفٌ لا يصلُحُ للقتالِ؛ فعليه الجهادُ بمالِه بأن يُعطِيَه غيرَه فيَغزوَ به، كما أنَّ مَن له قوَّةٌ وجَلَدٌ، وأمكنَه الجهادُ بنفسِه؛ كان عليه الجهادُ بنَفسِه– وإن لم يكن ذا مالٍ ويَسارٍ– بعد أن يجِدَ ما يُبَلِّغُه، ومن قَوِيَ على القتالِ وله مالٌ؛ فعليه الجهادُ بالنَّفسِ والمالِ،

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((جاهدُوا المُشركِينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم)).(184)

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: أمْرُكم بالنَّفيرِ، وأمْرُكم بالجِهادِ بالأموالِ والأنفُسِ، فيه خيرٌ عظيمٌ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- في دُنياكم وآخِرَتِكم، وهو خيرٌ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا، إن كُنتُم تَعلَمونَ حقًّا شَرَفَ الجِهادِ، وفَضلَ المُجاهِدينَ.

كما قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: 216].

وقال سبحانه: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى

ومن كان عاجزًا بنَفسِه مُعدِمًا؛ فعليه الجِهادُ بالنُّصحِ لله ولِرَسولِه، بِقَولِه تعالى: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِه [التوبة: 91).

((أحكام القرآن)) (151/3).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (449/10)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (537/5)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (64/3).

(184) أخرجه أبو داود (2504)، واللفظ له، والنسائي (3096)، وأحمد (13638).

صححه ابن حزم في ((أصول الأحكام)) (27/1)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (114)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (18/417)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (2504).

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء:95-96].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [الصف: 10 – 13].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: ((جاهِدُوا في سبيلِ الله؛ فإنَّ الجِهادَ في سبيلِ الله بابٌ مِن أبوابِ الجنَّة، يُنَجِّي اللهُ به مِنَ الهَمِّ والغَمِّ)).[185]

وعن سهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((رِباطُ يومٍ في سبيلِ الله خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها، وموضِعُ سَوطِ أحَدِكم من الجنَّةِ خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها، والرَّوحةُ يَروحُها العَبدُ في سبيلِ اللهِ أو الغَدوةُ، خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها)).[186]

(185) أخرجه أحمد (22699)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (133/1)، والحاكم في ((المستدرك)) (2404).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وقال ابنُ كثير في ((التفسير)) (5/4): حسنٌ عظيمٌ، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (275/5): أحدُ أسانيدِ أحمدَ وغيره ثقاتٌ، وصحَّحه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (1941): بمجموعِ طرقِه.
(186) رواه البخاري (2892) واللفظ له، ومسلم (1881).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((ما مِن أحَدٍ يَدخُلُ الجنَّةَ، يُحِبُّ أن يرجِعَ إلى الدُّنيا، وأنَّ له ما على الأرضِ مِن شَيءٍ، غيرُ الشَّهيدِ؛ فإنَّه يتمَنَّى أن يرجِعَ، فيُقتَلَ عَشرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرى من الكَرامةِ)).[187]

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42).

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ.

أي: لو كان– يا مُحمَّدُ– ما تدعُو إليه المُنافِقينَ المُتخلِّفينَ عن غَزْوِ الرُّومِ، غنيمةً حاضِرةً سَهلةَ التَّناوُلِ، وسفَرًا سَهلًا لِمَوضعٍ قَريبٍ– لَخَرجوا معك؛ طمَعًا في متاعِ الحياةِ الدُّنيا.

---

(187) رواه البخاري (2817)، ومسلم (1877) واللفظ له.

وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ.

أي: ولكنْ طالَتْ عليهم مَسافةُ السَّفرِ لِغَزوِ الرُّومِ، فترَكوا المَسِيرَ معك؛ لشِدَّةِ المشَقَّةِ.[188]

وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ.

أي: وسيَحلِفُ لك- يا مُحمَّدُ- هؤلاءِ المُنافِقونَ، فيقولونَ كاذِبينَ: واللهِ لو أطَقْنا الخُروجَ معكم في الغَزْوِ- بوجودِ المالِ والمراكِبِ، وقُوَّةِ البَدَنِ- لخَرَجْنا معكم لِقتالِ الرُّومِ.[189]

يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ.

أي: يُوجِبُ المنافِقونَ لأنفُسِهم غضَبَ اللهِ وعِقابَه؛ بسبَبِ نِفاقِهم، وحَلِفِهم باللهِ تعالى كاذِبينَ، وتخَلُّفِهم عن الجِهادِ.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

أي: واللهُ يعلَمُ أنَّ المُنافِقينَ- في اعتذارِهم عن القُعودِ، وحَلِفِهم- كاذِبونَ؛ لأنَّهم كانوا قادِرينَ على الخُروجِ لِلقتالِ، ولكِنَّهم قَعَدوا عنه؛ لِنِفاقِهم، وزُهدِهم في الخَيرِ.

---

(188) قال القرطبي: (المرادُ بذلك كلِّه: غزوةُ تَبُوك).
((تفسير القرطبي)) (154/8).

(189) قال ابن تيميَّةَ: (هؤلاءِ هم المُنافِقونَ، بلا ريبٍ ولا خِلافٍ).
((الصارم المسلول)) (ص: 36).

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43).

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ.

أي: سامحَك اللهُ وغَفَرَ لك– يا مُحمَّدُ– على إذْنِك لِهؤلاءِ المُنافِقينَ، الذين استَأذَنوك في التخَلُّفِ عن الخُروجِ معك، لأيِّ شَيءٍ أذِنْتَ للمُنافِقينَ أن يتخَلَّفوا عن المَسِيرِ معك لِغَزوِ الرُّومِ؟![190]

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ.

---

(190) قال الواحدي: (قال قتادةُ وعمرُو بنُ ميمون: «اثنان فعَلَهما رسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولم يُؤمَرْ فيهما بشيءٍ: إذنُه للمُنافقين، وأخْذُه الفِداءَ مِن الأُسارى، فعاتبه اللهُ كما تَسمَعونَ»...

قال أهلُ المعاني: وهذا يدلُّ على أنَّه فعَلَ ما لم يؤذَنْ له فيه؛ لأنَّه لا يُقالُ: لِمَ فَعَلْتَ: فيما أُذِنَ له في فِعْلِه).

(«البسيط») (455/10).

وقال ابنُ عاشور: (استأذَنَ فريقٌ مِن المنافقينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أن يتخلَّفوا عن الغزوةِ؛ منهم عبدُ اللهِ بنُ أُبَيِّ ابنُ سَلولَ، والجَدُّ بنُ قيس، ورفاعةُ بنُ التَّابوتِ، وكانوا تِسعةً وثلاثين، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ، وأذِنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَن استأذَنَه؛ حَمْلًا للنَّاسِ على الصِّدقِ؛ إذ كان ظاهرُ حالِهم الإيمانَ، وعِلمًا بأنَّ المُعتَذرينَ إذا أُلجِئوا إلى الخُروجِ لا يُغْنونَ شَيئًا، كما قال تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا [التوبة: 47]).

(«تفسير ابن عاشور») (210/10).

أي: كان ينبغي لك– يا مُحمَّدُ– عندما استأذَنَك المتخلِّفونَ عن المَسيرِ معك لجِهادِ الرُّومِ، ألَّا تأذَنَ لأحدٍ منهم[191] حتى تعلَمَ الصَّادِقينَ الذينَ لهم عُذرٌ في تخلُّفِهم، فتعذِرَهم، وتعلَمَ الكاذِبينَ الذين لا عُذرَ لهم، وإنما تخَلَّفوا نِفاقًا وشَكًّا في دينِ الله.[192]

---

(191) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ هذه الآيةُ الكريمةُ تدلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمَن شاء، وقولُه تعالى: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ يُوهِمُ خلافَ ذلك.

والجوابُ ظاهِرٌ: وهو أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمَن شاء من أصحابِه الذين كانوا معه على أمرٍ جامعٍ، كصلاةِ جُمعةٍ أو عيدٍ أو جماعةٍ، أو اجتماعٍ في مشورةٍ، ونحو ذلك، كما بيَّنه تعالى بقولِه: وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ [النور: 62] وأمَّا الإذنُ في خُصوصِ التخلُّفِ عن الجهادِ، فهو الذي بيَّنَ اللهُ لرسولِه أنَّ الأَوْلى فيه ألَّا يُبادِرَ بالإذنِ، حتى يتبيَّنَ له الصَّادقُ في عُذرِه من الكاذبِ، وذلك في قولِه تعالى: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ فظهَرَ أنْ لا مُنافاةَ بين الآياتِ، والعِلمُ عند الله تعالى).

((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: 170–171).

(192) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والبغويِّ، والزمخشريِّ، والشوكانيِّ، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (478/11)، ((البسيط)) للواحدي (455/10)، ((تفسير البغوي)) (354/2)، ((تفسير الزمخشري)) (274/2)، ((تفسير الشوكاني)) (417/2)، ((تفسير السعدي)) (ص: 338).

وقيل: إنَّ معنَى الآيةِ: أنَّه كانَ يَنْبغي لك– يا محمدُ– عندما استأْذنك المتخلِّفون عن المسيرِ معك لجهادِ الرُّوم أن لا تأذنَ لأحدٍ منهم؛ مِن أجلِ أن تعلمَ الصَّادقَ منهم مِن الكاذبِ، فإنَّ المُنافِقين كانوا مُصرِّين على القعودِ عن الغزوِ، سواء أذِنت لهم، أم لم تأذَنْ، وهو قولُ ابنِ عطية، وأبي حيان، وابنِ كثير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنِ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (39/3)، ((تفسير أبي حيان)) (427/5)، ((تفسير ابن كثير)) (159/4)، ((تفسير القاسمي)) (423/5)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (401/10)، ((تفسير ابن عاشور)) (210/10).

قال أبو حيان: (قوله: الَّذِينَ صَدَقُوا أي: في استئذانك.

وأنَّك لو لم تأذنْ لهم خرجوا معك.

وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ: يريدُ في أنَّهم استأذنوك يُظهرون لك أنَّهم يقفون عندَ حدِّك وهم كذبةٌ، وقد عزموا على العصيانِ أذِنت لهم أو لم تأذنْ).

((تفسير أبي حيان)) (427/5).

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (44-47)

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)

غريب الكلمات:

وَارْتَابَتْ: أي: وشكَّت، والرَّيب: الشكُّ مع الخَوف، ومع تُهَمَة المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيء.

عُدَّةً: أي: أُهبةَ السَّفرِ، وما يُعَدُّ مِن مالٍ وسِلاحٍ؛ من الإعدادِ الذي هو تَهيئةُ الشَّيءِ.

انْبِعَاثَهُمْ: أي: نُهوضَهم لِلْخُرُوجِ ومُضِيَّهم، وأصل (بعث): يدلُّ على إثارةِ الشَّيءِ، وتَوجِيهِه.

فَثَبَّطَهُمْ: أي: ثقَّلَ عليهم الخروجَ، وحبَسَهم عنه؛ يُقالُ: ثبَّطَه المرضُ وأثبَطَه: إذا حبَسَه ومنَعَه، ولم يكَدْ يُفارِقُه.

خَبَالًا: أي: فَسادًا وشرًّا، وأصلُ (خبل): يدلُّ على فَسادٍ.

وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ: أي: سَعَوا، وأسرَعوا السَّيرَ وسْطَكم بالنَّميمةِ والفَسادِ؛ مِن الوَضعِ: وهو سُرعةُ السَّيرِ، والخِلالُ جَمعُ خَللٍ، وهو: الفُرجةُ بين الشَّيئين.

يَبْغُونَكُمُ: أي: يَطْلبونَ لكم ما تُفتَنون به، وأصلُ (بغى): يدلُّ على طلبِ الشيءِ.

الْفِتْنَةَ: أي: الشِّرْك، والكفرَ، وتُطلَق أيضًا على الشَّرِّ والعذابِ، وهي في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه من رداءتِه.

سَمَّاعُونَ: أي: مُطيعونَ، قابِلونَ لكَلامِهم، أو عُيونٌ يتجَسَّسونَ لهم الأخبارَ، ويَنقِلونها إليهم، وأصل

(سمع): يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأذُنِ.

تفسير الآيات:

لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44).

لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ.

أي: لا يَستأذِنُك– يا محمَّدُ– أصحابُك المؤمنونَ بالله، وبالبَعثِ، والجزاءِ في الآخرة، في تَركِ جهادِ الكُفَّارِ بأموالِهم وأنفُسِهم، ولا يَطلُبونَ منك أن تأذَنَ لهم في الجِهادِ، بل يُبادِرونَ إليه؛ لشِدَّةِ رَغبَتِهم في الخَيرِ.

وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ.

أي: واللهُ ذو علمٍ بهؤلاءِ المتَّقينَ، وبكُلِّ مَن يتَّقيه بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهيه، ومن ذلك المسارعةُ إلى جهادِ أعدائِه، وعَدمُ الاستئذانِ في تَركِه، وسيُجازيهم على تَقواهم له أعظَمَ الثَّوابِ.

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45).

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ.

أي: إنَّما يستأذِنُك– يا مُحَمَّدُ– في القُعودِ والتخَلُّفِ عن جهادِ الكُفَّارِ بأعذارٍ كاذبةٍ، المُنافِقونَ الذين لا يُؤمنونَ بالله تعالى، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ، فلا يَرغَبونَ فيما عندَ الله تعالى، ولا يَخافونَ عَذابَه.(193)

وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ.

أي: وقد شكَّت قلوبُهم في صِحَّةِ الدِّينِ، وظُهورِ أمْرِه، فهم في شَكِّهم يتحَيَّرونَ، ويتَذَبذبونَ بين الإيمانِ والكُفرِ.

كما قال تعالى: مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا [النساء: 143].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ – ﷺ –، قال: ((مَثَلُ المُنافِقِ كمَثَلِ الشَّاةِ العائرةِ(194) بين الغَنَمينِ؛ تَعيرُ(195) إلى هذه مَرَّةً، وإلى هذه مَرَّةً)).(196)

---

(193) قال الواحدي: (أجمَعوا على أنَّ هذا الاستئذانَ في القُعودِ عن الجِهادِ، وإخبارٌ أنَّ مَن فعَلَ ذلك غَيرُ مؤمِنٍ بالله). ((البسيط)) (460/10).

(194) الشَّاةُ العائِرةُ: أي: المتَرَدِّدةُ بين قَطيعَينِ، لا تدري أيَّهما تَتْبَعُ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (328/3).

(195) تَعيرُ (بفتح التاء): أي: تتردَّدُ وتذهَبُ.

يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (130/1).

(196) رواه مسلم (2784).

وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (46).

وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً.

أي: ولو أراد المُنافِقونَ الخُروجَ معك– يا مُحمَّدُ– في غزوةِ تَبُوكَ، لتأهَّبُوا للخُروجِ، بإعدادِ ما يَحتاجُونَه مِن لوازِمِ السَّفَرِ والقِتالِ، لكِنَّهم تَرَكوا الاستعدادَ؛ لِرَغبَتِهم في التخَلُّفِ عن الجِهادِ.

وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ.

أي: ولكِنْ لم يُحِبَّ اللهُ تعالى انطلاقَ المُنافِقينَ معك– يا محمَّدُ– في تلك الغَزوةِ؛ لِعلْمِه أنَّ في خُروجِهم شرًّا وضررًا على المُؤمنينَ.

فَثَبَّطَهُمْ.

أي: فثقَّله عليهم، وكسَّلهم عنه.[197]

---

(197) قال السعدي: (فَثَبَّطَهُمْ قَدَرًا وقضاءً، وإن كان قد أمَرَهم وحَثَّهم على الخُروجِ، وجعَلَهم مُقتَدرينَ عليه، ولكِنْ بحِكمَتِه ما أراد إعانَتَهم، بل خَذَلهم وثَبَّطَهم).

((تفسير السعدي)) (ص: 339).

وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ.

أي: وقيل:[198] اقعُدُوا عن الجِهادِ مع الذينَ ليس من شَأنِهِم النُّهوضُ والخُروجُ للقِتالِ، كالضُّعَفاءِ والمَرضى، والصِّبيانِ وغَيرِهم.

لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47).

---

(198) وهذا القولُ قولٌ قدريٌّ كونيٌّ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ القَيِّم، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 102)، ((تفسير ابن كثير)) (159/4)، ((تفسير ابن عاشور)) (215/10).

قال الشنقيطي: (قِيلَ هنا: مَبنيٌّ للمَفعولِ حُذِفَ فاعِلُه، واختلَفَ العُلَماءُ في فاعِلِه المَحذوفِ، فقال بعضُ العلماء: قال بعضُهم لبعضٍ في سِرِّهم وباطِنِ أمْرِهم: اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ واستَأذِنوه لِتَقعُدوا.

وقال بعضُهم: أذِنَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ وعلى هذا القَولِ فـ اقْعُدُوا هو الإذنُ.

وبعضُهم يقولُ: قَولُه: مَعَ الْقَاعِدِينَ أَذِنَ لهم إذنًا صاحِبُه لا يرضى عنهم.

والمرادُ بالقاعدينَ: الذين ليس مِن شَأنِهم الحُضور، كالصِّبيان والزَّمنَى والنِّساءِ، ونحوِ ذلك ممَّن ليس من شأنِه الخُروجُ للقِتالِ.

وقال بعضُ العلماء: هو كونيٌّ قَدَريٌّ، اللهُ يقولُ للشَّيءِ: «كُنْ، فيكونُ» فقال: اقْعُدُوا فكان قُعودُهم، واختار هذا بعضُ العُلَماءِ).

((العذب النمير)) (543/5).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (40/3).

لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً.

أي: لو خرَجَ هؤلاءِ المُنافِقونَ في جُملَتِكم- أيُّها المُؤمنونَ- لِغَزوِ الرُّومِ، فلن يَزيدُوكم بخُروجِهم شيئًا سِوى الشرِّ والفَسادِ، وإيقاعِ الاضطرابِ بَينكم.(199)

ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ.

أي: ولأَسْرَعوا سَيْرَهم في الدُّخولِ والمَشيِ بينكم بالنَّميمةِ، وإفسادِ ذاتِ بَينِكم؛ لِتَفريقِ كَلِمتِكم، وإلقاءِ الأراجيفِ، وبَثِّ الإشاعاتِ لِتَثبيطِكم.

وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ.

أي: وفيكم- أيُّها المُؤمنونَ- مَن يَسمَعُ كَلامَ المُنافِقينَ، فيقبَلُه، ويستجيبُ لهم، ويُطيعُهم.(200)

---

(199) قال الشَّوكانيّ: (قيل: هذا الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، أي: ما زادوكم قُوَّةً، ولكِنْ طَلَبوا الخَبالَ. وقيل: المعنى: لا يزيدونَكم فيما تَرَدَّدونَ فيه من الرأيِ إلَّا خَبالًا، فيكون متَّصلًا. وقيل: هو استثناءٌ مِن أعَمِّ العامِّ، أي: ما زادوكم شيئًا إلَّا خبالًا، فيكون الاستثناءُ مِن قِسمِ المتَّصِلِ).

((تفسير الشوكاني)) (418/2).

وقال الواحدي: (والمرادُ بالخَبالِ هاهنا: الاضطرابُ في الرأيِ، وذلك بتَزيينِ أمْرٍ لفَريقٍ، وتَقبيحِه عند فريقٍ؛ ليَختَلِفوا، فتفترِقَ كَلِمَتُهم ولا تنتَظِمَ، يقول: لو خَرَجوا لأفسَدُوا عليكم أمْرَكم).

((البسيط)) (464/10).

(200) وهو قَولُ جُمهورِ المفَسِّرين، كما نسَبَه إليهم ابنُ عطيةَ، واختاره ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (41/3)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (129/25)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (262/5)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 102)، ((تفسير ابن كثير)) (160/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 339).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قتادةُ، وابنُ إسحاق.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (486/11)، ((تفسير ابن الجوزي)) (265/2).

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ ذو علمٍ بأولئك المُنافِقينَ الظَّالِمينَ، وبِمَن يقبَلُ كلامَهم ويُطيعُهم، وبكُلِّ من يَظلِمُ نَفسَه ويَظلِمُ غَيرَه، بفِعْلِ ما ليس له فِعْلُه، لا يخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ من ظواهِرِهم وبواطِنِهم، وسيُجازيهم على أعمالِهم.(201)

قال الرازي: (لا يمتنِعُ فيمَن قَرُبَ عَهدُه بالإســـلامِ أن يُؤثِّرَ قَولُ المنافقينَ فيهم، ولا يمتنِعُ كَونُ بَعضِ النَّاسِ مجبولينَ على الجُبْنِ والفَشَلِ، وضَعفِ القَلبِ؛ فيُؤثِّرُ قولُهم فيهم، ولا يمتنِعُ أن يكونَ بعضُ المُسلِمينَ مِن أقارِبِ رُؤساءِ المُنافِقينَ، فيَنظرونَ إليهم بعَينِ الإجلالِ والتَّعظيمِ؛ فلهذا السَّبَبِ يُؤثِّرُ قَولُ هؤلاءِ الأكابِرِ من المنافقينَ فيهم).

((تفسير الرازي)) (64/16).

وقيل: أي: وفيكم- أيُّها المؤمنونَ- جواسيسُ للمُنافقينَ، يَسْمعونَ لهم الأخبارَ، وينقلونَ إليهم أخبارَكم وأسرارَكم.

وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وابنِ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (173/2)، ((تفسير ابن جرير)) (486/11، 487)، ((البسيط)) للواحدي (474/10)، ((تفسير القرطبي)) (157/8).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: زيدُ بنُ أسلَمَ، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1809/6)، ((تفسير ابن جرير)) (486/11)، ((تفسير ابن الجوزي)) (265/2).

قال ابن عاشـــور: (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ أي: في جماعةِ المُســـلِمينَ، أي: مِن بينِ المُســـلِمينَ سَمَّاعون لهم، فيجوزُ أن يكونَ هؤلاءِ السَّمَّاعونَ مُسلِمينَ يُصَدِّقونَ ما يسمعونَه مِن المنافقينَ، ويجوزُ أن يكونَ السمَّاعونَ مُنافِقينَ مَبثوثين بين المُسلِمينَ).

((تفسير ابن عاشور)) (218/10).

(201) قال أبو حيَّان: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ يعُمُّ كُلَّ ظالِمٍ.

ومعنى ذلك: أنَّه يُجازيه على ظُلمِه.

واندرَجَ فيه من يقبَلُ كَلامَ المُنافِقينَ، ومن يؤدِّي إليهم أخبارَ المُؤمِنينَ، ومن تخلَّفَ عن هذه الغزاةِ مِن المنافقينَ).

((تفسير أبي حيان)) (430/5).

كما قال تعالى: وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ [الأنعام: 58].

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (48-52)

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ
(48) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
بِالْكَافِرِينَ (49) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ
قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ
يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52)

غريب الكلمات:

قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ: أي: دَبَّروا لك الحِيَلَ والمكايِدَ، ودوَّروا الآراءَ في إبطالِ أمْرِك، وتَقليبُ الأمورِ: تَدبيرُها والنَّظرُ فيها، وأصلُ (قلب): يدلُّ على ردِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ.

تَرَبَّصُونَ: أي: تَنتَظِرونَ، وأصل التَّربُّص: الانتِظارُ والتمكُّثُ.

الْحُسْنَيَيْنِ: أي: العاقِبَتينِ اللَّتَينِ كلٌّ منهما حسَنٌ: النُّصرةُ أو الشَّهادةُ، وأصل (حسن) ضِدُّ القُبحِ.

تفسير الآيات:

لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ

(48).

لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ.

أي: لقد طلَبَ المُنافِقونَ فِتنةَ المُسلِمينَ، بصَدِّهم عن الدِّينِ، وإفسادِ ما بينهم مِن قَبلِ غزوةِ تبوكَ، كما فعَلُوا في غزوةِ أحُدٍ وغَيرِها.

وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ.

أي: وطلَبَ المُنافِقونَ الشَّرَّ لك– يا مُحَمَّدُ– فصرَّفوا آراءَهم، وأجالُوا أفكارَهم، وأدارُوا عُقولَهم، وأعمَلُوا الحِيَلَ والمكايِدَ، ساعِينَ بذلك لإفسادِ أمْرِك، وإنكارِ دِينِك، وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِك، وتخذيلِ أصحابِك عنك.

حَتَّى جَاء الْحَقُّ.

أي: سعى المُنافقونَ في ابتغاءِ الفِتنةِ، وتقليبِ الأمورِ، إلى أن جاء نَصرُ الله تعالى.[202]

كما قال عزَّ وجلَّ: وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [الإسراء: 81].

وقال سبحانه: قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ [سبأ: 49].

وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ.

أي: وغلَبَ دينُ الله الذي أمَرَ بالدُّخولِ فيه- وهو الإسلامُ- وعلا وظهَرَ وانتصرَ، والحالُ أنَّ المُنافِقينَ كارِهونَ لِظُهورِه، ويَسوؤُهم انتصارُه وعُلُوُّه.[203]

وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49).

---

(202) قال ابنُ كثير: (لقد أعمَلوا فِكرَهم وأجالوا آراءَهم في كيدِك وكَيدِ أصحابِك، وخِذلانِ دِينِك وإخمالِه مُدَّةً طويلةً، وذلك أولَّ مَقدَمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينة، رَمَتْه العربُ عن قَوسٍ واحدةٍ، وحارَبَتْه يهودُ المدينة ومُنافِقوها، فلمَّا نصَرَه اللهُ يومَ بدرٍ وأعلى كَلِمَتَه، قال عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ وأصحابُه: هذا أمرٌ قد توجَّهَ.

فدَخَلوا في الإسلامِ ظاهرًا، ثمَّ كُلَّما أعزَّ اللهُ الإسلامَ وأهلَه، غاظَهم ذلك وساءَهم؛ ولهذا قال تعالى: حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ).

((تفسير ابن كثير)) (4/160- 161).

(203) قال ابن عاشور: (والمرادُ بظُهورِ أمرِ اللهِ نصرُ المُسلِمينَ بفتحِ مَكَّةَ، ودُخول النَّاسِ في الدِّينِ أفواجًا، وذلك يكرَهُه المُنافِقونَ).

((تفسير ابن عاشور)) (10/220).

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي.

أي: ومِنَ المُنافِقينَ مَن يَقولُ لمُحمَّدٍ - ﷺ - حين دَعاهم إلى غَزوِ الرُّومِ: ائذَنْ لي في القُعودِ عن الخُروجِ معك، ولا تبتَلِني برؤيةِ نِساءِ الرُّومِ؛ فإنِّي إن رأيتُهنَّ لا أصبِرُ عَنهنَّ، فأقَعُ في الإثمِ بسبَبِ الخُروجِ معكم!!(204)

سبَبُ النُّزولِ:

عن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سمِعْتُ رَسولَ الله - ﷺ - يقولُ لجَدِّ بنِ قَيسٍ: يا جَدُّ، هل لك في جِلادِ بني الأصفَرِ؟ قال جدٌّ: أوَ تأذَنُ لي يا رسولَ الله؛ فإنِّي رجُلٌ أحِبُّ النِّساءَ، وإنِّي أخشى إنْ أنا رأيتُ نِساءَ بَني الأصفَرِ أنْ أفتَتِنَ؟! فقال رَسولُ الله- وهو مُعرِضٌ عنه-: قد أذِنْتُ لك، فعند ذلك أنزَلَ اللهُ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا)).(205)

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا أراد النَّبيُّ - ﷺ - أن يَخرُجَ إلى غزوةِ تَبوكَ، قال للجَدِّ بنِ قَيسٍ: يا جَدُّ بنَ قَيسٍ، ما تقولُ في مُجاهَدةِ بني الأصفَرِ؟ قال: يا رسولَ الله، إنِّي امرُؤٌ صاحِبُ

---

(204) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٣٢٨) عن بعض الناس أنّ معنى: ﴿ولا تَفْتِنِّي﴾: «أي: لا تُصَعِّب عَلَيَّ حتى أحتاج إلى مواقعة معصيتك ومخالفتك، فَسَهِّل أنت عليّ، ودعني غير مُجَلّح».

وبيَّن أنّ هذا «تأويل حسن واقف مع اللفظ».

غير أنّه انتقده مستندًا لأحوال النزول بقوله: «لكن تَظاهَرَ ما رُوِي مِن ذِكْرِ بنات الأصفر، وذلك معترض في هذا التأويل».

(205) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (1809/6).

وحسَّن إسنادَه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (1225/6).

نِساءٍ، ومتى أرى نِساءَ بني الأصفرِ أفتتِنْ؛ فائذَنْ لي في الجُلوسِ، ولا تفتِنِّي! فأنزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا)).(206)

أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ.

أي: ألَا إنَّ المُنافِقينَ الذين اعتَذَروا عن الجِهادِ بسبَبِ خَوفِهم مِن الفِتنةِ بنِساءِ الرُّومِ، قد وقَعُوا في الفِتنةِ العَظيمةِ ببَقائِهم في الكُفرِ، وإثْمِهم بالتخَلُّفِ عن الجهادِ، ومَعصيةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ.

أي: وإنَّ نارَ جَهنَّمَ ستُحيطُ بالكافِرينَ يومَ القيامةِ، وتُحدِقُ بهم مِن كُلِّ جانِبٍ، فليس لهم عنها مفَرٌّ.

كما قال تعالى: يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [العنكبوت: 54-55].

---

(206) أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (275/2) (2154)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (1720).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (33/7): فيه يحيى الحمَّاني وهو ضعيفٌ، وقال الألباني في ((النصيحة)) (258): له شاهدٌ من حديث جابرٍ، وآخرُ مِن مرسلِ مجاهدٍ بسندٍ صحيحٍ عنه.
قال الواحديُّ: (قال ابنُ عباسٍ والمفسِّرون كلُّهم: نزلتْ في جدِّ بنِ قيسٍ المنافقِ).
((البسيط)) (476/10).

وقال سُبحانه: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ [الأعراف: 41].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا [الكهف: 29].

وقال جلَّ جلاله: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوههِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ [الأنبياء: 39-40].

وقال تبارك وتعالى: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ [الهمزة: 8-9].

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ (50).

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ.

أي: إن غَزَوْتُمْ وَنصَرَكم اللَّهُ على أعدائِكم، وظَهَرْتُم عليهم وغَنِمْتُم، وتتابَعَ النَّاسُ في دُخولِ دينِكم، ونالكم خِصْبٌ في مَعايِشِكم؛ ساء ذلك المُنافِقينَ، وحَزِنوا من أجلِه.(207)

(207) قال محمد رشيد رضا: (المتبادِرُ أنَّ هذا إخبارٌ عن شأنِهم في ماضِيهم وحاضِرِهم ومُستَقبلِهم، والحَسنةُ كلُّ ما يَحسُنُ وقعُه ويَسُرُّ، مِن غنيمةٍ ونُصرةٍ ونعمةٍ، أي: أنَّه يَسوؤُهم كلُّ ما يَسُرُّك، كما ساءَهم النَّصرُ في بَدرٍ وغيرِ بَدرٍ مِن الغَزواتِ). ((تفسير المنار)) (413/10).

وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ.

أي: وإن تُصِبْكم مُصيبةٌ بهزيمةٍ أو قتلٍ أو جِراحٍ، يقُلِ المُنافِقونَ: قد احتَطْنا لأنفُسِنا، وأخَذْنا حِذْرَنا مِن قَبلِ أن يُصيبَكم هذا المكروهُ، فسَلِمْنا لأنَّا لم نَخرُجْ معكم.

وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ.

أي: وينصَرِفِ المُنافقونَ- إن أصابَتْكم مصيبةٌ - وهم مَسرُورونَ بما أصابَكم، ومَسرُورونَ بسَلامَتِهم بتخلُّفِهم عنكم.

قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51).

قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يفرَحونَ بما يُصيبُكم مِن مَكروهٍ: لن يُصيبَنا إلَّا ما قدَّرَه اللهُ وكتَبَه لنا في اللَّوحِ المَحفوظِ.(208)

كما قال تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ [الحديد: 22–23].

---

(208) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٣٣٠) أنّ قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يريد: ما قضى وقدَّر.
الثاني: أن يريد: ما كتب الله لنا في قرآننا علينا مِن أنّا إمّا أن نظفر بعدونا، وإمّا أن نستشهد فندخل الجنة.
ثم علّق عليه بقوله: «وهذا الاحتمال يرجع إلى الأول».

وقال سُبحانه: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [التغابن: 11].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله - ﷺ -: ((عَجبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سرَّاءُ شكَرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ، فكان خيرًا له)).(209)

وعن عبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ)).(210)

هُوَ مَوْلَانَا.

أي: اللهُ هو سَيِّدُنا وناصِرُنا.

وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

أي: وعلى الله وَحْدَه فلْيعتَمِدِ المؤمنونَ، ويُفَوِّضوا أمورَهم إليه.

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (52).

---

(209) رواه مسلم (2999).
(210) رواه مسلم (2653).

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ.

أي: قلْ- يا مُحَمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يَفرَحونَ بما يُصيبُكم مِن مكروهٍ: ما تنتَظِرونَ بنا إلَّا أن تُصيبَنا إحدى الخَلَّتينِ اللَّتين هما أحسَنُ مِن غيرِهما: النَّصرُ أو الشَّهادةُ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((تضمَّنَ اللهُ لِمَن خرَجَ في سبيلِه، لا يُخرِجُه إلَّا جِهادًا[211] في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا بِرُسُلي، فهو عليَّ ضامِنٌ أن أُدخِلَه الجنَّةَ، أو أَرجِعَه إلى مَسكَنِه الذي خرَجَ منه، نائلًا ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بِيَده، ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ[212] في سبيلِ الله، إلَّا جاء يومَ القِيامةِ كَهَيئَتِه حين كُلِمَ؛ لَونُه لَونُ دَمٍ، ورِيحُه مِسكٌ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِه، لولا أن يَشُقَّ على المُسلِمينَ ما قعَدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزُو في سبيلِ الله أبدًا، ولكِنْ لا أجِدُ سَعةً فأحمِلَهم، ولا يَجِدونَ سَعةً، ويشُقُّ عليهم أن يتخَلَّفوا عني، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِه، لَوَدِدْتُ أنِّي أغزو في سَبيلِ الله فأُقتَلُ، ثم أغزو فأُقتَلُ، ثمَّ أغزو فأُقتَلُ))[213].

---

(211) قال النَّووي: (هكذا هو في جميعِ النُّسَخِ (جِهادًا) بالنَّصبِ، وكذا قال بعده: (وَإيمانًا بي وتصديقًا) وهو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ له، وتقديرُه: لا يُخرِجُه المُخرِجُ ويُحَرِّكُه المحَرِّكُ إلا للجهادِ والإيمانِ والتصديق).

((شرح النووي على مسلم)) (20/13).

(212) الكَلْمُ: الجُرحُ.

ويُكْلَمُ: أي: يُجرَحُ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (21/13).

(213) رواه مسلم (1876).

وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا.

أي: ونحن ننتَظِرُ بكم– أيُّها المُنافِقونَ– أن يُصيبَكم اللهُ في الدُّنيا بعقوبةٍ مِن عِندِه أو بعذابٍ بأيدينا، فيُسَلِّطَنا عليكم، فنَقتُلَكم، إن أظهَرْتم نِفاقَكم.(214)

فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ.

أي: وإذا كان الأمرُ كذلك إذن فانتَظِروا، ونحن مَعكم مُنتَظِرونَ ما اللهُ فاعِلٌ بنا وبكم؛ فكلٌّ منا سيَصيرُ إلى ما يتربَّصُ به الآخَرُ إليه.

كما قال تعالى: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [يونس: 102].

---

(214) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٣٣٣) أنّ قوله: ﴿بِعَذابٍ مِن عِنْدِهِ﴾ معناه: الموت بإحداث الأسف. ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون توعدًا بعذاب الآخرة».

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (53–54)

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54)

تفسير الآيتين:

قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53).

قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ.

أي: قُلْ– يا مُحمَّدُ– للمُنافِقِينَ: سواءٌ عليكم أنفَقْتُم أموالَكم باختيارِكم أم بِغَيرِ رِضًا منكم؛ فإنَّ الله تعالى لن يتقبَّلَ منكم نفَقاتِكم.

كما قال تعالى: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان: 23].

وقال سبحانه: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [المائدة: 27].

إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ.

أي: لا يتقبَّلُ اللهُ تعالى نفَقاتِكم– أيُّها المُنافِقونَ– لأنَّكم كُنتم قومًا كافرينَ، خارِجينَ عن طاعةِ ربِّ العالَمينَ.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (54).

وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ.

أي: وما منَعَ قَبولَ نَفَقاتِ المُنافِقينَ إلَّا كُفْرُهم باللهِ عزَّ وجلَّ، وبرَسولِه محمَّدٍ - ﷺ -.

وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى.

أي: ولا يأتي المُنافِقونَ الصَّلواتِ المفروضةَ إلَّا وهم مُتثاقِلونَ عنها، يُراؤونَ النَّاسَ بها.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء: 142].

وقال سبحانه: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [البقرة: 45-46].

وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ.

أي: ولا يُنفِقُ المُنافِقونَ شَيئًا مِن أموالِهم في أوجُهِ الخَيرِ- رعايةً لِمَصالِحِهم الخاصَّةِ- إلَّا وهم كارِهونَ لهذا الإنفاقِ، ويَعُدُّونَه مَغرمًا لا مَغْنمًا.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (55–57)

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)

تفسير الآيات:

فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55).

فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ.

أي: فلا تَستحسِنْ– يا مُحمَّدُ– أموالَ المُنافِقِينَ ولا أولادَهم، ممَّا أنعَمْنا عليهم؛ استدراجًا لهم.(215)

كما قال تعالى: وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [طه: 131].

وقال سبحانه: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ [المؤمنون:55–56].

---

(215) قال الرازي: (هذا الخِطابُ وإن كان في الظَّاهر مختصًّا بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، إلَّا أنَّ المرادَ منه كلُّ المؤمنين، أي: لا ينبغي أن تعجَبوا بأموالِ هؤلاء المنافِقينَ والكافرين، ولا بأولادِهم ولا بسائرِ نِعَمِ الله عليهم).

((تفسير الرازي)) (71/16).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (227/10).

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ.

أي: إنَّما يريدُ اللهُ أن[216] يعذِّبَ المُنافِقينَ بأموالِهم وأولادِهم في حياتِهم الدُّنيا.[217]

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((من كانتِ الآخِرةُ همَّه، جعَلَ اللهُ غناه في قَلْبِه، وجمَعَ له شَمْلَه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدُّنيا همَّه، جعل اللهُ فَقْرَه بين عَينَيه،[218] وفرَّق عليه شَملَه، ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ له)).[219]

---

(216) قال الشـــنقيطي: (هذه اللامُ التي تأتي في القرآنِ وفي كلامِ العربِ بعد فعلِ الإرادة، اختلف العلماءُ في معناها، وأظهَرُ أقوالهم فيها قولان: أحدهما: أنها لامٌ نادرةُ المعنى تأتي بمعنى (أن)، وأنَّها لامٌ مصـــدريةٌ، وإن لم يكن علماءُ العربيَّةِ عدُّوا حرفَ اللامِ من الموصـولاتِ الحرفيَّةِ المصـدريَّةِ، قالوا: فهذه اللامُ بمعنى (أن)، والدليلُ على هذا القَولِ تعاقُبُ هذه اللامِ و (أنْ) في قَولِه تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ [التوبة: 32] و يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ [الصف: 8] ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ [التوبة: 55] يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ في الآية الآتية.

وعلى هذا القَولِ، فاللامُ المصدريَّةُ بمعنى (أن)، وهو قولٌ يقِلُّ مَن يقولُه مِن علماء العربيَّة.

القول الثاني: أنَّ المفعولَ محذوفٌ، واللامُ لامُ تَعليلٍ لِمَحذوفٍ، والمعنى على هذا القَولِ: إنَّما يريدُ اللهُ إعطاءَهم ومتاعَهم بها؛ لأجلِ أن يعَذِّبَهم بها في الحياةِ الدُّنيا).

((العذب النمير)) (577/5).

(217) قال الواحدي: (المعنى: ليُعَذِّبَهم بها، بأخْذِ الزكاةِ، والنَّفقةِ في سـبيلِ الله، والمصـايبِ فيها، والتَّعَبِ في جَمْعِها، والوَجَلِ في حِفْظِها).

((الوسيط)) (504/2).

ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (36/1)، ((تفسـير الرازي)) (72/16، 73)، ((تفسـير ابن عطية)) (45/3)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (578/5).

(218) كنايةٌ عن كَونه يَصيرُ مُستَحضِرًا له أبدًا، ومُشفِقًا من الوقوعِ فيه سرمدًا.

يُنظر: ((فيض القدير)) للمناوي (255/1).

(219) أخرجه ابن ماجه (4105)، والطيالسي في ((المسند)) (617)، وابن حبان في ((الصحيح)) (680).

جوَّد إسناده ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (263/3)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (88/5)، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (3329).

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ.

أي: ويريدُ اللهُ أن تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ، وهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم باللهِ ورَسولِه، فيتَّصِلَ لهم عذابُ الآخرةِ الدَّائِمُ، بعذابِهم في الدُّنيا.[220]

وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56).

وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ.

أي: ويَحلِفُ المنافِقونَ باللهِ يمينًا مُؤكَّدةً لكم- أيُّها المؤمنونَ- كَذِبًا: إنَّهم مُؤمِنونَ مِثلُكم، وليسوا- في الحقيقةِ- مِن أهلِ دِينِكم، بل هم كفَّارٌ، وأعداءٌ لكم.

كما قال تعالى عن المُنافِقينَ: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ [البقرة: 14].

وقال سُبحانه: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [المُنافِقون: 1].

---

(220) قال ابنُ عطية: (قولُه: وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ يحتملُ أن يريدَ: ويموتونَ على الكُفرِ، ويحتملُ أن يريدُ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ من شدَّةِ التعذيبِ الذي ينالُهم).
((تفسير ابن عطية)) (45/3).

وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ.

أي: ولكنَّ المنافِقِينَ يخافونَ منكم- أيُّها المؤمِنونَ- فيَحلِفونَ لكم إنَّهم مُؤمِنونَ؛ لِيَأمَنوكم.

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57).

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ.

أي: لو يَجِدُ المُنافِقونَ مَكانًا يتحصَّنونَ فيه، أو كُهوفًا في الجبالِ، أو نَفقًا في الأرضِ، يُتكَلَّفُ الدُّخولُ إليه بمشقَّةٍ- لذَهَبوا إليه؛ هربًا منكم أيُّها المؤمِنونَ.

وَهُمْ يَجْمَحُونَ.

أي: لو يَجِدُ المُنافِقونَ مكانًا يَلجؤونَ إليه، لهُرِعوا إليه وهم يُسرِعونَ في مَشْيِهم؛ لِشِدَّةِ كراهَتِهم لكم، ونُفورِهم منكم، وخوفًا من الخُروجِ للجِهادِ معكم.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (58–60)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

غريب الكلمات:

يَلْمِزُكَ: أي: يَعيبُك، ويطعَنُ عليك، وأصلُ (لمز): يدلُّ على العَيْبِ.

الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ: قومٌ كان رسولُ اللهِ - ﷺ - يتألَّفُهم على الإسلامِ بما يُعطيهم، وأصلُ (ألف): يدلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ.

الْغَارِمِينَ: أي: الذينَ لَزِمَهم الدَّينُ، فلا يَجِدونَ القَضاءَ، والغُرْمُ: ما ينوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَررٍ، لِغَيرِ جِنايةٍ منه، أو خِيانةٍ، وأصلُ (غرم): يدلُّ على المُلازَمةِ.

وَابْنِ السَّبِيلِ: أي: المُنقَطِعِ بالطَّريقِ يُريد بلدًا آخَرَ، وأصلُ (سبل): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ.

تفسير الآيات:

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58).

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ.

أي: ومِن المُنافِقينَ مَن يَعيبُك ويتَّهِمُك وينتقِدُكَ- يا محمَّدُ- طاعِنًا على قِسمَتِك، وتَوزيعِك أموالَ الزَّكاةِ على مُستحِقِّيها.

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَيْنا نحن عندَ رسولِ اللهِ - ﷺ - وهو يقسِمُ قَسمًا، أتاه ذو الخُوَيصِرةِ، وهو رجلٌ مِن بني تميمٍ، فقال: يا رسولَ اللهِ، اعدِلْ، قال رسولُ الله - ﷺ -: وَيلَك! ومَن يَعدِلُ إنْ لم أعدِلْ؟! قد خِبْتَ وخسِرْتَ إنْ لم أعدِلْ، فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: يا رسولَ اللهِ، ائذَنْ لي فيه أضرِبْ عُنُقَه، قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: دَعْه؛ فإنَّ له أصحابًا يَحقِرُ أحدُكم صَلاتَه مع صَلاتِهم، وصِيامَه مع صِيامِهم، يَقرؤونَ القُرآنَ، لا يُجاوِزُ تَراقِيَهم[221]؛ يَمرُقونَ مِن

---

(221) التَّراقي: جمع تَرْقُوَة: وهي عظمٌ واصِلٌ ما بين ثغرةِ النَّحرِ والعاتِقِ.
قيل المراد: لا يُرفَعُ إلى الله منه شيءٌ؛ لعِلمِه باعتقادِهم.
يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (232/7).
وقيل: معناه أنَّ قومًا ليس حظُّهم مِن القرآنِ إلا مرورُه على اللسانِ فلا يجاوزُ تراقيَهم ليصلَ قلوبَهم، وليس ذلك هو المطلوبَ، بل المطلوب تعقلُه وتدبرُه بوقوعِه في القلبِ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (105/6).

الإسلامِ كما يَمْرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّميَّةِ،[222] يُنظَرُ إلى نَصْلِه،[223] فلا يوجدُ فيه شيءٌ، ثم يُنظَرُ إلى رِصافِه[224] فلا يُوجدُ فيه شيءٌ، ثمَّ يُنظَرُ إلى نَضِيِّه[225] فلا يوجدُ فيه شيءٌ- وهو القِدْحُ- ثم يُنظَرُ إلى قُذَذِه[226] فلا يُوجدُ فيه شيءٌ، سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ،[227] آيَتُهم رجلٌ أسوَدُ، إحدى عَضُدَيه مثلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مِثلُ البَضعةِ تَدَردَرُ،[228] يَخرجونَ على حينِ فُرقةٍ مِن النَّاسِ. قال أبو سعيدٍ: فأشهَدُ أنّي سمِعْتُ هذا مِن رسولِ الله – ﷺ –، وأشهَدُ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه قاتَلَهم وأنا معه،

وقيل: لا يعملونَ بالقُرآنِ فلا يُثابونَ على قِراءته فلا يحصلُ لهم إلَّا سَرْدُه.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (293/12).

ويُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (3797/9).

(222) الرميَّة: ما يُرمى مِن الصَّيدِ.

يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (232/7).

(223) النَّصلُ: حديدةُ السَّهمِ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (58/6).

(224) الرِّصافُ: هي العَقِبُ التي تكونُ فوقَ مَدخَلِ النَّصلِ في السَّهمِ.

يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (232/7).

(225) النَّضِيُّ: عودُ السَّهمِ قبل أن يُرَيَّشَ ويُنَصَّل، سُمِّيَ به لكثرة البَرْيِ والنَّحتِ، كأنَّه جُعل نِضْوًا، أي: هَزيلًا.

يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (232/7).

(226) قُذَذِه: جَمعُ قُذَّةٍ، وهي الرِّيشُ الذي على السَّهمِ.

يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (233/7).

(227) الفَرْثُ: ما يجتَمِعُ في الكَرِش، أي: مرَّ سريعًا في الرَّميَّة وخرَجَ منها، لم يتعلَّقْ منها بشيءٍ مِن فَرْثِها ودَمِها؛ لِسُرعته، شَبَّه بذلك خُروجَهم من الدِّين، ولم يحصلوا منه على شَيءٍ ألَبتَّةَ.

يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (233/7).

(228) تَدَردَرُ: أي: تتحَرَّكُ وتجيءُ وتذهَبُ.

يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (233/7).

فأمر بذلك الرَّجُلِ، فالتُمِسَ فوُجِدَ، فأُتِيَ به حتى نَظَرْتُ إليه، على نَعْتِ رَسولِ اللهِ - ﷺ - الذي نَعتَ!)).(229)

---

(229) رواه البخاري (6933)، ومسلم (1064) واللفظ له.

وفي رواية البخاري زيادة: (قال: فنزَلَت فيه: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ).

قال ابن تيمية: (رواه البخاري وغيرُه من حديث مَعمَر عن الزهري، وأخرجاه في الصحيحين من وجوهٍ أخرى عن الزهري عن أبي سَلَمة والضحاك الهمداني عن أبي سعيد..

وذكَرَ حديثَ الخوارج المشهورَ، ولم يذكرْ نزول الآية ..

الذي في رواية معمر- أنَّ آية الصدقات نزلت في قصَّة ذي الخويصرة- ليس بجيدٍ، بل هو مُدْرَجٌ في الحديث من كلام الزُّهري أو كلام مَعمَر؛ لأن ذا الخويصرة إنما أنكرَ عليه قَسمَ الغنائمِ، وليست هي الصَّدَقات التي جعلها الله لثمانيةِ أصنافٍ، ولا الْتفاتَ إلى ما ذكَره بعضُ المفسِّرين من أنَّ الآية نزلت في قَسمِ غنائمِ حُنَينٍ، وإمَّا أن يكونَ المعترضُ في ذُهَيبةِ عليٍّ رضي الله عنه هو ذو الخويصرة أيضًا، وعلى هذا فتكونُ أحاديثُ أبي سعيد كلُّها في هذه القصَّة، لا في قَسمِ الغنائم، وتكونُ الآية قد نزلت في ذلك، أو يكون قد شهد القصَّتين معًا، والآيةُ نزلت في إحداهما).

((الصارم المسلول)) (ص: 227، 231).

ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (421/10)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (581/5، 582).

وقال ابنُ حجر: (لم أقِفْ على الزيادة إلَّا في رواية مَعمَر...

وله شاهدٌ من حديث ابن مسعود قال: ((لَمَّا قَسَم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غنائم حُنَينٍ، سَمِعْتُ رجلًا يقول: إنَّ هذه القِسمةَ ما أُريدَ بها وجهُ الله! قال: فنَزَلَت: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ)).

أخرجه ابن مردويه، وقد تقدَّم في غزوة حُنين بدون هذه الزيادة، ووقع في رواية عتبة بن وساج عن عبد الله بن عمر ما يؤيِّد هذه الزيادة: ((فجعل يقسِمُ بين أصحابِه، ورجلٌ جالِسٌ فلم يُعطِه شيئًا، فقال: يا محمَّدُ، ما أراك تَعدِلُ!)) وفي رواية أبي الوَضِي عن أبي بَرْزَةَ نحوُه، فدلَّ على أنَّ الحامِلَ للقائل على ما قال من الكلامِ الجافي، وأقدَمَ عليه من الخطاب السيئِ؛ كونُه لم يُعطَ من تلك العطيَّةِ، وأنَّه لو أعطِيَ لم يقُلْ شيئًا من ذلك).

((فتح الباري)) (298/12).

وقال محمد رشيد رضا: (الآيةُ نصٌّ في قِسمةِ الصَّدَقاتِ، فجَعلُ الغنائِمِ سَبَبًا لِنُزولها، من جملةِ تساهُلِهم فيما يُسمُّونَه أسباب النُزولِ).

((تفسير المنار)) (421/10).

وقال الشنقيطي: (ذكَرَ كثيرٌ من أهل العلم أنَّ هذه الآيةَ نزلت في حرقوص بن زهير ذي الخُوَيصرة التميميِّ، رأسِ المنافقين.

فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ.

أي: فإنْ أعْطَيت المُنافِقِينَ- يا مُحَمَّدُ- من الصَّدَقاتِ قَدْرَ ما يرُيدونَ، رَضُوا وسَكَتوا عنك.

وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ.

أي: وإنْ لم تُعطِ المُنافِقينَ- يا مُحَمَّدُ- ما يُرضيهم مِن الصَّدَقاتِ، غَضِبوا عليك، وعابُوك!

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ (59).

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ.

أي: ولو أنَّ أولئك المُنافِقينَ قَنَعوا بما أعْطاهم اللهُ، وقَسَمَه لهم رَسولُه.

قالوا: وجَدَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقسِمُ مالًا، فقال: يا نبيَّ اللهِ، اعدِلْ؛ فإنَّك لم تعدِلْ- قبَّحَه اللهُ- وقِصةُ ذي الخويصرة معروفةٌ ثابتة في الصَّحيح، ولكنَّ الذي يظهَرُ أنَّ هذه الآيةَ ليست نازلةً فيه، وإن زَعَمَ كثيرٌ مِن كُبَراء المفسِّرين أنَّها نازلة في ذي الخُوَيصرة، وإنَّما قلنا: إنَّ الأظهَرَ أنَّها نازلةٌ في غيره؛ لأنَّ المعروف أنَّ القِسمةَ التي قال فيها حرقوص بن زهير التميمي المعروف بذي الخُويصرة؛ أصلُ الخَوارِجِ- قبَّحَه وقبَّحَهم اللهُ- أنَّ ذلك في قَسمِ النبيِّ لِغَنائمِ حُنَينٍ، قال ذلك فيه، وهذه الآيةُ يصرِّحُ اللهُ فيها بأنَّهم لَمَزوه في قَسمِ الصَّدَقات- وهي الزَّكواتُ- والصَّدقاتُ غيرُ الغَنائمِ، فالأظهَرُ أنَّ الأصوبَ فيها هو ما قالَه ابنُ جُرَيجٍ (رحمه الله) وغيرُه: أنَّها نزلت في رجلٍ مِن الأنصارِ مِن المنافقينَ حضر النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقسِمُ مالًا من الصَّدقاتِ، فقال: يا نبيَّ الله، اعدِلْ فإنَّك لم تعدِلْ- قبَّحَه اللهُ- فنَزَلت هذه الآيةُ فيه).
((العذب النمير)) (5/581-582).

وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ.

أي: ولو أن المُنافِقين قالوا: كافِينا اللهُ وَحدَه.

سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ.

أي: سيُعطينا اللهُ مِن فَضلِه العَظيمِ، وسيَقسِمُ لنا رسولُه الكريمُ.[230]

إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ.

أي: وقالوا: إنَّا نرغَبُ إلى اللهِ تعالى وَحدَه، ونتضَرَّعُ إليه دونَ مَن سِواه، أن يُغنِيَنا مِن فَضْلِه، ويَرزُقَنا في الدُّنيا والآخرةِ، لو أنَّهم فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم.

عن أبي وائلٍ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ مُكاتَبًا جاءه، فقال: ((إنِّي قد عَجَزتُ عن مُكاتَبَتي فأعِنِّي، قال: ألَا أُعَلِّمُك كَلِماتٍ عَلَّمَنيهنَّ رَسولُ اللهِ – ﷺ –، لو كان عليك مِثلُ جَبلِ صِيرٍ دَينًا، أدَّاه اللهُ عنك؟! قل: اللهُمَّ اكفِني بحلالِك عن حرامِك، وأغنِني بفَضلِك عمَّن سِواك)).[231]

---

(230) قال محمد رشيد رضا: (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ورَسُولُهُ أي: سيُعطينا اللهُ مِن فَضلِه في المستقبَلِ مِن الغنائِمِ والكَسبِ؛ لأنَّ فَضلَه دائِمٌ لا ينقطِعُ، ويُعطينا رسولُه ممَّا يَرِدُ عليه من الغنائِمِ والصَّدَقات زيادةً ممَّا أعطانا من قبلُ، لا يَبخَسُ أحدًا منَّا حقًّا يستحِقُّه في شَرعِ الله تعالى).
((تفسير المنار)) (421/10).

(231) أخرجه الترمذي (3563)، وأحمد (1319)، والطبراني في ((الدعاء)) (1042)، والحاكم في ((المستدرك)) (1973).
قال الترمذيُّ في ((السنن))، وابنُ حجرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (29/4): حسنٌ غريبٌ، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (3563).

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60).

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ.

أي: إنَّما أموالُ الزَّكاةِ مُستحَقَّةٌ للفُقَراءِ وللمساكينِ.(232)

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((ليس المِسكينُ الذي يطوفُ على النَّاسِ تَرُدُّه اللُّقمةُ واللُّقمَتانِ، والتَّمرةُ والتَّمرتانِ، ولكِنِ المِسكينُ الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغنيه، ولا يُفطَنُ به فيُتصَدَّقُ عليه، ولا يقومُ فيَسألُ النَّاسَ)).(233)

---

(232) قال الرازي: (الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا حَقَّ في الصَّدَقاتِ لأحَدٍ إلَّا لهذه الأصنافِ الثَّمانيةِ، وذلك مُجمَعٌ عليه، وأيضًا فلفظةُ إنَّما تفيدُ الحصرَ).

((تفسير الرازي)) (80/16).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (568/28)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (587/5).

قال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ في الفقيرِ والمسكينِ أيُّهما أسوأُ حالًا؟ فذَهَب جماعةٌ من فقهاءِ الأمصارِ وأهلِ اللغةِ إلى أن الفقيرَ أسوأُ حالًا من المسكينِ، وهذا مذهبُ الشافعيِّ رحمه اللهُ، وروايةٌ قويةٌ عن أحمدَ رحمه اللهُ، وبه قال جماعةٌ من السلفِ، أنَّ الفقيرَ أحوجُ من المسكينِ.

وقالت طائفةٌ: إنَّ المسكينَ أحوجُ من الفقيرِ، وهو مذهبُ مالكٍ وأصحابِه، ومذهبُ أبي حنيفةَ).

((العذب النمير)) (588/5).

ويُنظر: ((الأموال)) لابن زنجويه (1138/3)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: 510)، ((معاني القرآن)) للنحاس (221/3، 222)، ((تفسير الماوردي)) (374/2، 375)، ((البسيط)) للواحدي (509/10)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (523/2)، ((تفسير ابن الجوزي)) (269/2، 270)، ((تفسير السعدي)) (ص: 341)، ((تفسير ابن عاشور)) (235/10).

(233) رواه البخاري (1479) واللفظ له، ومسلم (1039).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((لا تَحِلُّ الصَّدَقةُ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ[234]))[235].

وعن عُبيدِ الله بن عَدِيِّ بنِ الخِيارِ، ((أنَّ رَجُلَينِ أخبَراه أنَّهما أتيَا النبيَّ - ﷺ - يسألانِه مِن الصَّدقةِ، فقلَّبَ فيهما البَصَرَ، ورآهما جَلْدَينِ، فقال: إن شِئتُما أعطيتُكما، ولا حظَّ فيها لغنيٍّ، ولا لِقويٍّ مُكتَسِبٍ))[236].

---

(234) لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ: هو القَويُّ صحيحُ الأعضاءِ، تامُّ الخِلقةِ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (511/2).

(235) أخرجه النسائي (2597)، وابن ماجه (1839)، وأحمد (9061)، وابن حبان (3290).
صحَّحه ابنُ كثير ((تفسير القرآن)) (419/7)، وابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (362/7)، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (1501)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجرٍ في ((التلخيص الحبير)) (1106/3).

(236) أخرجه أبو داود (1633)، والنسائي (2598)، وأحمد (17972)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (2722).
قال الإمامُ أحمدُ كما في ((التلخيص الحبير)) لابن حجر (1105/3): ما أجوَدَه مِن حديثٍ، وصحَّحه النووي في ((المجموع)) (189/6)، وابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (361/7)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (1633).
وقال ابنُ جرير: (المُكتَسِبُ المتَعَذِّرُ عليه الكَسبُ: حَلالٌ له الصَّدَقةُ إذا تعذَّر عليه الكَسبُ، وإن كان مِن صِفتِه أنَّه قادِرٌ على الكَسبِ إذا وَجَده).
((تهذيب الآثار)) (ص: 418).
وقال الخطابي: (فيه أنَّه لم يُعتبَرْ في منعِ الزَّكاةِ ظاهِرُ القوَّةِ والجَلَد، دون أن يُضمَّ إليه الكَسبُ؛ فقد يكون من النَّاسِ مَن يَرجِعُ إلى قُوَّةِ بَدَنِه، ويكون مع ذلك أخرَقَ اليَدِ لا يعتَمِل، فمن كان هذا سبيلَه لم يُمنَع من الصَّدَقةِ بدلالةِ الحَديثِ).
((معالم السنن)) (62/2).

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا.

أي: ولِلعامِلينَ على الزَّكاةِ، الذين يَجمَعونَها ممَّن وجَبَت عليهم، ويُوزِّعونَها على مُستحِقِّيها.(237)

وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ.

أي: ولِمَن يُرادُ تأليفُ قُلوبِهم على الإسلامِ.(238)

---

(237) قال ابن تيمية: (العامِلُ على الصَّدَقةِ الغَنيُّ؛ له أن يأخُذَ بعِمالَتِه، باتِّفاقِ المُسلِمينَ).

((منهاج السنة النبوية)) (251/6).

وقال ابن عاشـور: (وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا معناه: العامِلونَ لأجلِها، أي: لأجْلِ الصَّـدَقاتِ، فحَرفُ (على) للتَّعليلِ، كما في قوله تعالى: وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ [البقرة: 185]، أي: لأجْلِ هِدايتِه إيَّاكم.

ومعنى العَمَل: السَّعيُ والخِدمةُ)) (235/10).

وقال السعدي: (العامِلونَ على الزكاة: وهم كلُّ مَن له عَمَلٌ وشُغُلٌ فيها: مِن حافظٍ لها، أو جابٍ لها من أهلِها، أو راعٍ، أو حامِلٍ لها، أو كاتبٍ، أو نحوِ ذلك، فيُعطَونَ لأجلِ عِمالَتِهم، وهي أجرةٌ لأعمالِهم فيها).

((تفسير السعدي)) (ص: 341).

وقال ابن جرير: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ من قال: يُعطَى العامِلُ عليها- على قَدرِ عِمالَتِه- أجرَ مِثلِه).

((تفسير ابن جرير)) (518/11).

وقال ابنُ العربي: (اختلفَ النَّاسُ في المقدارِ الذي يأخُذُه العامِلونَ مِن الصدقةِ...

والصَّحيحُ الاجتهادُ في قَدْرِه؛ لأنَّ البيانَ في تعديدِ الأصنافِ إنَّما كان للمَحلِّ لا للمُستَحَقِّ).

((أحكام القرآن)) (525/2).

وقال الشنقيطي: (وأظهرُ الأقوالِ: أنَّه لا يتقدَّرُ فيه شيءٌ مُعَيَّنٌ، إلَّا بقَدرِ أُجرتِهم).

((العذب النمير)) (589/5).

(238) قال ابن كثير: (وأمَّا المؤلَّفةُ قُلوبُهم فأقسامٌ: منهم من يُعطى ليُسـلِمَ، كما أعطى النبيُّ صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم صـفوانَ بنَ أميَّةَ من غنائم حُنَين، وقد كان شَهِدَها مُشرِكًا.

قال: فلم يزَلْ يُعطيني حتى صار أحبَّ النَّاسِ إليَّ بعد أن كان أبغَضَ النَّاسِ إليَّ...

ومنهم من يُعطى لِيَحسُنَ إسلامُه، ويَثبُتَ قَلبُه، كما أعطى يومَ حنينٍ أيضًا جماعةً من صناديدِ الطُّلَقاء وأشرافِهم: مائةً مِن الإبل، مائةً مِن الإبل...

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَعث عليٌّ رَضِيَ الله عنه وهو باليمَنِ بذَهَبةٍ في تُربَتِها إلى رَسولِ الله - ﷺ -، فقَسَمَها رسولُ اللهِ - ﷺ - بين أربعةِ نَفرٍ: الأقرَعِ بنِ حابسٍ الحَنظليِّ، وعُيَينةَ بنِ بَدرٍ الفَزاريِّ، وعَلقمةَ بنِ عُلاثةَ العامريِّ، وزيدِ الخيرِ الطَّائيِّ، فغَضِبَت قريشٌ، فقالوا: أتُعطي صناديدَ نَجدٍ وتَدَعُنا؟! فقال رسولُ الله - ﷺ -: إنِّي إنَّما فعَلْتُ ذلك؛ لِأتألَّفَهم)).[239]

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ - ﷺ -: ((إنِّي أُعطِي قُريشًا أتألَّفُهم؛ لأنَّهم حديثُ عَهدٍ بجاهليَّةٍ)).[240]

وَفِي الرِّقَابِ.

ومنهم من يُعطى لِما يُرجى من إسلامِ نُظَرائه، ومنهم من يُعطى لِيَجبيَ الصَّدَقاتِ ممَّن يليه، أو لِيَدفعَ عن حَوزةِ المُسلِمين الضَّررَ مِن أطرافِ البلادِ).

((تفسير ابن كثير)) (4/167).

ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (10/426، 427)، ((تفسير السعدي)) (ص: 341).

وقال ابن عاشور: (قال كثيرٌ مِن العُلَماءِ: هم باقون إذا وُجِدوا؛ فإنَّ الإمام ربَّما احتاج إلى أن يستألِفَ على الإسلامِ، وبه قال الزُّهري، وعمرُ بنُ عبد العزيز، والشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، واختاره عبدُ الوهابِ، وابنُ العربي، مِن المالكية.

قال ابنُ العربي: الصَّحيحُ عندي أنَّه إن قوِيَ الإسلامُ زالوا، وإن احتيجَ إليهم أُعطُوا.

أي: فهو يرى بقاءَ هذا المَصرِف، ويرى أنَّ عدمَ إعطائِهم في زمَنِ عُمَرَ؛ لأجلِ عِزَّةِ الإسلامِ، وهذا هو الذي صحَّحه المتأخِّرونَ، قال ابنُ الحاجبِ في «المختصر»: والصَّحيحُ بقاءُ حُكمِهم إن احتِيجَ إليهم.

وهذا الذي لا ينبغي تقلُّدُ غيرِه).

((تفسير ابن عاشور)) (10/239).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/523)، ((تفسير الرازي)) (16/86).

(239) رواه البخاري (7432)، ومسلم (1064) واللفظ له.

(240) رواه البخاري (3146) واللفظ له، ومسلم (1059).

أي: وفي عِتقِ الرَّقيقِ، فيُشترى العبيدُ والإماءُ مِن الزكاةِ ويحرَّرون، ويُعانُ المُكاتَبونَ على أداءِ مالِ المُكاتَبةِ، ويُفتدى الأَسرى.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ [النور: 33].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ - ﷺ - قال: ((من أعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً، أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِن النَّارِ، حتى فَرْجَه بفَرْجِه)).(241)

وعن البَراءِ بن عازبٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ - ﷺ -، فقال: يا رسولَ اللهِ، علِّمْني عملًا يُدخِلُني الجنَّةَ، فقال: لَئِن كنتَ أقصَرْتَ الخُطبةَ، لقد أعرَضْتَ المسألةَ! أعتِقِ النَّسَمةَ، وفُكَّ الرَّقبةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أولَيسَتا بواحدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفرَّدَ بعِتقِها، وفكَّ الرَّقبةِ أن تُعينَ في عِتقِها)).(242)

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونُهم: المجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ الذي يُريدُ الأداءَ، والنَّاكِحُ الذي يريدُ العَفافَ)).(243)

---

(241) رواه البخاري (6715) واللفظ له، ومسلم (1509).

(242) أخرجه أحمد (18647)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (69)، وابن حبان (374)، والدارقطني (2055).
صححه ابن حجر في ((فتح الباري)) (5/174)، والألباني في ((صحيح الموارد)) (1017)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (141).

(243) أخرجه الترمذي (1655)، والنَّسائي (3120)، وابن ماجه (2518)، وأحمد (7416)، وابن حبان (4030).

وَالْغَارِمِينَ.

أي: والمَدِينينَ الذين استَدانُوا في غيرِ مَعصيةٍ، وليس لديهم ما يُوَفُّونَ به دينَهم، أو تحمَّلوا مالًا للإصلاحِ بين النَّاس، فيُعطَونَ مِن الزَّكاةِ.

عن قَبيصةَ بنِ مُخارِقٍ الهِلاليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((تحمَّلْتُ حَمالةً،[244] فأتيتُ رَسولَ الله – ﷺ – أسألُه فيها، فقال: أقِمْ حتى تأتِيَنا الصَّدَقةُ، فنأمُرَ لك بها، قال: يا قَبيصةُ، إنَّ المسألةَ لا تَحِلُّ إلَّا لأحدِ ثَلاثةٍ: رَجُلٍ تحمَّلَ حَمالةً، فحَلَّت له المسألةُ حتى يُصيبَها، ثم يُمسِك، ورجلٍ أصابَتْه جائِحةٌ[245] اجتاحَتْ مالَه، فحَلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قِوامًا مِن عَيشٍ– أو قال: سِدادًا مِن عَيشٍ[246]–، ورجُلٍ أصابَتْه فاقةٌ حتى يقومَ ثلاثةٌ مِن ذَوي الحِجَا مِن قَومِه: لقد أصابَتْ فلانًا فاقةٌ، فحَلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قِوامًا مِن عَيشٍ– أو قال: سِدادًا مِن عيشٍ– فما سِواهُنَّ مِن المسألةِ يا قَبيصةُ، سُحتًا يأكُلُها صاحِبُها، سُحتًا)).[247]

حسَّنه الترمذي، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (1655)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تحقيق المسند)) (149/13)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (765).

(244) الحمالةُ: أن يُصلِحَ الرجلُ بَين قومٍ قد اقتَتَلوا، وسُفِكت بينهم دِمَاءٌ، وَيَحْتَمِلُ دِيَاتِ المقتولينَ؛ رغبةً في سكونِ الفِتنةِ.
يُنظر: ((كشف المُشكِل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (239/4).

(245) آفةٌ وحادِثةٌ أهلَكَت مالَه.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (512/2).

(246) القِوامُ والسِّدادُ: بمعنًى واحدٍ، وهو ما يُغني مِن الشَّيءِ، وما تُسَدُّ به الحاجةُ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (133/7).

(247) رواه مسلم (1044).

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ.

أي: وفي النَّفَقةِ لنُصرةِ دِينِ اللهِ، فيُعطَى المُجاهِدونَ مِن الزَّكاةِ ما يُعينُهم على قِتالِ الكُفَّارِ.(248)

وَابْنِ السَّبِيلِ.

أي: وللمُسافِرِ، المجتازِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ليس معه ما يستعينُ به على سفرِه، فيُعطَى مِن الزَّكاةِ ما يَستعينُ به على سَفَرِه.(249)

---

(248) قال الواحدي: (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ يعني: الغُزاةَ والمُرابِطينَ، عند عامَّةِ المفسِّرين).
((البسيط)) (515/10).
وقال ابن عاشور: (وسبيلُ اللهِ: الجهادُ، أي: يُصرَفُ من أموال الصَّدَقاتِ ما تُقامُ به وسائِلُ الجِهادِ؛ من آلاتٍ وحراسة في الثغور، كل ذلك برًّا وبحرًا...
الحقُّ أنَّ سبيل الله يشمَلُ شراءَ العُدَّةِ للجهاد من سلاحٍ، وخيلٍ، ومراكِبَ بحريةٍ، ونوتيةٍ، ومجانيقَ، وللحملانِ، ولبناءِ الحصون، وحَفْرِ الخنادق، وللجواسيسِ الذين يأتونَ بأخبارِ العدُوِّ).
((تفسير ابن عاشور)) (237/10، 240).
وذهب ابن تيمية وابن كثير إلى أنَّ الحَجَّ مِن سبيلِ اللهِ، فيدخُلُ في هذا السَّهمِ.
يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (274/28)، ((تفسير ابن كثير)) (169/4).
ومِن الفُقَهاءِ مَن أدخَلَ التفرُّغَ لِطَلَبِ العِلمِ في سبيلِ الله.
يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 341).
(249) قال الطحاوي: (هم الغائِبونَ عن أموالِهم، الذين لا يَصِلون إليها؛ لبُعدِ المسافة بينهم وبينها، حتى تلحَقَهم الحاجةُ إلى الصَّدَقة، فالصَّدَقةُ لهم حينئذٍ مُباحة، وهم في حكمِ الفُقَراء الذين لا أموالَ لهم، حتى يَصِلوا إلى أموالهم، وهذا ممَّا لا اختلافَ فيه بين أهلِ العِلمِ).
((أحكام القرآن)) (371/1).
وقال ابن عاشور: (وأمَّا ابنُ السبيلِ، فلم يُختَلَف في الغريبِ المحتاجِ في بلدِ غُربَتِه: أنَّه مُرادٌ، ولو وجَدَ مَن يُسلِفُه؛ إذ ليس يلزَمُه أن يُدخِلَ نَفسَه تحت مِنَّةٍ).
((تفسير ابن عاشور)) (240/10).

كما قال تعالى: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا [الإسراء: 26].

فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ.

أي: فرَضَ اللهُ هذه الصَّدَقاتِ فريضةً على الأغنياءِ في أموالِهم، وقَسَمَها بنَفسِه لأهلِ تلك الأصنافِ، المُستَحِقّينَ لها دونَ غيرِهم.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: واللهُ عليمٌ بمصالِحِ خَلْقِه، لا يخفى عليه شَيءٌ من ظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، حكيمٌ في قَولِه وفِعْلِه، وفي خَلْقِه وشَرْعِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ولا يَدخُلُ في تدبيرِه خَلَلٌ.

وقال الشنقيطي: (أجمع العُلَماءُ على أنَّ ابنَ السَّبيلِ إذا كان مُسافِرًا في معصيةٍ، لا يجوزُ أن يُعطى مِن الزكاةِ شَيئًا؛ لأنَّه إعانةٌ له على مَعصيته، واللهُ يقول: وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ [المائدة: آية 2] وإن كان سَفَرُه في قُربةٍ، فلا خلافَ في أنَّه يُعطى.
وإن كان في مُباحٍ فقد اختلف العُلَماءُ في ذلك، فقالوا: لا يُعطى؛ لأنَّ المُباحَ لا يَلزَم.
وقال بعضُ العلماء: يُعطى؛ لأنَّ السَّفَر المباحَ فيه جميعُ التَّسهيلاتِ التي في السَّفَر الواجِب، فالسَّفَرُ المباح تَقصُرُ فيه الصلاةُ، ويُفطِرُ فيه المُسافِر، ويُفعَلُ فيه كلُّ الترخُّصاتِ، فكذلك يعانُ صاحِبُه عليه).
((العذب النمير)) (597/5).

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (61–63)

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)

غريب الكلمات:

هُوَ أُذُنٌ: أي: يقبَلُ كُلَّ ما قيلَ له، ويسمعُ مِن كلِّ أحدٍ.

يُحَادِدِ: أَي: يُخَالِفْ ويحارِبْ ويُعادِ؛ يُقالُ: حادَّ فُلانٌ فُلانًا، أي: صار في حَدٍّ غَيرِ حَدِّه، وأصلُ (حدد): يدلُّ على طَرَفِ الشَّيءِ؛ وذلك لأنَّ المُحادَّ يكون فِي حَدٍّ، وَاللهُ ورَسولُه فِي حَدٍّ.

تفسير الآيات:

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61).

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ.

أي: ومِن المُنافِقينَ جماعةٌ يؤذونَ محمَّدًا – ﷺ –، ويَعيبونَه ويقولونَ عنه: هو أُذُنٌ سامعةٌ؛ فمن قال له شيئًا صَدَّقَه، ومن حدَّثَه فينا صدَّقَه، فإذا جِئْنا وحَلَفْنا له بالكَذِبِ مُعتَذرينَ عمَّا بلَغَه منا، صَدَّقَنا.[250]

---

(250) ذهب بعض المفسِّرينَ إلى أنَّ قولَه تعالى: هُوَ أُذُنٌ تفسيرٌ لِقَولِه: يُؤْذُونَ النَّبِيَّ.

وممَّن اختار هذا القولَ: الرازي.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (90/16).

وذهب بعضُهم إلى أنَّ يُؤْذُونَ لفظٌ يعمُّ جميعَ ما كانوا يفعلونَه ويقولونَه في جهةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الأذى، وخصَّ بعد ذلك مِن أذاهم: قَولَهم هُوَ أُذُنٌ.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطية.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (52/3).

قال ابن عطية: (رُوِيَ عن الحسن البصري ومجاهدٍ: أنَّهما تأوَّلا أنَّهم أرادوا بقولِهم: هُوَ أُذُنٌ أي: يسمَعُ منا معاذيرَنا وتنَصُّلَنا، ويقبَلُه، أي: فنحن لا نبالي مِن أذاه، ولا الوقوعِ فيه؛ إذ هو سمَّاعٌ لكُلِّ ما يقال من اعتذارٍ ونحوه، فهذا تنقُّصٌ بقلَّةِ الحَزامةِ، والانخداعِ، وروي عن ابن عبَّاسٍ وجماعةٍ معه: أنَّهم أرادوا بقولهم هُوَ أُذُنٌ أي: يسمَعُ كُلَّ ما يُنقَل إليه عنا، ويُصغي إليه ويَقبَلُه، فهذا تشَكٍّ منه، ووصْفٌ بأنَّه يَسوغُ عنده الأباطيلُ والنَّمائِمُ).

((تفسير ابن عطية)) (52/3).

وممن اختار قولَ الحسنِ ومجاهدٍ: القرطبيُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي (192/8)، ((تفسير السعدي)) (ص: 341)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (599/5).

قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُنافِقينَ: النبيُّ مُصغٍ للخَيرِ، لا مستمِعٌ للشَّرّ، وإن سَمِعَ ما يبلُغُه عنكم لم يؤاخِذْكم به؛ لِسَعةِ صَدرِه، ويسمَعُ مَعاذيرَكم، ويقبَلُها منكم؛ لِحُسنِ خُلُقِه.

يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ.

أي: والنبيُّ يؤمِنُ بالله تعالى وَحْدَه وبما أوحى إليه- ومِن ذلك ما أمَرَه به من العَفوِ عن النَّاسِ، وأمرِهم بالمعروفِ، والإعراضِ عن الجاهِلينَ مِنهم- وهو يُصدِّقُ المؤمنينَ فيما يُخبِرونَه به، لا أهْلَ النِّفاقِ والكُفرِ بالله تعالى.

وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ.

أي: والنَّبيُّ رحمةٌ للمُؤمِنينَ منكم، الصَّادقينَ في إيمانِهم؛ لأنَّه سبَبُ إيمانِهم وهِدايَتِهم إلى ما فيه سَعادتُهم في دنياهم وآخِرتِهم.

كما قال تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران: 159].

ومِمن اختار قول ابن عبَّاسٍ: ابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (241/10).

وقال سبحانه: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [التوبة: 128].

وقال عزَّ وجلَّ: وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 215].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان النبيُّ – ﷺ – يأتي ضُعَفاءَ المُسلِمينَ، ويَزورُهم، ويعودُ مَرضاهم، ويَشهَدُ جَنائِزَهم)).(251)

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((اللهمَّ إنَّما أنا بشَرٌ، فأيُّما رجُلٍ مِن المُسلِمينَ سَبَبتُه، أو لَعَنْتُه، أو جَلَدْتُه، فاجعَلْها له زكاةً ورحمةً)).(252)

وفي روايةٍ ((اللهُمَّ إنَّما محمَّدٌ بَشَرٌ، يغضَبُ كما يغضَبُ البشَرُ، وإنِّي قد اتَّخَذتُ عندك عهدًا لن تُخلِفَنيه؛ فأيُّما مُؤمِنٍ آذيتُه، أو سبَبتُه، أو جَلَدتُه، فاجعَلْها له كفَّارةً، وقُربةً تُقَرِّبُه بها إليك يومَ القيامةِ)).(253)

---

(251) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (11944)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (84/6) (5586)، والحاكم في ((المستدرك)) (3735)، ورواه الطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) بنحوه مختصرًا.

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (495/5)، والعيني في ((نخب الأفكار)) (335/7)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (4877).

(252) أخرجه مسلم (2601).

(253) أخرجه مسلم (2601).

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: والذين يُؤذون رَسولَ اللهِ مُحَمَّدًا - ﷺ - بأقوالِهم أو أفعالِهم؛ لهم عذابٌ مُوجِعٌ في الدُّنيا والآخرة.(254)

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا [الأحزاب: 57].

يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ (62).

يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ.

أي: يحلِفُ المُنافِقونَ باللهِ لكم كَذِبًا- أيُّها المؤمنونَ- فيتبَرَّؤونَ مِن أذاهم لِرَسولِ اللهِ - ﷺ -، ويؤكِّدونَ لكم أنَّهم على دِينِكم؛ يبتغونَ بذلك رِضاكم.

عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما حدَّثَه، قال: ((كان رسولُ اللهِ - ﷺ -، في ظِلِّ حُجرةٍ مِن حُجَرِه، وعنده نَفَرٌ من المُسلِمينَ، قد كاد يَقلِصُ(255) عنهم الظِّلُّ، قال: فقال: إنَّه سيأتيكم إنسانٌ ينظُرُ إليكم بعَينَي شَيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تُكَلِّموه، قال: فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعاه

(254) قال السعدي: (ومِن العَذابِ الأليمِ: أنَّه يتحتَّمُ قتلُ مُؤذِيه وشاتِمِه).
((تفسير السعدي)) (ص: 342).
(255) يَقلِصُ: أي: ينقَبِضُ.
يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني(181/2).

رسولُ اللهِ – ﷺ –، فكلَّمه، قال: علامَ تَشتِمُني أنت وفلانٌ وفلانٌ– نفَرٌ دَعاهم بأسمائِهم؟ قال: فذهَبَ الرَّجُلُ فدعاهم، فحَلَفوا باللهِ واعتَذَروا إليه، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ... الآية)).(256)

وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ.

أي: واللهُ ورسولُه أحقُّ بالإرضاءِ منكم– أيُّها المؤمِنونَ– إن كان هؤلاءِ المُنافِقونَ مُؤمنينَ باللهِ ورَسولِه حقًّا كما يدَّعونَ.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63).

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا.

أي: ألَم يعلَمِ المُنافقونَ أنَّه مَن يُخالِفِ اللهَ ورَسولَه، ويُعادِهما ويُحارِبْهما؛ فأنَّ له نارَ جهنَّمَ في الآخرةِ، ماكِثًا فيها أبدًا إلى غيرِ نِهايةٍ؟!

---

(256) أخرجه أحمد (2407)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (7/12) (12307)، والحاكم في ((المستدرك)) (3795)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (283/5).
صحَّح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (48/2)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (284/6)، وأحمد شاكر في ((التعليق على المسند)) (95/5)، وجوَّد إسناده الزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (432/3)، وابن كثير في ((التفسير)) (78/8).

ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ.

أي: دخولُ نارِ جهنَّمَ والخلودُ فيها، هو الهوانُ والذُّلُّ الكَبيرُ.

كما قال تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ [آل عمران: 192].

وقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [المجادلة: 5].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ [المجادلة: 20].

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (64–66)

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)

غريب الكلمات:

نَخُوضُ: أي: نَلهُو بالحديثِ، وأصلُ الخوضِ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، وتخاوَضُوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضُوا، وتداخَلَ كلامُهم، ويُستعملُ الخوضُ في كلِّ دخولٍ فيه تلويثٌ وأذًى، وأكثرُ ما وردَ الخوضُ في القرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصل (خوض): توسُّطُ شيءٍ، ودخولٌ.

مُجْرِمينَ: أي: مُذنبين أو كافِرينَ، والجُرمُ بِالضَّمِّ: لا يُطلقُ إِلَّا على الذَّنبِ الغليظِ، وأصل الجَرْم: القطعُ، والجَرْم: قطع الثَّمرةِ عن الشَّجرِ.

تفسير الآيات:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ (64).

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم.

أي: يَخشى المُنافِقونَ أن يُنزِّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في شأنِهم سُورةً تُخبِرُهم بما يُخفونَه في قُلوبِهم، مِن الكُفرِ والنِّفاقِ[257] فيَعلَم المؤمنونَ أسرارَهم.[258]

---

(257) قال القرطبي: (كان مِن المنافقينَ من يتردَّدُ، ولا يقطَعُ بتكذيبِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا بِصِدقِه. وكان فيهم من يَعرِفُ صِدقَه، ويُعانِدُ).
((تفسير القرطبي)) (196/8).
ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (247/10، 248).

(258) قال الزمخشري: (الضَّميرُ في عَلَيْهِمْ وتُنَبِّئُهُمْ للمؤمنينَ.
وفي قُلُوبِهِمْ: للمُنافقين، وصحَّ ذلك؛ لأنَّ المعنى يقودُ إليه.
ويجوز أن تكونَ الضَّمائرُ للمُنافقينَ؛ لأنَّ السورةَ إذا نزلت في معناهم، فهي نازلة عليهم).
((تفسير الزمخشري)) (286/2).
ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (248/10)، والثاني أولَى؛ لأنَّ القاعدةَ أنَّ الضمائرَ إذا تعاقبتْ فالأصلُ أن يتحدَ مرجعُها.
يُنظر ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (404/1).

قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ: استمِرُّوا على ما أنتم عليه مِن الاستهزاءِ؛ إنَّ اللهَ مُظهِرٌ للمُؤمنينَ- بما يُنزِّلُ من القُرآنِ- ما تخشَونَ ظُهورَه.(259)

كما قال تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ [محمد: 29-31].

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ (65).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قال رجلٌ في غزوةِ تَبوكَ في مجلسٍ يومًا: ما رأيتُ مِثلَ قُرَّائِنا هؤلاء، لا أرغَبَ بُطونًا، ولا أكذَبَ ألسِنةً، ولا أجبَنَ عند اللِّقاءِ! فقال رجلٌ في المجلِسِ:

(259) قال أبو حيان: (وفعَلَ ذلك تعالى في هذه السُّورةِ، فهي تُسمَّى الفاضحةَ؛ لأنَّها فضحَت المنافقينَ).
((تفسير أبي حيان)) (5/453).
ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (10/249)، ((تفسير ابن جرير)) (11/542)، ((تفسير السعدي)) (ص: 342).

كذَبْتَ، ولكنَّك مُنافِقٌ، لأُخبِرنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ –، فبلغ ذلك النبيَّ – ﷺ –، ونزل القرآنُ، قال عبدُ الله: فأنا رأيتُه مُتعلِّقًا بِحَقَبِ ناقةِ[260]

رَسولِ الله – ﷺ – تَنكُبُه الحِجارةُ،[261] وهو يقولُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما كنَّا نخوضُ ونَلعَبُ، ورسولُ الله – ﷺ – يقولُ: أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)).[262]

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ.

أي: ولَئِن سألتَ المُنافقينَ– يا مُحمَّدُ– عمَّا قالوه في خَلَواتِهم من الطَّعنِ في أصحابِك ودينِك، ليَقولُنَّ لك: إنَّما كنَّا ندخُلُ في الباطِلِ، ونلعَبُ بذلك الحديثِ، ولم نقصِدْ به الطَّعنَ في المسلمينَ والإسلامِ.

---

(260) الحَقَبُ: حَبلٌ يُشَدُّ به رحْلُ البَعيرِ إلى بطنِه؛ كي لا يتقَدَّمَ إلى كاهِلِه.
يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (143/1).
(261) تَنكُبُه الحِجارةُ: أي: تُميلُه.
يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 319).
(262) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (1830/6)، وابن جرير في ((تفسيره)) (544/11).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((تفسير ابن جرير)) (334/14)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (122): رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد؛ فلم يُخرج له مسلمٌ إلَّا في الشَّواهد، وله شاهد بسندٍ حسَنٍ.
وقال الشنقيطي: (نزلَتْ هذه الآيةُ في غزوةِ تَبوكَ، بإطباقِ المفسِّرينَ، في قومٍ استهزَؤوا باللهِ وآياتِه ورَسولِه).
((العذب النمير)) (614/5).

قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافقين: أباللهِ سُبحانه وآياتِ كِتابِه ورَسولِه مُحمَّدٍ، كنتُم تستخِفُّونَ وتَسخَرونَ؟! كيف تُقدِمونَ على إيقاعِ ذلك؟!

لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ (66).

لاَ تَعْتَذِرُواْ.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافقينَ: لا تَذكُروا أعذارًا؛ فإنَّها لن تنفَعَكم.

قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ.

أي: قد أظهرتُم الكفرَ باستهزائِكم بدينِ اللهِ بعدَ أن كنتُم تُظهِرونَ الإيمانَ.[263]

---

(263) وممَّن اختار هذا القول: الزجَّاج، والسمعانيُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشورٍ.
يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (2/459)، ((تفسير السمعاني)) (2/324)، ((تفسير أبي حيان)) (5/454)، ((تفسير الشوكاني)) (2/430)، ((تفسير القاسمي)) (5/449)، ((تفسير ابن عاشور)) (10/252).
قال ابن عاشور: (والمرادُ بإسنادِ الإيمانِ إليهم: إظهارُ الإيمانِ، وإلَّا فهم لم يُؤمِنوا إيمانًا صادقًا.
والمرادُ بإيمانهم: إظهارُهم الإيمانَ، لا وقوعُ حقيقتِه، وقد أنبأ عن ذلك إضافةُ الإيمانِ إلى ضَميرِهم دونَ تَعريفِ الإيمانِ باللامِ المفيدةِ للحَقيقةِ، أي بعد إيمانٍ هو مِن شَأنِكم، وهذا تعريضٌ بأنَّه الإيمانُ الصُّوريُّ غيرُ الحَقِّ، ونظيرُه قولُه تعالى الآتي: وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ [التوبة: 74] وهذا من لطائفِ القُرآنِ).
((تفسير ابن عاشور)) (10/252).

وقيل: المعنى: قد كفَرْتُم باستهزائِكم باللهِ وآياتِه ورسولِه، بعد أنْ كنتُم مُؤمنينَ.(264)

إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ.

أي: إن نعفُ عن جماعةٍ منكم لِتَوبتِهم الصَّادقةِ، نُعذِّبْ جماعةً أخرى منهم؛ بسببِ أنَّهم كانوا مُقيمين على كفرِهم، مُصِرّينَ على نفاقِهم، وطَعْنِهم في رَسولِ اللَّه صلَّى الله عليه وسَلَّم مِن غيرِ توبةٍ.

(264) وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (546/11)، ((مجموع الفتاوى)) (220/7، 272، 273).

قال ابن تيمية: (وقَولُ من يقول عن مِثل هذه الآياتِ: إنَّهم كفَروا بعد إيمانِهم بلسانِهم مع كُفرِهم أوَّلًا بقُلوبِهم، لا يصِحُّ؛ لأنَّ الإيمانَ باللِّسانِ مع كُفرِ القلبِ، قد قارنَه الكفرُ، فلا يقالُ: قد كفرْتُم بعد إيمانِكم؛ فإنَّهم لم يزالوا كافرينَ في نفسِ الأمرِ، وإن أُريدَ أنَّكم أظهَرْتم الكُفرَ بعد إظهارِكم الإيمانَ، فهم لم يُظهِروا للنَّاسِ إلَّا لخواصِّهم، وهم مع خواصِّهم ما زالوا هكذا؛ بل لَمَّا نافقوا وحَذِروا أن تُنزَّلَ سورةٌ تُبيِّنُ ما في قلوبِهم من النِّفاقِ وتكلَّموا بالاستهزاءِ، صاروا كافرينَ بعد إيمانِهم، ولا يدلُّ اللفظُ على أنَّهم ما زالوا مُنافقينَ...

فبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وآياتِه ورسولِه، كُفرٌ يَكفُرُ به صاحبُه بعد إيمانِه، فدلَّ على أنَّه كان عندهم إيمانٌ ضعيفٌ).

((مجموع الفتاوى)) (272/7-273).

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (67–70)

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ
أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ
(68) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ
فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)

غريب الكلمات:

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ: أي: يُمسِكونَها عن الصَّدَقةِ والخَيرِ، وأصلُ (قبض): يدلُّ على شيءٍ مأخوذٍ، وتجمُّعٍ في شَيءٍ.

بِخَلَاقِهِمْ: أي: بنَصيبِهم في الدُّنيا، والخَلاقُ: النَّصيبُ والحظُّ من الخَيرِ.

وَخُضْتُمْ: أي: دَخَلْتُم في الباطِلِ.

وَالْمُؤْتَفِكَاتِ: أي: مَدائِنِ قَومِ لُوطٍ؛ ائتَفَكَت بهم، أي: انقَلَبَت، وأصلُ (أفك): يدلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه.

تفسير الآيات:

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67).

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ.

أي: المُنافِقونَ والمُنافِقات، الذين يُظهِرونَ للمُسلِمينَ الإيمانَ بألسِنَتِهم، ويُبطِنونَ الكُفرَ في قلوبِهم؛ هم صِنفٌ واحدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم، وأخلاقِهم وأغراضِهم، وبعضُهم أولياءُ بعضٍ.

يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ.

أي: المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ يأمرونَ بما يُبغِضُه اللهُ ويُنكِرُه؛ من الكُفرِ والمعاصي، وينهونَ عن المعروفِ الذي يحِبُّه الله ويأمُرُ به؛ من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ.

أي: ويُمسِكُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ أيديَهم عن إخراجِ زكاةِ أموالِهم، وعن كلِّ ما وجَبَ عليهم من النَّفَقاتِ، ومن ذلك الإنفاقُ في الجِهادِ.[265]

---

(265) قال ابنُ تيمية: {وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} قال مجاهد: «يقبِضُونَها عن الإنفاقِ في سبيلِ الله».
وقال قتادة: «يقبضون أيديَهم عن كلِّ خيرٍ» فمجاهدٌ أشار إلى النَّفعِ بالمالِ، وقتادةُ أشار إلى النَّفعِ بالمالِ والبَدَنِ.
((اقتضاء الصراط المستقيم)) (1/106-107).

نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ.

أي: نَسِيَ المُنافِقونَ ذِكرَ اللهِ وتَركوا طاعَتَه، فتَرَكَ اللهُ هدايتَهم ورَحمَتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ.(266)

كما قال تعالى: وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [الجاثية: 34].

وقال سبحانه: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [الحشر: 19].

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ.

أي: إنَّ المُنافِقين هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، والإيمانِ به سُبحانَه.

وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (68).

---

(266) قال ابن القيم: (أي: تَركوا طاعةَ اللهِ والإيمانَ بما جاء به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَرَكهم اللهُ مِن رحمَتِه، وهذا لا خلافَ فيه، ولا يجهَلُه من له أقَلُّ علمٍ بتأويلِ القُرآنِ).

((الصلاة)) (ص: 77).

وقال القرطبي: (قال قتادة: فَنَسِيَهُمْ أي: من الخَيرِ، فأمَّا مِن الشَّرِّ، فلم ينْسَهم).

((تفسير القرطبي)) (8/199).

وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ وجميعَ الكُفَّارِ أنْ يُدخِلَهم نارَ جَهنَّمَ، ماكثِينَ فيها أبدًا.

هِيَ حَسْبُهُمْ.

أي: نارُ جهنَّمَ كافيةٌ لعقابِ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارِ؛ جزاءً على نفاقِهم وكُفرِهم.[267]

وَلَعَنَهُمُ اللهُ.

أي: وأبعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والكُفَّارَ، وطَرَدَهم مِن رَحمتِه.

كما قال تعالى: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ [الأحزاب: 60–61].

وقال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [الأحزاب: 64–65].

---

(267) قال الزجاج: (أي كفايةُ ذُنُوبِهِم، كما تقول: عذَّبْتُك حسبَ فِعْلِك، وحَسْبُ فُلانٍ ما نَزَل به، أي: ذلك على قَدْرِ فِعلِه).

((معاني القرآن وإعرابه)) (460/2).

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ.

أي: ولأهلِ النِّفاقِ والكُفرِ عذابٌ دائِمٌ لا ينقطِعُ.[268]

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69).

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا.

أي: فعَلْتُم - أيُّها المُنافِقونَ والكفَّارُ- كفعلِ الذين مِنْ قبلِكم، فسَينزِلُ بكم مِن العُقوباتِ مثلُ ما نَزَلَ بهم، وقد كانُوا أقوى منكم، وأكثرَ منكم أموالًا وأولادًا.[269]

---

(268) قال ابن تيمية: (قيل: إنَّ قولَه تعالى: وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ إشارةٌ إلى ما هو لازمٌ لهم في الدُّنيا والآخرة من الآلامِ النَّفسية: غَمًّا وحُزنًا، وقسوةً وظُلمة قلبٍ، وجهلًا؛ فإنَّ للكُفرِ والمعاصي من الآلامِ العاجلةِ الدَّائمة ما اللهُ به عليمٌ؛ ولهذا تجِدُ غالِبَ هؤلاء لا يُطَيِّبونَ عَيشَهم إلَّا بما يُزيلُ العَقلَ، ويُلهي القَلبَ؛ من تناوُلِ مُسكرٍ، أو رؤيةِ مُلْهٍ، أو سَماعِ مُطرِبٍ، ونحوِ ذلك).

((اقتضاء الصراط المستقيم)) (110/1).

وقال الألوسي: (قيل: إنَّ الأوَّلَ عذابُ الآخرةِ، وهذا عذابُ ما يقاسونَه في الدُّنيا؛ مِن التَّعَبِ، والخَوفِ من الفضيحةِ والقَتلِ، ونَحوِه).

((تفسير الألوسي)) (323/5).

(269) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (627/5).

وفي الآيةِ أوجهٌ أخرى.

قال ابنُ القيِّم: (اختُلِفَ في محلِّ هذه الكافِ وما يتعلَّقُ بها، فقيل: هو رفعٌ، خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: أنتم كالذين مِن قَبْلِكم.

وقيل: نصبٌ بفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: فعَلْتُم كفِعلِ الذين مِن قَبْلِكم، والتشبيهُ على هذين القَولينِ في أعمالِ الذين مِن قَبلُ.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [الروم: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [غافر: 21–22].

وقيل: إنَّ التَّشـــبيهَ في العذابِ، ثم قيل: العاملُ محذوفٌ، أي: لعَنَهم وعذَّبَهم كما لعنَ الذينَ مِن قَبلُ، وقيل: بل العامِلُ ما تقدَّمَ، أي: وعدَ الله المُنافِقينَ كوَعدِ الذين مِن قَبلِكم، ولعَنَهم كلَعْنِهم، ولهم عذابٌ مُقيمٌ كالعذابِ الذي لهم).

((إعلام الموقعين)) (104/1، 105).

ويُنظر: ((تفسـير الرازي)) (98/16)، ((اقتضـاء الصـراط المسـتقيم)) لابن تيمية (112/1، 114)، ((تفسـير الشـوكاني)) (432/2، 433).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وإذا عرَفْتَ أنَّ مِن النَّاسِ مَن يجعَلُ التَّشبيهَ في العمل، ومنهم من يجعَلُ التَّشبيهَ في العذابِ، فالقولان متلازِمانِ؛ إذ المُشابهَةُ في الموجِبِ تقتضي المُشابهَةَ في الموجَبِ، وبالعكسِ، فلا خلاف معنويٌّ بين القولين.

وكذلك ما ذكرناه من اختلافِ النَّحويين في وجوبٍ في الحذفِ وعَدَمِه، إنما هو اختلافٌ في تعليلاتٍ ومآخِذَ، لا تقتضي اختلافًا لا في إعرابٍ، ولا في معنًى؛ فإذن: الأحسَنُ أن تتعلَّق الكافُ بمجموعِ ما تقدَّمَ: مِن العَمَل والجزاء، فيكونُ التَّشبيهُ فيهما لفظًا. وعلى القولينِ الأوَّلَينِ: يكون قد دلَّ على أحَدِهما لفظًا، وعلى الآخَرِ لُزومًا).

((اقتضاء الصراط المستقيم)) (113/1).

وقيل: المعنى: أبالله وآياتِ كِتابِه ورَسولِه كنتُم تستهزئونَ كالذينَ مِن قَبْلِكم، من الأمَمِ الذين فَعَلوا فِعْلَكم، فأهلَكَهم اللهُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (550/11).

فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ.

أي: فتمتَّع كُفَّارُ الأمَمِ الماضيةِ بنَصيبِهم المقدَّرِ لهم من الدُّنيا وشَهَواتِها، مُؤثِرينَ له على نَعيمِ الآخرةِ، فتمتَّعتُم- أيُّها المُنافِقونَ والكفَّارُ- بنَصيبِكم من شَهَواتِ الدُّنيا، وأعرَضْتُم عن الآخِرةِ كذلك، كما تمتَّعَ الكُفَّارُ الذين مِن قَبلِكم بنَصِيبِهم.

وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ.

أي: وخضتُم- أيُّها المُنافِقونَ والكُفَّارُ- في الكُفرِ والكَذِبِ، والباطِلِ والشُّبُهاتِ، والاستهزاءِ باللهِ وآياتِه ورَسولِه؛ مثلَ الخَوضِ الذي خاضَتْه الأمَمُ قَبلَكم.(270)

أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

أي: أولئك الذين تمتَّعوا بشَهَواتِ الدُّنيا، وخاضوا في الباطِلِ؛ بطَلَت أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يَقبَلُها اللهُ تعالى منهم، ولا يُثيبُهم عليها.(271)

---

(270) قال ابن عاشور: (فأنتم وهم سَواءٌ، فيُوشِكُ أن يحيقَ بكم ما حاق بهم).

((تفسير ابن عاشور)) (259/10).

(271) وحبوطُ الأعمالِ معناه: ذهابُها، وعدمُ الاستفادةِ منها، فأمَّا في الآخرةِ فظاهِرٌ، وأمَّا في الدنيا فحبوطُها ألَّا تُقبلَ منهم، فهم لا ينتفعونَ بها، ولا يستفيدون منها، فصاروا كأنَّهم لم يعملوها.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (424/1) ((تفسير ابن عثيمين – سورة آل عمران)) (142/1).

وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (332/2).

وقال ابنُ عطية: (قَولُه في الدُّنْيَا معناه: إذا كان في المُنافِقينَ ما يُصيبُهم في الدُّنيا مِن المَقْتِ مِن المؤمنينَ، وفسادِ أعمالِهم عليهم، وفي الآخرةِ بألَّا تنفعَ، ولا يقعَ عليها جزاءٌ).

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

أي: وأولئك هم المَغبونونَ بِحرمانِ الخَيرِ العاجِلِ والآجِلِ، وحُصولِ العِقابِ في الدُّنيا والآخرةِ.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70).

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.

أي: ألَمْ يَسمَعِ المُنافِقونَ والكُفَّارُ خَبَرَ إهلاكِنا الأمَمَ الكافِرةَ الماضيةَ؟!

ثمَّ بيَّن جلَّ ثناؤُه مَنْ أولئك الأممُ، فقال:

((تفسير ابن عطية)) (57/3).

وقال ابنُ عاشـــور: (المرادُ بأعمالهم: ما كانوا يَعمَلونَه، ويَكدَحونَ فيه: مِن معالجةِ الأموالِ والعِيالِ، والانكبابِ عليهما، ومعنى حَبَطِها في الدُّنيا: استئصالُها، وإتلافُها بحلولِ مُختَلِفِ العذابِ بأولئك الأمَمِ، وفي الآخرةِ: بعَدَمِ تعويضِها لهم).

((تفسير ابن عاشور)) (10/259-260).

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ.

أي: قَومِ نُوحٍ، وعادٍ– قَومِ هُودٍ– وثمودَ– قَومِ صالِحٍ– وقَومِ إبراهيمَ، وأهلِ مَدينَ– قَومِ شُعيبٍ– وأهلِ قُرى قَومِ لوطٍ، التي انقلَبَت بهم فصار أعلاها أسفلَها؟!

أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: جاءَت تلك الأممَ رسُلُ اللهِ بالمُعجِزاتِ الواضِحاتِ، فكذَّبوا الرُّسُلَ، فأهلكَهم اللهُ.(272)

كما قال تعالى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ [إبراهيم: 9].

وقال تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ [ق: 12 – 14].

فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أي: فما كان اللهُ ليظلِمَ تلك الأممَ المكَذِّبةَ، بإهلاكِهم قبلَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولكِن كانوا يظلِمونَ أنفُسَهم، بالكُفرِ باللهِ وعِصيانِه، وتكذيبِ رُسُلِه، فاستحَقُّوا عِقابَه.

(272) ذكر ابنُ عطية (٤/٣٦٠) أنّ الضمير في قوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ يحتمل أن يعود على الأمم المذكورة، أو على المُؤْتَفِكاتِ خاصَّة، ورجَّح الأول، فقال: «والتأويل الأول في عَوْدِ الضمير على جميع الأمم أبين».
ولم يذكر مستندًا.

كما قال سُبحانه: ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ [الأنعام: 131].

وقال تبارك وتعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ [القصص: 59].

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (71–72)

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)

غريب الكلمات:

عَدْنٍ: أي: إِقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يبْرَح منه، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ.

تفسير الآيتين:

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71).

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ.

أي: وأمَّا المؤمِنونَ والمؤمناتُ فبَعضُهم أنصارُ بعضٍ، متحابُّونَ في اللهِ، مُتعاطِفونَ، غيرُ مُتفَرِّقينَ.

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يشُدُّ بعضُه بعضًا)).[273]

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((مثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثَلُ الجسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)).[274]

ثمَّ بيَّن أوصافَهم الحميدةَ، كما بيَّن أوصافَ مَن قبلَهم مِن المنافقينَ، فقال:

---

(273) رواه البخاري (2446) ومسلم (2585).

(274) رواه مسلم (2586).

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ.

أي: المؤمنونَ والمؤمِناتُ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ خَيرٍ يُحِبُّه اللهُ، مِن الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ، ويَنهونَهم عن كلِّ شَرٍّ يُبغِضُه اللهُ، مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي.

كما قال تعالى: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [آل عمران: 104].

وقال سبحانه: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [التوبة: 112].

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ.

أي: ويؤدُّونَ الصَّلواتِ المفروضةَ بِشُروطِها وأركانِها وواجباتِها، ويُعطونَ زكاةَ أموالِهم لِمُستحِقِّيها.(275)

---

(275) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (556/11)، ((تفسير القرطبي)) (203/8)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (468/10).

اختيارُ ابنِ جرير أنَّ المرادَ الصَّلاةُ المفروضةُ والزكاةُ المفروضةُ.

ونقَل عن ابنِ عباسٍ في قولِه تعالى: وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ أنَّها الصلواتُ الخمسُ.

((تفسير ابن جرير)) (557/11).

قال القرطبيُّ- بعدَ ذكرِ قولِ ابنِ عبَّاسٍ السابقِ- قال: (وبِحسبِ هذا تكونُ الزكاةُ هنا المفروضةَ).

((تفسير القرطبي)) (203/8).

وذهب ابنُ عطيَّةَ إلى أنَّ المدحَ بالنوافلِ أبلغُ، قال: (إذ مَن يقيمُ النَّوافِلَ أحرى بإقامةِ الفَرضِ).

((تفسير ابن عطية)) (58/3).

وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ.

أي: ويُلازِمونَ طاعةَ اللهِ تعالى فيما أمَرَهم به أو نَهاهم عنه، ويُلازِمونَ طاعةَ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما أمَرَهم به، أو نَهاهم عنه.

أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ.

أي: هؤلاءِ الذينَ هذه صفتُهم سيرحَمُهم اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ.

إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو عزَّةٍ، فمن أطاعه أعَزَّه، ومن عَصاه وكفَرَ به فإنَّه ينتقِمُ منه، لا يمنَعُه منه مانِعٌ، ولا ينصُرُه منه ناصِرٌ، فهو قَوِيٌّ قاهِرٌ، حكيمٌ في انتقامِه منهم، وفي جميعِ ما يفعَلُه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به.

وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72).

واختار محمد رشيد رضا أنَّ المرادَ الفرائضُ والنوافلُ، فقال: (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ أي: يؤدُّونَ الصلاةَ المفروضةَ، وما شاؤوا من التطوُّعِ، على أقومِ وجهٍ وأكملِه في شروطِها وأركانِها وآدابِها، ولا سيَّما الخشوعُ لله تعالى، وكثرةُ ذِكْرِه فيها، وما يُوجِبُه الإيمانُ من حضورِ القَلبِ في مُناجاتِه، ويُعطونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم لِمَن فُرِضَت لهم في الآيةِ الستين من هذه السورة، وما وُفِّقوا له من التطوُّعِ).

((تفسير المنار)) (10/468).

وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: وعَدَ اللهُ المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ بَساتينَ تجري من تحتِ أشجارِها أنهارُ الجنَّةِ، ماكثينَ فيها أبدًا.(276)

كما قال سبحانه: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا [النساء: 57].

وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ.

أي: ووعَد اللهُ المؤمنينَ والمؤمِناتِ أن يُسْكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عَيبَ فيها،(277) مبنيَّةً في بساتينِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرَجونَ منها.

---

(276) قال الرازي: (قولُه: جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا والأقرَبُ أن يقال: إنه تعالى أراد بها البساتينَ التي يتناولُها المناظِرُ؛ لأنه تعالى قال بعده: وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ والمعطوفُ يجب أن يكون مُغايرًا للمعطوفِ عليه، فتكون مساكِنُهم في جنَّاتِ عَدْنٍ، ومناظِرُهم الجنَّات التي هي البَساتينُ، فتكون فائدةُ وصفِها بأنَّها عَدنٌ، أنَّها تجري مجرى الدَّارِ التي يسكُنُها الإنسانُ، وأمَّا الجنَّات الآخِرةُ فهي جاريةٌ مجرى البساتينِ التي قد يذهبُ الإنسانُ إليها؛ لأجل التنزُّه، وملاقاةِ الأحباب).

((تفسير الرازي)) (101/16).

(277) قال ابن كثير: (حَسَنةُ البِناءِ، طَيِّبةُ القَرارِ).

((تفسير ابن كثير)) (175/4).

وقال السعدي: (قد زُخرِفَت وحُسِّنَت وأُعِدَّت لعبادِ الله المتَّقين، قد طاب مرآها، وطاب مَنزلُها ومَقيلُها، وجَمَعَت من آلاتِ المساكِنِ العالية ما لا يتمنَّى فوقَه المتمنُّون، حتى إنَّ اللهَ تعالى قد أعدَّ لهم غُرفًا في غايةِ الصَّفاءِ والحُسنِ، يُرى ظاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظاهِرِها).

((تفسير السعدي)) (ص: 344).

وقال ابن عاشور: (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً، أي: ليس فيها شيءٌ من خَبَثِ المساكِنِ، من الأوساخِ وآثارِ علاجِ الطَّبخِ ونحوه، نظيرُ قولِه: وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ [البقرة: 25]).

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ - ﷺ - قال: ((جنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنيَتُهما وما فيهما، وجنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وما فيهما، وما بين القَومِ وبين أن ينظُروا إلى ربِّهم إلَّا رِداءُ الكِبرِ على وَجهِه، في جنَّةِ عَدْنٍ)).[278]

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((إنَّ للمُؤمِنِ في الجنَّةِ لَخَيمةً مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفةٍ، طُولها سِتُّون مِيلًا، للمُؤمِنِ فيها أهلُونَ، يطوفُ عليهم المؤمِنُ، فلا يرى بعضُهم بعضًا)).[279]

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ.

أي: ورضا الله تعالى عن المؤمِنينَ والمؤمناتِ أعظمُ وأفضَلُ ممَّا هم فيه مِن نَعيمِ الجنَّةِ.

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيك ربنا وسَعدَيك، والخَيرُ في يَدَيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا رَبِّ، وقد أعطَيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ من ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا)).[280]

((تفسير ابن عاشور)) (10/264).

(278) رواه البخاري (7444)، ومسلم (180).

(279) رواه البخاري (3243) ومسلم (2838)، واللفظ له.

(280) رواه البخاري (7518)، ومسلم (2829).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: هل تَشتَهونَ شَيئًا فأزيدَكم؟ فيقولونَ: ربَّنا، وما فوقَ ما أعطيتَنا؟! يقول: رِضواني أكبَرُ)).(281)

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

أي: ما وعدَ اللهُ تعالى به المؤمنينَ والمُؤمِناتِ مِن النَّعيمِ والرِّضوانِ في الآخرةِ، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَر الكبيرُ الذي لا أكبَرَ ولا أعظَمَ منه.

كما قال تعالى: قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [المائدة: 119].

وقال عزَّ وجلَّ: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [الحديد: 12].

---

(281) أخرجه ابن حبان (7439)، والطبراني في ((الأوسط)) (9025)، والحاكم في ((المستدرك)) (276).
قال ابنُ كثيرٍ في ((البداية والنهاية)) (2/298): على شرطِ البخاري، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (524).

وقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [البينة: 7–8].

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (73–74)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ **(73)**
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا
نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ
عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ **(74)**

غريب الكلمات:

وَاغْلُظْ: أي: اشْدُدْ، وأصلُ (غلظ): يدلُّ على ضِدِّ الرِّقَّةِ.

ومَأْوَاهُمُ: أي: ومصيرُهم، ومثواهم ومقامُهم، ومسكنُهم ومكثُهم، أو مرجعُهم الذي يَعُودون إليه، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومرجعُه الَّذي يعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْلُه: التَّجمُّع.

نَقَمُوا: أي: كَرِهوا وأنكَروا، وأصلُ (نقم): يدلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيبِه.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ.

أي: يا أيُّها النبيُّ جاهدِ الكُفَّارَ المُحاربينَ، بالسِّلاحِ، وجاهِدْ غيرَ المحاربينَ مِنهم بالحُجَّةِ، وجاهِدِ المنافقينَ بالسِّلاحِ إنْ أظهَروا نفاقَهم، وبالحُجَّةِ لِرَدِّ شُبُهاتِهم، وبإقامةِ الحُدودِ على من يقَعُ فيها منهم.(282)

كما قال تعالى: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ [البقرة: 193].

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ [الأنفال: 65].

---

(282) قال القرطبي: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتدخُلُ فيه أمَّتُه مِن بَعدِه).
((تفسير القرطبي)) (204/8).
وقال محمد رشيد رضا: (اتَّفق علماءُ المِلَّةِ على أنَّ المُنافقين يُعامَلونَ بأحكامِ الشَّريعةِ كالمُسلمين الصَّادقين، فلا يُقاتَلون إلَّا إذا أظهروا الكُفرَ البَواحَ بالرِّدَّةِ، أو بَغوا على جماعةِ المُسلِمين بالقوَّةِ، أو امتنَعَ بعضُ طوائفِهم من إقامةِ شَعائرِ الإسلامِ وأركانِه).
((تفسير المنار)) (473/10، 474).
وقال الرازي: (الجهادُ عبارةٌ عن بذلِ الجُهد، وليس في اللَّفظِ ما يدلُّ على أنَّ ذلك الجهادَ بالسَّيف أو باللِّسانِ أو بطريقٍ آخَرَ، فنقول: إنَّ الآيةَ تدُلُّ على وجوبِ الجهادِ مع الفريقين، فأمَّا كيفيَّةُ تلك المجاهدةِ فلفظُ الآيةِ لا يدلُّ عليها، بل إنما يُعرَفُ من دليلٍ آخَرَ، وإذا ثبت هذا فنقولُ: دلَّت الدَّلائلُ المنفصلةُ على أنَّ المجاهدةَ مع الكفَّارِ يجب أن تكونَ بالسَّيفِ، ومع المنافقينَ بإظهارِ الحجَّةِ تارةً، وبتَركِ الرِّفقِ ثانيًا، وبالانتهارِ ثالثًا).
((تفسير الرازي)) (103/16).

وقال عز وجل: فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا [الفرقان: 52].

وقال تبارك وتعالى: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا [الأحزاب: 60–61].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نبيٍّ بعَثَه اللهُ في أمَّةٍ قبلي إلَّا كان له مِن أمَّتِه حواريُّونَ[283] وأصحابٌ، يأخُذون بسُنَّتِه، ويقتَدون بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بعدِهم خُلوفٌ،[284] يقولونَ ما لا يَفعلونَ، ويَفعلونَ ما لا يُؤمَرون، فمن جاهَدَهم بيَدِه فهو مؤمِنٌ، ومن جاهَدَهم بلسانِه فهو مؤمِنٌ، ومن جاهَدَهم بقَلبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ حَبَّةُ خَردلٍ)).[285]

---

(283) الحواريُّونَ: الخواصُّ الأصفياءُ.

وَقِيل: هم النَّاصِرونَ.

يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (1/320).

(284) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعد السَّالِفينَ.

يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (1/320).

قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خلْف» بإسكانِ اللامِ، وهوالخالفُ بشرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللامِ فهو الخالفُ بخيرٍ، هذا هو الأشهرُ) ((شرح النووي على مسلم)) (2/28).

(285) رواه مسلم (50).

وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ.

أي: واشدُدْ- يا مُحمَّدُ- بالقَولِ والفِعلِ على الكفَّارِ والمُنافِقينَ.[286]

كما قال تعالى: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ

[محمد:4].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ يهوديًّا رضَّ[287] رأسَ جاريةٍ بين حَجَرينِ، فقيل لها: مَن فعلَ بك هذا؟ أفلانٌ أو فلانٌ، حتى سُمِّيَ اليهوديُّ، فأُتِيَ به النبيَّ - ﷺ -، فلم يزَلْ به حتى أقَرَّ به، فرَضَّ رأسَه بالحِجارةِ)).[288]

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَدِمَ على النبيِّ - ﷺ - نفَرٌ مِن عُكْلٍ، فأسلَموا، فاجتَوَوُا المدينةَ،[289] فأمَرَهم أن يأتوا إبِلَ الصَّدَقةِ، فيَشرَبوا مِن أبوالِها وألبانِها، ففَعَلوا فصَحُّوا، فارتَدُّوا

---

(286) قال محمد رشيد رضا: (الغِلظةُ في اللغة: الخُشونةُ والشِّدَّةُ، ومعاملةُ العدُوِّ المحارِب بهما، مِن وَضعِ الشَّيءِ في موضِعِه، ومعامَلتُه باللِّينِ والرَّحمةِ وضعٌ لهما في غيرِ مَوضِعِهما).

((تفسير المنار)) (474/10).

(287) الرَّضُّ: الكَسرُ والدَّقُّ.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (195/4).

(288) رواه البخاري (6876) واللفظ له، ومسلم (1672).

(289) اجتَوَوا المَدينةَ: كَرِهوا المُقامَ بها؛ لِضَجَرٍ ونَوعٍ مِن سَقَمٍ.

وأصلُه مِن الجوى، وهو داءٌ يُصيبُ الجوفَ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (131/2).

وقَتَلوا رُعاتَها، واسْتاقُوا الإبِلَ، فبعَثَ في آثارِهم، فأُتِيَ بهم، فقطَعَ أيديَهم وأرجُلَهم، وسَمَلَ أعيُنَهم،[290] ثمَّ لم يَحسِمْهم[291] حتى ماتوا)).[292]

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أي: ومَقَرُّ الكفَّارِ والمُنافِقينَ في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ لا يَخرُجونَ منها، وبِئسَ المكانُ الذي صاروا إليه.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا [النساء: 140].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا [الفرقان: 66].

يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (74).

---

(290) سَمَلَ أعيُنَهم: أي: فقَأَها وأذهَبَ ما فيها.
يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (23/285).

(291) ولم يَحسِمْهم: أي: ولم يَكْوِهم.
والحسم: كَيُّ العِرقِ بالنَّارِ؛ لينقَطِعَ الدَّمُ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (11/156).

(292) رواه البخاري (6802) واللفظ له، ومسلم (1671).

يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ.

أي: يحلِفُ المنافِقونَ بالله كَذِبًا على أنَّهم لم يتفوَّهوا بكَلِمةِ الكُفرِ، كسَبِّ النبيِّ، والطَّعنِ في الدِّينِ، ولقَدْ نطَقوا بكلمةِ الكُفرِ التي يُنكِرون قَولَها.

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ - ﷺ - في ظِلِّ حُجرةٍ مِن حُجَرِه وعنده نفَرٌ من المسلمين، قد كاد يَقلِصُ عنهم الظِّلُّ، فقال: إنَّه سيأتيكم إنسانٌ ينظُرُ إليكم بِعَينَي شَيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تكَلِّموه، فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعاه رسولُ الله - ﷺ -، فكلَّمَه، قال: علامَ تَشتِمني أنت وفلانٌ وفلانٌ- نفَرٌ دعاهم بأسمائِهم- قال: فذهَبَ الرَّجُلُ فدعاهم فحلَفوا بالله واعتَذَروا إليه، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ [المجادلة: 18])).(293)

وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ.

أي: وأظهَرَ المُنافِقونَ كُفرَهم بما قالوه من الكُفرِ، بعد أن كانوا يُظهِرونَ الإسلامَ.(294)

---

(293) أخرجه أحمد (2407) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (7/12) (12307)، والحاكم (3795) صححه الحاكم وقال: على شرط مسلم، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (545/1)، وصحح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (48/2)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (284/6)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (95/5)

(294) قال ابن تيمية: (هذا الإسلامُ قد يكونُ مِن جِنسِ إسلامِ الأعرابِ، فيكونُ قَولُه: بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ وبَعْدَ إِسْلَامِهِمْ سواءً، وقد يكونون ما زالوا مُنافِقينَ، فلم يكنْ لهم حالٌ كان معهم فيها من الإيمانِ شَيءٌ؛ لِكَونِهم أظهَروا الكُفرَ والرِّدَّةَ؛ ولهذا دعاهم إلى التوبةِ، فقال: فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا...).

((مجموع الفتاوى)) (7/272-273).

وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ.

أي: وهمَّ المُنافِقونَ أن يفعلوا من الشَّرِّ والفَتْكِ برَسولِ الله – ﷺ – حين رجَعَ مِن غزوةِ تبوك، ما لم يستطيعوا الوصولَ إليه؛ إذ عصَمَه اللهُ تعالى منهم.(295)

وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ.

أي: والحالُ أنَّ المُنافِقينَ ما عابُوا وما أنكَرُوا إلَّا ما هو جديرٌ حقًّا بالمَدحِ والشُّكرِ والثَّناءِ، وهو إغناءُ اللهِ لهم مِن فَضلِه بسببِ رَسولِه، وبركةِ رسالَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد أن كانوا فُقَراءَ!(296)

عن عبدِ اللهِ بنِ زَيدِ بنِ عاصمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا أفاء اللهُ على رسولِه – ﷺ – يومَ حُنَينٍ، قسَمَ في النَّاسِ؛ في المؤلَّفةِ قُلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا، فكأنَّهم وجَدوا إذ لم يُصِبْهم ما أصابَ

وقيل: والمرادُ بإسنادِ الإسلامِ إليهم: إظهارُ الإسلام، لا وقوعُ حَقيقَتِه، فهم لم يُسلموا إسلامًا صادِقًا.
وقد أنبأ عَن ذلك إضافةُ الْإِسلامِ إلى ضميرِهم دونَ تعريفِ الإسلامِ باللَّامِ المفيدةِ للحقيقةِ، أي بعدَ إسلامٍ هو مِن شأنِكم، وهذا تعريضٌ بأنَّه الإسلام الصُّوريُّ غيرُ الحقِّ ونظيرُه قولُه تعالى: قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ [التوبة: 66] وهذا مِن لطائفِ القرآن.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (252/10).

(295) قال ابن تيمية: (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وهو يدلُّ على أنَّهم سَعَوا في ذلك فلم يَصِلوا إلى مَقصودِهم؛ فإنَّه لم يقُل: هَمُّوا بما لم يفعَلوا، لكِنْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا فصدَرَ منهم قولٌ وفِعلٌ).
((مجموع الفتاوى)) (273/7).

(296) قال ابن عاشور: (إنَّما أغناهم اللهُ ورسولُه بما جلَبَه حلولُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بينهم من أسبابِ الرِّزقِ، بكثرةِ عَمَلِ المهاجرينَ، وبوَفرةِ الغنائِمِ في الغَزَوات، وبالأمنِ الذي أدخَلَه الإسلامُ فيهم؛ إذ جعل المؤمنينَ إخوةً، فانتفَتِ الضَّغائِنُ بينهم والثَّارات، وقد كان الأوسُ والخزرجُ قبل الإسلامِ أعداءً، وكانت بينهم حروبٌ تفانوا فيها قُبَيلَ الهجرة، وهي حُروبُ بُعاثٍ.
والفَضلُ: الزِّيادةُ في البَذلِ والسَّخاء).
((تفسير ابن عاشور)) (270/10).

النَّاس، فخَطَبَهم فقال: يا معشَرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكُنتُم متفرِّقِينَ فألَّفَكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟!)).[297]

فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ.

أي: فإن يتُبِ المُنافِقونَ مِن نِفاقِهم وكُفرِهم، يكُنْ رُجوعُهم إلى الحَقِّ خَيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم.

كما قال تعالى: فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ [محمد: 21].

وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

أي: وإن يُعرِضِ المُنافِقونَ عن الإيمانِ والتَّوبةِ، ويستَمِرُّوا على النِّفاقِ؛ يعذِّبْهم اللهُ عذابًا مُؤلِمًا في الدُّنيا- بالهَمِّ والحُزنِ والخِزيِ، وبالقَتلِ إن أظهَروا نِفاقَهم- ويُعَذِّبْهم في الآخرةِ بعذابِ النَّارِ.

وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ.

أي: وما للمُنافِقينَ في الأرضِ كُلِّها أيُّ وليٍّ يتولَّاهم، ويُحصِّلُ لهم الخيرَ، ولا أيُّ نَصيرٍ ينصُرُهم ويدفَعُ عنهم الشَّرَّ.

(297) رواه البخاري (4330) واللفظ له، ومسلم (1061).

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (75–78)

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا
آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ
يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78)

غريب الكلمات:

فَأَعْقَبَهُمْ: أي: أورثَهم، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه.

وَنَجْوَاهُمْ: أي: حَديثَهم بينهم، وأصلُ (نجو): يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ.

تفسير الآيات:

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75).

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ.

أي: ومِن المُنافِقينَ من أعطى اللهَ عَهدًا بقَولِه: واللهِ لَئِن رَزَقَنا اللهُ مِن فَضلِه، لنُخرِجَنَّ الصَّدَقةَ ممَّا أعطانا.[298]

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ.

أي: ولَنكونَنَّ- إن بسَطَ اللهُ علينا الرِّزقَ- من جملةِ الصَّالحينَ الذين يؤدُّونَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ عبادِه.

فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76).

فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ.

---

(298) قال الشوكاني: (ومعنى: لَنَصَّدَّقَنَّ لَنُخرِجُ الصَّدقةَ، وهي أعَمُّ من المفروضةِ وغيرِها).

((تفسير الشوكاني)) (438/2).

ما ورد في أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ هو سببُ نزولِ هذه الآياتِ، لا يصحُّ؛ ضعَّفه ابنُ حزم في ((المحلى)) (207/11)، والقرطبي في ((تفسيره)) (306/10)، والذهبي في ((تجريد أسماء الصحابة)) (66/1)، وأحمد شاكر في تحقيق ((تفسير الطبري)) (371/14)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (1607)، وضعَّف إسنادَه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (290/5)، والزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (85/2)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (334/3)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (34/7)، وابن حجر في ((الكافي الشاف)) (132)، والسيوطي في ((لباب النقول)) (157).

أي: فلمَّا رزَقَهم اللهُ وأعطاهم مِن فَضلِه بَخِلوا بما آتاهم، فلم يُنْفِقوا منه في حقِّ الله، ولم يتصدَّقوا بشيءٍ منه، كما حلَفوا.

وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ.

أي: وأدبَرُوا عن طاعةِ اللهِ تعالى والوفاءِ بِعَهدِه، مُعرِضينَ ومُنصَرفينَ عن ذلك.(299)

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ (77).

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ.

---

(299) قال القرطبي: (وَهُمْ مُعْرِضُونَ أي: عن الإسلامِ، أي: مُظهِرونَ للإعراضِ عنه).
((تفسير القرطبي)) (212/8).
وقال النسفي: (وَهُمْ مُعْرِضُونَ مُصِرُّونَ على الإعراض).
((تفسير النسفي)) (696/1).
وقال الشوكاني: (وَتَوَلَّوْا أي: أعرَضوا عن طاعةِ الله، وإخراجِ صَدَقاتِ ما أعطاهم اللهُ مِن فَضلِه، والحالُ أنَّهم مُعرِضونَ في جميعِ الأوقات، قبل أن يُعطِيَهم اللهُ ما أعطاهم من الرِّزقِ وبعدَه).
((تفسير الشوكاني)) (438/2).
وقال محمد رشيد رضا: (ولم يكن تولِّيهم هذا أمرًا عارضًا شَغَلَهم عنه شاغِلٌ يزولُ بزوالِه، بل تولَّوا وهم مُعرِضونَ بكُلِّ قواهم، عن الصَّدقةِ والعمَلِ الصَّالح، فكان الإعراضُ صِفةً راسخةً فيهم، حاكمةً عليهم، بحيث إذا ذُكِّروا بما يجِبُ عليهم، لا يذكُرونَ، وإذا دُعُوا إليه لا يستجيبونَ).
((تفسير المنار)) (482/10).

أي: فجعل اللهُ عاقبةَ أمرِهم نِفاقًا كائنًا في قلوبِهم، متمكِّنًا منها، مستمرًّا فيها إلى يومِ يلقون الله تعالى، بموتِهم، وخروجِهم مِن الدُّنيا.

بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ.

أي: فجعل اللهُ في قلوبِهم النِّفاقَ، وحَرَمَهم التوبةَ منه؛ بسبَبِ إخلافِهم ما عاهدوا اللهَ عليه، مِن الصَّدَقةِ والصَّلاحِ؛ ولأنَّهم كانوا يَكذِبونَ في كلامِهم وعهدِهم.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤتُمِنَ خان)).[300]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ مِن النِّفاقِ حتى يدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَب، وإذا عاهَدَ غدَر، وإذا خاصَمَ فَجَر)).[301]

أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (78).

أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ.

---

(300) رواه البخاري (33)، ومسلم (59).
(301) رواه البخاري (34) واللفظ له، ومسلم (58).

أي: ألم يعلَمِ المُنافِقونَ الذين يُبطِنونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، أنَّ اللهَ يعلَمُ ما يُخفونَه مِن الكُفرِ والنِّفاقِ، ويَعلَمُ ما يتناجَونَ به فيما بينهم مِن الطَّعنِ في الإسلامِ والمُسلِمينَ، وسيُجازيهم على أعمالِهم؟!

وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

أي: ألم يعلَمِ المُنافِقونَ أنَّ اللهَ يعلَمُ جَميعَ ما غاب عن حواسِّ خَلْقِه، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن المغيَّباتِ؟!

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (79–80)

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80)

غريب الكلمات:

جُهْدَهُمْ: أي: طاقَتَهم ووُسعَهم، وأصلُ (جهد): يدلُّ على مَشقَّةٍ.

تفسير الآيتين:

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79).

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ.

سبَبُ النُّزولِ:

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ.

عن أبي مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا أُمِرْنا بالصَّدقةِ كنَّا نتحامَلُ، فجاء أبو عَقيلٍ بنِصفِ صاعٍ، وجاء إنسانٌ بأكثَرَ منه، فقال المُنافِقونَ: إنَّ اللهَ لَغنيٌّ عن صدقةِ هذا، وما فعَلَ هذا الآخَرُ إلَّا رِئاءً، فنزلت: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُم... الآية)).[302]

---

(302) رواه البخاري (4668) واللفظ له، ومسلم (1018).

وعن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه– في حديثِ الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا– قال: ((بينما رسولُ اللهِ – ﷺ – على ذلك، رأى رجلًا مُبَيِّضًا،(303) يزولُ به السَّرابُ،(304) فقال: كنْ أبا خيثمةَ، فإذا هو أبو خيثمةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تصَدَّقَ بصاعِ التَّمرِ حين لَمَزه المُنافِقون)).(305)

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ.

أي: المُنافِقون الذين يَعيبونَ المُتطوِّعِينَ مِن المؤمِنينَ الأغنياءِ في صَدَقاتِهم الكبيرةِ، فيَزعُمونَ أنَّهم يُراؤونَ بها.

وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ.

أي: ويَعيبونَ أيضًا المتطَوِّعينَ مِن المُؤمِنينَ الفُقَراءِ، الذين لا يجِدونَ ما يتصدَّقونَ به إلَّا شيئًا يَسيرًا بِقَدرِ طاقَتِهم، فيَستَهزِئُون بهم.

---

(303) مُبَيِّضًا: أي: عليه ثِيابٌ بِيضٌ.
يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (2/125).
(304) يَزولُ به السَّرابُ: أي: يتحَرَّكُ ويَنهَضُ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (17/90).
(305) رواه مسلم (2769).

سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ.

أي: سَخِرَ اللهُ مِن هؤلاء المُنافِقين، في مُقابِلِ سُخرِيَتِهم من المؤمنين.(306)

كما قال تعالى عن المُنافقين: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ [البقرة: 14–15].

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: وللمُنافِقين يومَ القِيامةِ عَذابٌ مُؤلِمٌ في نارِ جهنَّمَ.

---

(306) قال ابن تيمية: (وكذلك ما ادَّعوا أنَّه مجازٌ في القرآنِ كلَفظِ «المكر» و «الاستهزاء» و «السُّخرية» المضافِ إلى الله، وزَعَموا أنَّه مُسمًّى باسمِ ما يقابِلُه على طريقِ المجازِ، وليس كذلك، بل مُسمَّياتُ هذه الأسماءِ إذا فُعِلَت بمن لا يستحِقُّ العقوبةَ كانت ظُلمًا له، وأمَّا إذا فُعِلَت بمن فعَلَها بالمجنيِّ عليه عقوبةً له بمِثلِ فِعلِه، كانت عدلًا، كما قال تعالى: كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ [يوسف: 76] ، فكاد له كما كادت إخوتُه، لَمَّا قال له أبوه: لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا [يوسف: 5] ، وقال تعالى: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا [الطارق: 15، 16]، وقال تعالى: وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [النمل: 50]، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ [النمل: 51] ، وقال تعالى: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ؛ ولهذا كان الاستهزاءُ بهم فِعلًا يستحِقُّ هذا الاسمَ ..

وعن مقاتلٍ: إذا ضُرِبَ بينهم وبين المؤمنينَ بسُورٍ له بابٌ، باطِنُه فيه الرَّحمةُ، وظاهِرُه مِن قِبَلِه العذابُ، فيَبقَونَ في الظُّلمةِ، فيُقال لهم: ارجِعوا وراءَكم فالتمِسوا نورًا.

وقال بعضُهم: استهزاؤُه: استدراجُه لهم.

وقيل: إيقاعُ استهزائِهم وردُّ خداعِهم ومكرِهم عليهم.

وقيل: إنَّه يُظهِرُ لهم في الدُّنيا خلافَ ما أبطنَ في الآخرة.

وقيل: هو تجهيلُهم وتخطِئَتُهم فيما فعلوه؛ وهذا كلُّه حَقٌّ، وهو استهزاءٌ بهم حقيقةً).

((مجموع الفتاوى)) (7/111، 112).

ويُنظر: ((صفاتُ الله عزَّ وجلَّ الواردةُ في الكتابِ والسنَّة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: 61).

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80).

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ.

أي: سواءٌ طلَبْتَ- يا مُحَمَّدُ- لهؤلاءِ المُنافِقينَ المغفِرةَ، أو لم تطلُبْها لهم، فلَن يغفِرَ اللهُ لهم.[307]

---

(307) قال ابن جرير: (هذا كلامٌ خرج مخرَجَ الأمرِ وتأويلُه الخبَرُ، ومعناه: إنِ استغفَرْتَ لهم- يا محمَّدُ- أو لم تستغفِرْ لهم؛ فلن يغفِرَ اللهُ لهم).

((تفسير ابن جرير)) (598/11).

وقال ابن عاشور: (الذي يظهرُ لي أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا أُوحيَ إليه بآيةِ سُورةِ المُنافقين، وفيها أنَّ استغفارَه وعَدَمَه سواءٌ في حَقِّهم؛ تأوَّلَ ذلك على الاستغفارِ غيرِ المؤكَّد، وبعَثَتْه رحمَتُه بالنَّاسِ، وحِرصُه على هداهم، وتكَدُّرُه من اعتراضِهم عن الإيمانِ، أن يستغفِرَ للمُنافقينَ استغفارًا مُكرَّرًا مُؤكَّدًا؛ عسى أن يغفِرَ اللهُ لهم، ويزولَ عنهم غضبُه تعالى، فيَهديَهم إلى الإيمانِ الحَقِّ، بما أنَّ مُخالَطتَهم لأحوالِ الإيمانِ- ولو في ظاهِرِ الحالِ- قد تجرُّ إلى تعلُّقِ هَدْيِه بقلوبِهم بأقلِّ سَببٍ، فيكونُ نزولُ هذه الآيةِ تأييسًا مِن رضا اللهِ عنهم، أي: عن البقيَّةِ الباقيةِ منهم، تأييسًا لهم ولِمَن كان على شاكِلَتِهم ممَّن اطَّلَعَ على دخائِلِهم، فاغتَبَطَ بحالِهم؛ بأنَّهم انتَفَعوا بصحبةِ المُسلِمينَ والكُفَّار، فالآيةُ تأييسٌ مِن غَيرِ تَعيينٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (277/10).

ذكر ابنُ عطية (٣٧٢/٤-٣٧٣) أنّ قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون لفظ أمر ومعناه الشرط، بمعنى: إن استغفرت أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٥٣].

والآخر: أن يكون تخييرًا، كأنّه قال له: إن شئت فاستغفر، وإن شئت لا تستغفر.

ثم أعلمه أنّه لا يغفر لهم وإن استغفر سَبْعِينَ مَرَّةً.

ثم رجَّح الاحتمالَ الثاني مستندًا إلى السنة، فقال: «وهذا هو الصحيح؛ لقول رسول الله ﷺ وتبْيينه ذلك».

وساق أثر ابن عباس السابق عن عمر بن الخطاب.

عن ابنِ عبَّاسٍ، عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنهم، أنَّه قال: ((لَمَّا مات عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، دُعِيَ له رسولُ اللهِ - ﷺ - ليُصلِّيَ عليه، فلمَّا قام رسولُ اللهِ - ﷺ -، وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أتصلِّي على ابنِ أُبَيٍّ، وقد قال يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! أُعدِّدُ عليه قَولَه، فتبسَّمَ رَسولُ اللهِ - ﷺ -، وقال: أخِّرْ عني يا عُمَرُ، فلمَّا أكثَرْتُ عليه، قال: إنِّي خُيِّرتُ فاختَرْتُ، لو أعلَمُ أنِّي إن زِدتُ على السَّبعينَ يُغفَرْ له، لَزِدْتُ عليها، قال: فصلَّى عليه رسولُ اللهِ - ﷺ - ثمَّ انصرَف، فلم يمكُثْ إلَّا يسيرًا، حتى نزَلَت الآيتانِ مِن براءةَ: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ [التوبة: 84] قال: فعَجِبْتُ بعدُ مِن جُرأتي على رَسولِ اللهِ - ﷺ - يومَئذٍ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ)).(308)

إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ.

أي: إنْ تسألِ اللهَ المَغفِرةَ- يا مُحمَّدُ- لذنوبِ هؤلاءِ المُنافِقينَ سَبعينَ مَرَّةً، فلَن يستُرَها اللهُ عليهم، ولن يتجاوَزَ عن مؤاخَذتِهم بها.(309)

(308) رواه البخاري (1366).

(309) قال الرازي: (العلَّةُ التي لأجْلِها لا ينفعُهم استغفارُ الرَّسولِ وإن بلغ سبعينَ مَرَّةً؛ كُفرُهم وفِسقُهم، وهذا المعنى قائمٌ في الزيادةِ على السَّبعينَ، فصار هذا التَّعليلُ شاهدًا بأنَّ المرادَ إزالةُ الطَّمعِ في أن ينفعَهم استغفارُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ، مع إصرارِهم على الكُفرِ).

((تفسير الرازي)) (16/112).

كما قال تعالى: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [المنافقون: 6].

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ.

أي: عدمُ مَغفرةِ اللهِ ذنوبَ المُنافِقينَ، بسبَبِ كُفرِهم باللهِ سُبحانه وتعالى وبرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.

أي: واللهُ لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبِرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُؤْثِرينَ للكُفرِ به، المصرِّينَ على فِسْقِهم.

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (81–82)

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا
قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)

غريب الكلمات:

الْمُخَلَّفُونَ: أي: الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ، وأصلُ (خلف): يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه.

خِلَافَ: أي: بعدَ، أو مُخالِفِينَ.

تفسير الآيتين:

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81).

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ.

أي: فَرِحَ المُنافِقونَ– الذين تَرَكَهم اللهُ، ولم يُوفِّقْهم للجهادِ– بقُعودِهم بعد خروجِ رَسولِ اللهِ إلى تَبوكَ؛ مخالفةً منهم لأمْرِه بالنُّهوضِ للجِهادِ.(310)

وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ.

أي: وكَرِهَ هؤلاءِ المُنافِقونَ أن يجاهِدوا الكفَّارَ ببَذلِ أموالِهم، وغَزْوِهم بأنفُسِهم لنُصرةِ دِينِ اللهِ سبحانَه، وإعلاءِ كَلِمتِه تعالى.(311)

---

(310) قال القرطبي: (المخَلَّفُ: المَتروكُ، أي: خلَّفَهم اللهُ وثبَّطَهم، أو خلَّفهم رسولُ الله والمؤمنونَ لَمَّا عَلِموا تثاقُلَهم عن الجهادِ: قولان، وكان هذا في غزوةِ تَبوكَ).

((تفسير القرطبي)) (216/8).

(311) قال ابنُ جرير: (كَرِهَ هؤلاءِ المخَلَّفونَ أن يغزُوا الكفَّارَ بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله...؛ ميلًا إلى الدَّعةِ والخَفضِ، وإيثارًا للرَّاحةِ على التعبِ والمشقَّة، وشُحًّا بالمالِ أن يُنفِقوه في طاعةِ اللهِ).

((تفسير ابن جرير)) (603/11).

وقال الرازي: (كَرِهَ الخُروجَ إلى الغزوِ؛ لأنَّه تعريضٌ للمالِ والنَّفسِ للقَتلِ والإهدارِ).

((تفسير الرازي)) (113/16).

وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ.

أي: وقال المُنافِقونَ بعضُهم لبعضٍ: لا تَخرجُوا مع المسلمينَ إلى تبوكَ؛ لِغَزوِ الرُّومِ في وَقتِ شدَّةِ الحرِّ.

قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يتعلَّلونَ عن الجهادِ بسبَبِ شِدَّةِ الحَرّ: نارُ جهنَّمَ التي يدخُلُها في الآخرةِ مَن خالف أمْرَ اللهِ، وعَصى رسولَ اللهِ- أشَدُّ حرارةً مِن حَرِّ الدُّنيا الذي لا تريدونَ النَّفرَ فيه، فاتَّقوها بالجِهادِ.[312]

(312) قال ابن تيمية: (عاب اللهُ عزَّ وجلَّ المُنافقين الذين يتعلَّلون بالعوائِقِ، كالحرِّ والبرد.

فقال سبحانه وتعالى: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ وهكذا الذين يقولونَ: لا تنفِروا في البَرِدِ، فيقال: نارُ جهنَّمَ أشَدُّ بردًا، كما أخرجاه في الصَّحيحينِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((اشتكَتِ النَّارُ إلى ربِّها، فقالت: ربِّي أكلَ بَعضي بعضًا، فأذِنَ لها بنفَسَينِ: نفسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصَّيفِ؛ فأشَدُّ ما تجِدونَ مِن الحرِّ والبَرِدِ، فهو من زَمهريرِ جهنَّمَ))).

((مجموع الفتاوى)) (419/28).

لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ.

أي: لو كان هؤلاء المُنافقون يفهمونَ عن اللهِ تعالى، ويعقِلونَ كَلامَه، لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرِّ؛ لِيَتَّقوا به حَرَّ جهنَّمَ، الَّذي هو أضعافُ أضعافِ هذا، ولما فرُّوا مِن المشقةِ الخفيفةِ المنقضيةِ، إلى المشقَّةِ الشديدةِ الدائمةِ.(313)

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ [النساء: 56].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه التي يوقِدُ ابنُ آدمَ- جُزءٌ مِن سبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جهنَّمَ، قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بِتسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كلُّها مثلُ حَرِّها)).(314)

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ النبيَّ - ﷺ - يقولُ: ((إنَّ أهونَ أهلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ لَرَجلٌ تُوضَعُ في أخمَصِ(315) قَدَميه جَمرتانِ، يغلي مِنهما دماغُه)).(316)

---

(313) قال ابن جرير: (ولكنَّهم لا يفقهونَ عن الله، فهم يحذَرونَ مِن الحرِّ أقلَّه مَكروهًا وأخفَّه أذًى، ويوافِقونَ أشـــدَّه مكروهًا وأعظَمَه على من يَصلاه بلاءً).

((تفسير ابن جرير)) (603/11).

(314) رواه البخاري (3265)، ومسلم (2843) واللفظ له.

(315) الأَخمَصُ: باطِنُ القَدَمينِ الذي لا يَصِلُ إلى الأرضِ عند المَشيِ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (323/9).

(316) رواه البخاري (6561)، ومسلم (213) واللفظ له.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أدنى أهلِ النَّارِ عذابًا، ينتعِلُ بنعلَينِ مِن نارٍ، يغلي دماغُه من حرارةِ نعلَيه)).[317]

ثُمَّ قال اللَّهُ جلَّ جلالُه، مُتَوَعِّدًا لهؤلاءِ المنافِقينَ على صَنيعِهم هذا:

فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (82).

فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا.

أي: فلْيضحَكِ المُنافِقونَ قليلًا في هذه الدُّنيا الزَّائلةِ، ولْيَبكوا في الآخرةِ الأبديَّةِ كَثيرًا، في نارِ جهنَّمَ.[318]

جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ.

أي: فسَيبكي المُنافِقونَ كثيرًا في الآخرةِ؛ جزاءً مِن اللهِ لهم بسبَبِ ما كانوا يعمَلونَه في الدُّنيا من الكُفرِ والنِّفاقِ والمعاصي.

(317) رواه مسلم (211).

(318) قال الرازي: (معنى الآية: أنَّهم وإن فَرِحوا وضَـــحِكوا في كلِّ عُمرِهم فهذا قليلٌ؛ لأنَّ الدُّنيا بأســـرِها قليلةٌ، وأمَّا حَزَنُهم وبكاؤُهم في الآخرةِ فكثيرٌ؛ لأنَّه عقابٌ دائمٌ لا ينقطِعُ، والمنقطِعُ بالنسبةِ إلى الدائمِ قَليلٌ).

((تفسير الرازي)) (114/16).

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (83-85)

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا
مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ
مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) وَلَا
تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ
(85)

غريب الكلمات:

الْخَالِفِينَ: المتخلّفين بعدَ القومِ، أو المتخلّفينَ لعذرٍ، كالنساءِ والأطفالِ والعَجزةِ وأهلِ الأعذارِ، والخالفُ: المتأخّر لنقصانٍ أو قصورٍ، ومَن يَخْلُف الرجلَ في مالِه وبيتِه، وقيل: الخالفُ: الفاسدُ، مِن: خَلَف، أي: فَسَد.

تفسير الآيات:

فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ (83).

فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ.

أي: فإن أرجَعَك اللهُ وردَّك- يا مُحمَّدُ- من غزوةِ تَبوكَ، إلى جماعةٍ من هؤلاءِ المُنافِقينَ- الذين تخلَّفوا عنك في المدينةِ بغَيرِ عُذرٍ، وفَرِحوا بذلك- فاستأذَنوك للخُروجِ معك للجِهادِ في غزوةٍ أُخرَى.[319]

(319) قال ابن عاشـــور: (المرادُ بالطَّائفةِ هنا جماعةٌ من المخلَّفينَ، دلَّ عليها قَولُه: فَاسْـــتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ أي: إلى طائفةٍ منهم يبتغونَ الخُروجَ للغَزوِ، فيجوزُ أن تكونَ هذه الطائفةُ من المُنافقين أرادوا الخروجَ للغَزوِ؛ طمعًا في الغنيمةِ أو نحو ذلك.
ويجوز أن تكونَ طائفةٌ مِن المخلَّفينَ تابوا وأسلموا، فاستأذنوا للخُروجِ للغَزْوِ.
وعلى الوجهينِ يحتملُ أنَّ مَنْعَهم مِن الخروجِ للخَوفِ مِن غَدرِهم إن كانوا مُنافقين، أو لمجَرَّد التأديبِ لهم إن كانوا قد تابُوا وآمنوا).
((تفسير ابن عاشور)) (283/10).

فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- عقوبةً لهم: لن تَصحبوني أبدًا في أيِّ سَفرٍ؛ للجِهادِ، ولا لغَيرِه، كالنُّسُك، ولن تُقاتِلوا معيَ عدُوًّا من الأعداءِ أبدًا.(320)

كما قال تعالى: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ [الفتح: 15].

إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

أي: وذلك لأنَّكم رَضِيتُم- أيُّها المُنافِقونَ- بالتخلُّفِ عن الجهادِ، حين دُعيتُم أوَّلَ مرَّةٍ للخروجِ مع النَّبيِّ - ﷺ - إلى تَبوكَ.

كما قال تعالى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

---

(320) قال محمد رشيد رضا: (وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا مِنَ الأعداء بِصفةٍ ما، لا بالخروجِ والسَّفرِ إليهم، ولا بغيرِ ذلك؛ كأن يُهاجِموا المؤمنينَ في عاصِمَتِهم، كما فعلوا يومَ الأحزابِ مَثلًا، فكلٌّ مِن الخروجِ المُطلَق الذي حُذِفَ مُتعَلَّقُه، والقتالِ الذي ذُكِرَ مُتعَلَّقُه، نكرةٌ منفيَّةٌ عامةٌ، فيَصْدُقانِ بكلِّ خُروجٍ، وكلِّ قتالٍ لعدوٍّ في أي مكانٍ، وقد يكون كلٌّ منهما بدونِ الآخَرِ، فبينهما عمومٌ وخصوص مُطلَق، وقد غفَل عن هذا مَن غفَل من المفسِّرين، فزعموا أنَّ الثانيَ تأكيدٌ للأوَّلِ). ((تفسير المنار)) (493/10).

فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ.

أي: فاقعُدوا– أيُّها المنافقونَ– مع المتخلِّفينَ عن الجهادِ، من الأشرارِ الفاسدينَ الذين تخلَّفوا بغيرِ عُذرٍ، ومن المَعذُورينَ مِن المَرضى والضُّعَفاءِ، والنِّساءِ والصِّبيانِ.

وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ (84).

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ، عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنهم، أنَّه قال: ((لَمَّا مات عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سلولَ، دُعِيَ له رسولُ الله – ﷺ – ليُصَلِّيَ عليه، فلمَّا قام رسولُ الله – ﷺ – وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ الله، أتُصلِّي على ابنِ أُبَيٍّ، وقد قال يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! أعَدِّدُ عليه قولَه، فتبسَّمَ رَسولُ الله – ﷺ –، وقال: أخِّرْ عنِّي يا عُمرُ، فلمَّا أكثَرْتُ عليه، قال: إنِّي خُيِّرتُ فاخترَتُ، لو أعلَمُ أنِّي إن زِدْتُ على السَّبعينَ يُغفَرْ له لَزِدْتُ عليها. قال: فصلَّى عليه رسولُ الله – ﷺ – ثم انصرَفَ، فلم يمكُثْ إلَّا يسيرًا، حتى نزلَت الآيتانِ مِن براءة: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ

إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ. قال: فعَجِبْتُ بعدُ مِن جُرأتي على رسولِ الله - ﷺ - يومَئذٍ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ)).[321]

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا.

أي: ولا تُصَلِّ- يا مُحمَّدُ- على أحدٍ من هؤلاءِ المُنافِقينَ إذا مات، أبدًا.[322]

عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ الله - ﷺ - إذا دُعِيَ لجِنازةٍ سأل عنها، فإن أُثنِيَ عليها خيرًا، قام فصلَّى عليها، وإن أُثنِيَ عليها غيرَ ذلك، قال لأهلِها: شأنَكم بها، ولم يُصَلِّ عليها)).[323]

---

(321) أخرجه البخاري (1366).

(322) قال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولا تُصَلِّ- يا محمَّدُ- على أحدٍ مات من هؤلاء المنافقينَ الذين تخلَّفوا عن الخُروجِ معك أبدًا).

((تفسير ابن جرير)) (11/610).

وقال ابن كثير: (هذا حكمٌ عامٌّ في كلِّ مَن عُرِفَ نِفاقُه، وإن كان سببُ نزولِ الآيةِ في عبدِ الله بنِ أُبَيِّ ابنِ سلولَ؛ رأسِ المنافقينَ).

((تفسير ابن كثير)) (4/193).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (24/285، 287).

(323) أخرجه أحمد (22555)، والطيالسي (629)، وابن حبان (3057)، والحاكم في ((المستدرك)) (1348).

قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (4/265)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (3/6): رجالُه رجالُ الصحيح، وقال ابنُ حجرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (4/210): صحيحٌ غريبٌ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (3517)، والوادعي في ((الفتاوى الحديثية)) (1/445).

وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ.

أي: ولا تقُم- يا مُحمَّدُ- على قبرِ أحدٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ؛ لِتَولِّي دَفنِه، والاستغفارِ والدُّعاءِ له.

إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ.

أي: لا تُصَلِّ على المُنافقينَ إذا ماتوا، ولا تقُمْ على قُبورِهم؛ لأنَّهم كَفروا باللهِ سُبحانه، وكَفَروا برَسولِه - ﷺ -.

وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ.

أي: وماتوا وهم خارِجونَ عن الإيمانِ، وطاعةِ الرَّحمنِ.

وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85).

وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ.

أي: ولا تَستحسِنْ- يا مُحمَّدُ- أموالَ المُنافِقينَ وأولادَهم، ممَّا أنعَمْنا عليهم؛ استدراجًا لهم.(324)

---

(324) قال ابن عطية: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ أمَّتُه؛ إذ هو- بإجماعٍ- ممَّن لا تفتِنُه زخارِفُ الدُّنيا، ويحتمل أن يكونَ معنى الآية: ولا تُعجِبْك أيُّها الإنسانُ، والمرادُ الجنسُ).
((تفسير ابن عطية)) (68/3).
ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (286/10).

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا.

أي: إنَّما يريدُ اللهُ أن يعذِّبَ المُنافقينَ بأموالِهم وأولادِهم في حياتِهم الدُّنيا، بالهُمومِ والغُمومِ، بأخذِ الزَّكاةِ منهم، وبما أُلزِموا بالإنفاقِ فيه، وبما يعتري أموالَهم وأولادَهم من مصائِبَ وتعبٍ في جمعِ الأموالِ، ووَجَلٍ في حِفظِها، وخوفٍ مِن زَوالِها، وغَيرِ ذلك.

كما قال تعالى: وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [طه: 131].

وقال سبحانه: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ [المؤمنون:55-56].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((مَن كانت الدُّنيا همَّه، فرَّقَ اللهُ عليه أمْرَه، وجعَلَ فَقرَه بين عينَيه، ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما كُتِبَ له، ومَن كانت الآخرةُ نيَّتَه، جمَعَ اللهُ له أمْرَه، وجعَلَ غِناه في قَلبِه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ)).(325)

---

(325) أخرجه ابن ماجه (4105)، والطيالسي في ((المسند)) (617)، وابن حبان في ((الصحيح)) (680).
قال ابنُ عبدِ البرِّ في ((التمهيد)) (276/21): ثابتٌ، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (88/5)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (3329).

وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ.

أي: ويريدُ اللهُ أن تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ مِن أجسادِهم، وهم مُقيمونَ على كُفرِهم.[326]

(326) قال ابن كثير: (ليكونَ ذلك أنكى لهم وأشَـدَّ لعذابِهم، عياذًا باللهِ من ذلك، وهذا يكونُ مِن باب الاستدراجِ لهم فيما هم فيه).
((تفسير ابن كثير)) (4/163).

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (86–89)

وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)

غريب الكلمات:

أُولُو الطَّوْلِ: أي: ذَوو الغِنى والسَّعةِ، وأصلُ (طول): يدُلُّ على فَضْلٍ، وامْتِدادٍ في الشَّيءِ.

الْخَوَالِفِ: أي: النِّساءِ، وأصلُ (خلف): يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه.

تفسير الآيات:

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (86).

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ.

أي: وإذا أُنزِلَت عليك– يا محمَّدُ– سورةٌ من القرآنِ، فيها أمرُ النَّاسِ بالإيمانِ باللهِ، وجِهادِ الكُفَّارِ مع رسولِ اللهِ؛ استأذَنَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ أصحابُ الغِنى والأموالِ مِن المُنافِقينَ!(327)

(327) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (615/11)، ((البسيط)) للواحدي (585/10)، ((تفسير ابن عطية)) (68/3)، ((تفسير القرطبي)) (223/8)، ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (351/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 347)، ((تفسير ابن عاشور)) (288/10).

قال القاسمي: (إنَّما خَصَّ ذوي الطَّولِ؛ لأنَّهم المذمومونَ، وهم مَن له قدرةٌ ماليَّةٌ، ويُعلَمُ منه البدنيَّةُ أيضًا بالقياس). ((تفسير القاسمي)) (474/5).

وقال محمد رشيد رضا: (المراد بهم هنا أولو المقدِرةِ على الجهادِ المفروضِ، بأموالِهم وأنفُسِهم). ((تفسير المنار)) (502/10).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الطَّولُ: السَّعةُ في المالِ...

والاقتصارُ على الطَّولِ يدُلُّ على أنَّ أُولي الطَّولِ مُرادٌ بهم مَن له قدرةٌ على الجِهادِ بصِحَّةِ البَدَن، فبوجودِ الطَّولِ انتفى عُذرُهم؛ إذ مَن لم يكُنْ قادرًا ببَدَنِه، لا يُنظَر إلى كَونِه ذا طَولٍ، كما يدلُّ عليه قولُه بعدُ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (288/10).

وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ.

أي: وقال لك المُنافِقونَ– يا مُحمَّدُ: اترُكْنا نكُنْ مع القاعدينَ في بُيوتِهم؛ مِنَ الضُّعَفاءِ والمَرضى والعاجزينَ عن الجِهادِ.

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (87).

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ.

أي: رَضِيَ المُنافقونَ المُستأذِنونَ في التخلُّفِ عن الجهادِ أن يكونوا في مَنازِلِهم مع النِّساءِ!

وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ.

أي: وختَمَ اللهُ على قلوبِ المُنافِقينَ بسبَبِ تخلُّفِهم عن الجهادِ بلا عُذرٍ، فهم لا يَفهَمونَ مواعِظَ اللهِ، وأنَّ الجِهادَ خَيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ.

كما قال اللهُ تعالَى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ [المنافقون: 3].

وقال سبحانه: وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ [المنافقون: 7].

لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88).

لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ.

أي: لكنْ الرَّسولُ محمدٌ – ﷺ –، وأصحابُه الذين آمَنوا معه، قد جاهَدوا الكُفَّارَ ببَذلِ أموالِهم وقاتَلوهم بأنفُسِهم، فهم ليسُوا كالمُنافِقينَ المتخَلِّفينَ. فلئن تخَلَّفَ هؤلاء المنافِقونَ عن الجهادِ، فلا ضَيرَ؛ لأنَّه قد نهضَ إليه مَن هو خيرٌ منهم.(328)

كما قال تعالى: لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ [التوبة: 44].

وقال سبحانه: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [الفتح: 29].

وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ.

أي: والرَّسولُ والذين آمَنوا معه، وجاهَدوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لهم النِّعَمُ الكثيرةُ الحَسَنةُ في الدُّنيا والآخرةِ.

كما قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [النور: 55].

---

(328) قال ابن عطية: (الأكثَرُ في (لكِنْ) أن تجيء بعد نفيٍ، وهو هاهنا في المعنى، وذلك أنَّ الآيةَ السَّالفةَ معناها أنَّ المُنافِقينَ لم يجاهِدوا، فحسُنَ بعدَها لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا).
((تفسير ابن عطية)) (69/3).

وقال سُبحانه: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [الفتح: 29].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [الصف: 10–13].

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

أي: وأولئكَ هم الذينَ ظَفِروا بما طَلَبوا منَ النَّعيمِ.(329)

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89).

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.

أي: هيَّأَ اللهُ لِرَسولِه وللمُؤمِنينَ معه بساتينَ تجري مِن تَحتِ أشجارِها ومَبانيها الأنهارُ.

كما قال تعالى: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 100].

---

(329) قال القنوجي: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) المرادُ بهم هنا الفائزونَ بالمطلوبِ.
((فتح البيان)) (365/5).

خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: لابثينَ فيها، لا يَموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها أبدًا.

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

أي: دُخولُ الجنَّاتِ التي أعدَّها اللهُ للرَّسولِ وللمُؤمِنينَ معه، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَرُ الكبيرُ.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (90–93)

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ (93)

غريب الكلمات:

الْمُعَذِّرُونَ: أي: المُعتَذِرونَ الَّذين لَهُم عُذرٌ، وَقد يكون المعَذِّرُ غيرَ مُحِقٍّ، فالمعنى المقصِّرون بِغَيْر عُذرٍ. والعُذْرُ: تحرِّي الإنسانِ ما يمحو به ذُنوبَه.

الْأَعْرَابِ: أي: سُكَّانِ البادية، وأصلُ (عرب): يدلُّ على الإبانةِ والإفصاحِ.

حَرَجٌ: أي: إثمٌ، والحرَجُ كذلك: الشكُّ والضِّيقُ، وأصلُ الحَرَجِ: تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه.

تَفِيضُ: أي: تَسيلُ، وفَيضُ العَينِ مِن الدَّمعِ: امتلاؤُها منه، ثمَّ سَيلانُه منها كفَيضِ النَّهرِ من الماءِ، وفيضِ الإناءِ، وأصلُ (فيض): يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهولةٍ.

السَّبِيلُ: أي: العقوبةُ والمأثَمُ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكُلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ، خيرًا كان أو شرًّا، وأصلُ (سبل): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ.

تفسير الآيات:

وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90).

وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

قراءةُ الْمُعْذِرُونَ بسكونِ العينِ وتخفيفِ الذالِ، بمعنى: الذينَ جاؤوا بعُذرٍ صحيحٍ.(330)

قراءةُ الْمُعَذِّرُونَ بفتحِ العينِ وتشديدِ الذالِ، أي: المُعتذرونَ، قيل: بمعنى اعتذروا بحقٍّ، فتكونُ بمعنَى القراءةِ الأُولَى، وقيل: المعنى: المقصِّرون الذين أوْهَموا أنَّ لهم عذرًا، ولا عُذرَ لهم.(331)

---

(330) قرأ بها يعقوبُ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (280/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((البسـيط)) للواحدي (588/10)، ((معاني القراءات)) للأزهري (460/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 321)، ((تفسير ابن عطية)) (69/3، 70)، ((تفسير ابن الجوزي)) (288/2).

(331) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (280/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((البسـيط)) للواحدي (589/10 – 591)، ((معاني القراءات)) للأزهري (460/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 321)، ((تفسير ابن عطية)) (69/3، 70)، ((تفسير ابن الجوزي)) (288/2)، ((تفسير ابن عاشور)) (292/10).

قال محمد رشـيد رضـا: (والحكمةُ في القراءَتين على اختلافِ معاني الصِّـيغتينِ بيانُ اختلافِ أحوالِ أولئك الأعرابِ في أعذارِهم؛ فمنهم مَن له عُذرٌ صَحيحٌ هو موقِنٌ به، ومن له عُذرٌ صوريٌّ لا حقيقيٌّ، وهو يُوهِمُ أنَّه حقيقيٌّ، عالِمًا بأنَّه مخادعٌ، ومنهم من له عُذرٌ ضَـعيفٌ هو في شَـكٍّ منه، إن نُوقِش فيه عجَزَ عن إثباتِه، ومنهم مَن لا عُذرَ له في الواقِعِ، فهو كاذبٌ في انتحالِه،

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ.

أي: وأتى المُعتَذِرونَ مِن سكَّانِ البوادي التي حولَ المدينةِ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -؛ ليأذَنَ لهم في التخلُّفِ عن الجِهادِ.

وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

أي: وقعَدَ عن المجيءِ إلى النبيِّ - ﷺ - للاعتذارِ إليه عن الجهادِ معه، الأعرابُ المُنافِقونَ الذين كَذَبوا اللهَ ورَسولَه في دَعواهم الإيمانَ المُقتضيَ للخُروجِ للجِهادِ.(332)

وهذا من إعجازِ القُرآنِ العَجيبِ، بالإتيانِ بلَفظٍ مُفرَدٍ يتناوَلُ هذه الأقســـامَ كُلَّها، مبهمةً إلَّا عند أهلِها؛ للحِكمةِ الآتيةِ المُقتَضيةِ لإبهامِها).

((تفسير المنار)) (504/10).

(332) قيل: المرادُ بالمعذِّرين هنا: الذين اعتَذَروا بأعذارٍ صادقةٍ وصَحيحةٍ، وممَّن اختار ذلك: الرازي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (120/16)، ((تفسير ابن كثير)) (197/4-198)، ((تفسير ابن عاشور)) (292/10).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1860/6).

وقيل: المرادُ بهم: الذين اعتَذَروا بأعذارٍ كاذبةٍ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والسعديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (621/11)، ((تفسير السعدي)) (ص: 347).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: قتادةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وأبو إسحاقَ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1860/6)، ((تفسير ابن جرير)) (621/11).

سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: سيصيبُ الكافرينَ مِن الأعرابِ[333] عذابٌ مُؤلِمٌ.[334]

لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91).

لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ.

أي: ليس على ضُعَفاءِ الأبدانِ، العاجِزينَ عن الخُروجِ للقِتالِ، ولا على المرضى الذين لا يَقدِرونَ على الجهادِ، ولا على الفُقَراءِ الذين لا يجِدونَ مالًا يتجهَّزونَ به- إثمٌ في تخلُّفِهم عن الجِهادِ.

---

(333) قال القاسمي: (الضـــميرُ في مِنْهُمْ إمَّا للأعرابِ مطلقًا، فالذين كفروا منافِقوهم، أو أعَمُّ، وإمَّا للمُعَذِّرين؛ فإنَّ منهم من اعتذرَ لكسَلِه، لا لكُفرٍ، وجُوِّز أن يكون المعنيَّ بالذين كَفَروا منهم، المُصِرُّونَ على الكُفرِ).

((تفسير القاسمي)) (476/5).

وقال محمد رشيد رضا: (الظَّاهِرُ المختار أنَّ هذا الوعيدَ يعودُ على ما قبله من الفريقينِ، عامًّا في المكَذِّبين، وخاصًّا ببعض المعَذِّرينَ، كما هو المتبادِرُ مِن قوله تعالى: مِنْهُمْ أي: الأعراب الذين اعتذر بعضُـــهم، وقعد بعضٌ؛ فإنَّ الذين كَذَّبوا اللهَ ورَســـولَه كُلُّهم كفَّارٌ، وأمَّا المُعتَذِرونَ فمنهم الصّادِقُ في عُذرِه والكاذِبُ فيه؛ لِمَرَضٍ في قلبه، أو لتَكذيبِه لله ورَسولِه، وكلٌّ منهم يعرِفُ نَفسَه فيحاسِبُها إذا وجد الوعيدَ موضعًا للعِبرةِ منها، ولو جعل التبعيضَ لهم وحدَهم لظَلَّ القاعدونَ الكاذِبونَ بغَيرِ وعيدٍ، وهم شَرٌّ مِن شَـــرِّهم، فلا يصِـــحُّ التبعيضُ فيهم وَحدَهم، ومن ثَمَّ اقتضـــى التحقيقُ أن يُوجَّهَ الوعيدُ إلى الذين كَفَروا منهم؛ لكُفرِهم لا لاعتذارِهم، وإلى الذين قَعَدوا لكُفرِهم لا لقُعودِهم، بل للكَذِبِ الذي كان سبَبَه، وهو عينُ الكفرِ).

((تفسير المنار)) (505/10).

(334) قال ابن عطية: (توعَّدَ في آخِرِ الآيةِ الكافِرينَ بـــ عَذَابٌ أَلِيمٌ فيحتمِلُ أن يريدَ في الدُّنيا بالقَتلِ والأسرِ، ويحتمل أن يريدَ في الآخرةِ بالنَّارِ).

((تفسير ابن عطية)) (70/3).

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ [الفتح: 17].

إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ.

أي: إذا أخلَصوا إيمانَهم وأعمالَهم وقَصدَهم وحُبَّهم في حال قُعودِهم، وبَذَلوا جُهدَهم في نُصرةِ الإسلامِ، ونَفْعِ المُسلِمينَ.

عن تَميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((الدِّينُ النَّصيحةُ. قلنا: لِمَن؟ قال: للَّهِ ولِكتابِه ولِرَسولِه ولأئمَّةِ المُسلِمينَ وعامَّتِهم)).(335)

مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ.

أي: ليس على المُحسِنينَ الذين نصَحوا للَّه ورَسولِه من طريقٍ إلى مؤاخَذتِهم وعُقوبتِهم.(336)

وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أي: واللهُ ساترٌ ذُنوبَ المُحسِنينَ، ومُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم فلا يعاقِبُهم عليها، بل يُثيبُهم ثوابَ القادِرينَ العامِلينَ.

---

(335) رواه مسلم (55).

(336) قال ابن الجوزي: (لأنَّ المحسِنَ قد سدَّ بإحسانِه بابَ العِقابِ).

((تفسير ابن الجوزي)) (2/288).

وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (92).

أي: ولا عقوبةَ على الذين إذا أتَوْك– يا مُحمَّدُ– يسألونَك ما يَركَبونَ عليه في غزوةِ تَبوكَ، قلتَ لهم مُعتذرًا: لا أجِدُ ما تركبونَ عليه، فانصرفوا مِن عِندِك، وهم يبكونَ مِن الحَزَنِ على عدَمِ توفُّرِ ما يتجهَّزونَ به للجِهادِ.(337)

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (93).

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء.

أي: إنَّما العُقوبةُ– يا مُحمَّدُ– على المُنافِقينَ الذين يَستأذِنونَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ، وهم أغنياءُ قادِرونَ على الخُروجِ معك للقِتالِ.

---

(337) قال ابن تيمية: (هذه الآيةُ نزلت بالإجماعِ في غَزوةِ تَبوكَ).
((مجموع الفتاوى)) (375/29).

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ.

أي: رَضِيَ المُنافِقونَ الذين يستأذِنونَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ، بالقُعودِ في بيوتِهم مع النِّساءِ اللاتي لا يجِبُ عليهِنَّ الجِهادُ.

وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.

أي: وختَمَ اللهُ على قلوبِ المُنافِقينَ عُقوبةً لهم، فهم لا يَعلمونَ سُوءَ عاقِبةِ تخلُّفِهم عن الجهادِ عاجلًا وآجلًا، ولا ما يفوتُهم بذلك مِن مَصالحِ الدُّنيا والآخرةِ.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (94–96)

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ
وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
(94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96)

غريب الكلمات:

انْقَلَبْتُمْ: أي: رَجعْتُم، وأصلُ (قلب): يدلُّ على ردِّ الشَّيءِ مِن جِهةٍ إلى جهةٍ.

رِجْسٌ: أي: نجسٌ، والرجسُ كذلك: القذرُ والمنتنُ، وأصلُ (رجس): يدلُّ على اختلاطٍ.

تفسير الآيات:

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (94).

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ.

أي: يَعتَذِرُ إليكم المُنافِقونَ المتخَلِّفونَ عن الجِهادِ بلا عُذرٍ، إذا رَجَعْتُم- أيُّها المؤمِنونَ- إليهم من سَفَرِكم وجِهادِكم.

قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ.

أي: قلْ لهم- يا مُحمَّدُ-: لا تعتَذِروا إلينا؛ إذ لن نصَدِّقَكم في اعتذارِكم الكاذِبِ.

قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ.

أي: قد أخبَرَنا اللهُ بأسرارِكم- أيُّها المنافِقونَ- وعَلِمْنا كَذِبَكم في اعتذارِكم.(338)

(338) قال محمد رشيد رضا: (ولم يقُل: «نبَّأني» وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المنبَّأُ من اللهِ وَحدَه؛ لأنَّ المرادَ أنَّه أمَرَه أن ينبِّئَ بذلك أصحابَه، ولم يكن هذا النبأُ خاصًّا به، واعتذارُهم للجميع يقتضي أن يعلَموا أنَّ الجميعَ عالِمونَ بما فضَحَهم اللهُ به، وإن كان المبَلِّغُ لهم هو الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بما له من الرِّياسةِ، وما لخَبَرِه من الثقةِ التي لا يشُكُّ فيها أحَدٌ، والتأثيرِ الذي يُحسَبُ له كلُّ حِسابٍ.

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ.

أي: وسيرى اللهُ ورَسولُه أعمالَكم- أيُّها المنافِقونَ- في الدُّنيا، ويَظهَرُ صِدقُكم أو كذِبُكم في التَّوبةِ مِن النِّفاقِ.(339)

ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: ثمَّ تُرجَعونَ- أيُّها المُنافِقونَ- بعد مَوتِكم إلى اللهِ الذي يعلَمُ كُلَّ سِرٍّ وعلانيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كنتُم تَعملونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُجازيكم عليه.

سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (95).

فهو من قَبيلِ التبليغاتِ الرَّسميةِ العُليا الصادرةِ عن الملوكِ والسَّلاطينِ، دَعْ كونَه أسمى وأعلى؛ لأنَّه نبأُ الرَّسولِ المعصومِ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ).

((تفسير المنار)) (11/4).

(339) قال ابنُ عاشور: (جملة: وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ عطفٌ على جملةِ لَا تَعْتَذِرُوا، أي: لا فائدةَ في اعتذارِكم، فإن خَشِيتُم المؤاخذةَ، فاعملوا الخيرَ للمُستقبَلِ، فسَيَرى اللهُ عَمَلَكم ورسولُه إن أحسَنْتُم، فالمقصودُ فَتحُ بابِ التوبةِ لهم، والتنبيهُ إلى المكِنةِ من استدراكِ أمرِهم.

وفي ذلك تهديدٌ بالوعيدِ إن لم يتوبُوا).

((تفسير ابن عاشور)) (11/7).

سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ.

أي: سيحلِفُ المُنافِقونَ المتخَلِّفونَ، باللّهِ لكم- أيُّها المؤمنونَ- إذا رجَعْتُم إليهم مِن غزوةِ تبوكَ: إنَّهم ما استطاعُوا الخروجَ مَعَكم للجهادِ؛ لِتَترُكوا تأنيبَهم ومعاتَبتَهم.

فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ.

أي: فاترُكوا- أيُّها المؤمنونَ- تأنيبَهم ولَومَهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم؛ لا مسامحةً وعفوًا، لأنَّهم نَجَسٌ وقذَرٌ، خَبيثةٌ بَواطِنُهم، وقبيحةٌ أعمالُهم.

كما قال تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ [التوبة: 28].

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ.

أي: ومصيرُ المُنافِقينَ في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ مجازاةً لهم بسببِ ذُنوبِهم التي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا.

عن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللّهُ عنه، قال: ((واللّهِ ما أنعَمَ اللّهُ عليَّ مِن نِعمةٍ قطُّ، بعد إذ هدَاني اللّهُ للإسلامِ، أعظَمَ في نفسِي مِن صِدقِي رسولَ الله - ﷺ -: ألَّا أكونَ كَذَبتُه فأَهلِكَ كما هلَكَ الذين كذَبوا، إنَّ الله قال للذينَ كَذَبوا- حين أنزَلَ الوَحيَ- شَرَّ ما قال لأحَدٍ: سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا

انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)).[340]

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96).

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ.

أي: يحلِفُ هؤلاءِ المُنافِقونَ لكم- أيُّها المؤمِنونَ- بالكَذِبِ؛ مِن أجلِ أن ترضَوا عنهم، فتَستَديموا مُعاملَتَهم السَّابقةَ، كأنَّهم لم يُذنِبوا.

فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.

أي: فإنْ تَرضَوا- أيُّها المؤمِنونَ- عن المُنافِقينَ، فرِضاكم عنهم لا ينفَعُهم، ولا ينبغي لكم أن ترضَوا عنهم؛ فإنَّ اللهَ لا يرضَى عن القومِ الخارجينَ عن طاعَتِه.[341]

(340) رواه البخاري (4418)، ومسلم (2769).

(341) قال محمد رشيد رضا: (مُقتضاه أنَّه إذا فُرِضَ أنَّ بعضَ المؤمنينَ رَضِيَ عنهم وآمَنَ لهم باعتذارِهم بعد النَّهيِ عنه، كان فاسقًا مِثلَهم، محرومًا مِن رضائِه تعالى).

((تفسير المنار)) (5/11).

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (97–98)

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98)

غريب الكلمات:

مَغْرَمًا: أي: غُرمًا وخُسرانًا، وأصلُ (غرم): يدلُّ على مُلازمةٍ.

وَيَتَرَبَّصُ: أي: ينتَظِرُ، وأصلُ التربُّصِ: الانتظارُ والتمَكُّثُ.

الدَّوَائِرَ: أي: دوائِرَ الزَّمانِ بالمكروهِ. ودوائِرُ الزَّمانِ: صُروفُه التي تأتي مرَّةً بخيرٍ ومرَّةً بشَرٍّ. والدائرةُ تكونُ في المكروهِ، وأصلُ (دور): يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيه.

تفسير الآيتين:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97)﴾.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.

أي: سُكَّانُ البوادي[342] أشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأشَدُّ نِفاقًا، مِن كفَّارِ ومُنافقي أهلِ الحضَرِ في المُدنِ والقُرى.[343]

---

(342) قال ابن تيمية: (لفظُ: (الأعرابِ) هو في الأصلِ: اسمٌ لِبَاديةِ العَربِ؛ فإنَّ كُلَّ أمَّةٍ لها حاضرةٌ وباديةٌ، فباديةُ العَربِ: الأعرابُ).

((اقتضاء الصراط المستقيم)) (418/1).

(343) قال ابن جرير: (وإنَّما وصَفَهم جلَّ ثناؤه بذلك؛ لِجَفائِهم، وقسوةِ قُلوبِهم، وقِلَّةِ مُشاهَدتِهم لأهلِ الخَيرِ؛ فهم لذلك أقسَى قلوبًا، وأقَلُّ عِلمًا بحقوقِ اللهِ).

((تفسير ابن جرير)) (632/11).

وقال الواحدي: (قال أبو إسحاقَ: كُفرُهم أشَدُّ؛ لأنَّهم أقسَى وأجفَى مِن أهلِ المَدَر، وهم أيضًا أبعَدُ عن سَماعِ التَّنزيلِ، وإنذارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: أشدُّ كفرًا مِن أهلِ الحضَرِ؛ لجفاءِ صُدورِهم ونبُوِّ طِباعِهم).

((البسيط)) (13/11).

وقال ابنُ عطيةَ: (هذه الآيةُ إنَّما نزَلَت في مُنافِقينَ كانوا في البوادي، ولا محالةَ أنَّ خَوفَهم هناك أقلُّ مِن خوفِ مُنافقي المدينةِ، فألسِنَتُهم لذلك مُطلَقةٌ، ونِفاقُهم أنجَمُ).

((تفسير ابن عطية)) (73/3).

وقال ابن عاشور: (أَشَدُّ وأَجْدَرُ اسمَا تفضيلٍ، ولم يُذكَرْ معهما ما يدُلُّ على مُفضَّلٍ عليه، فيجوزُ أن يكونَا على ظاهِرِهما، فيكون المفضَّلُ عليه أهلَ الحضَرِ، أي: كفَّار ومُنافِقي المدينة.

وهذا هو الذي تواطأَ عليه جميعُ المفَسِّرينَ).

((تفسير ابن عاشور)) (11/11).

وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ.

أي: والأعرابُ أَوْلى وأحرَى بألَّا يَعلَموا الحلالَ والحرامَ، والشَّرائعَ التي أنزَلَها اللهُ على رَسولِه محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.(344)

وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: واللهُ عليمٌ بخَلقِه، لا يخفى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم، فيعلَمُ مُنافِقَهم وكافِرَهم، ويَعلَمُ مَن يستحِقُّ أن يُعلِّمَه منهم العِلمَ والإيمانَ، ممَّن لا يستحِقُّ، كأولئك الأعرابِ، حكيمٌ في تدبيرِ خَلْقِه ومُجازاتِهم، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به.

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا.

أي: ومِن سُكَّانِ البوادي من يَعُدُّ ما يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا ونَقصًا وخَسارةً، فيُنفِقُ ما يُنفِقُ مُكرَهًا لا يرجو ثوابَه عند اللهِ تعالى.

---

(344) قال ابن عاشور: (إنَّما كانوا أجدَرَ بعَدمِ العِلمِ بالشَّريعةِ؛ لأنَّهم يَبعُدونَ عن مجالِسِ التَّذكيرِ ومنازِلِ الوَحيِ، ولقلَّةِ مُخالَطتِهم أهلَ العِلمِ، مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).
((تفسير ابن عاشور)) (12/11).

وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ.

أي: ومِن الأعرابِ مَن ينتَظِرُ أن تحُلَّ بكم- أيُّها المُسلِمونَ- المصائِبَ، واختلالَ الأمورِ، وغَلَبةَ الأعداءِ عليكم.(345)

عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ.

أي: جعَلَ اللهُ على الأعرابِ المُنافِقينَ- وَحْدَهم- المصائِبَ التي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، لا عليكم أيُّها المؤمِنونَ.

كما قال تعالى: وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [الفتح: 6].

وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عِبادِه من الأعرابِ المُنافِقينَ وغَيرِهم، عليمٌ ببواطِنِهم، عليمٌ بتَدبيرِهم، وبمن يستحِقُّ منهم النَّصرَ، ومَن يستحِقُّ الخِذلانَ.

(345) قال ابن عاشور: (المعنى أنَّهم ينتظرونَ ضَعْفَكم وهزيمَتَكم، أو يَنتَظِرونَ وفاةَ نَبِيِّكم، فيُظهِرونَ ما هو كامِنٌ فيهم من الكُفرِ.
وقد أنبأَ اللهُ بحالهِم التي ظهَرَت عَقِبَ وفاةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم أهلُ الرِّدَّةِ من العَرَبِ).
((تفسير ابن عاشور)) (14/11).

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (99–100)

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

غريب الكلمات:

وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ: أي: دعاءَ الرَّسولِ واستغفارَه، وأصلُ (صلى): يدلُّ على الدُّعاءِ.

تفسير الآيتين:

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (99).

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ.

أي: ومِن سُكَّانِ البوادي مَن يُؤمِنُ باللهِ تعالى، وبِيَومِ القيامةِ وما فيه من الثَّوابِ والعِقابِ.

وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ.

أي: ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عندَ اللهِ، يرجو به القُرْبَ منه سُبحانَه وتعالى.

وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ.

أي: ويبتغي الأعرابُ المؤمِنونَ بنَفَقاتِهم أيضًا دعاءَ الرَّسولِ لهم عند أخْذِه صَدَقاتِهم.(346)

كما قال تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [التوبة: 103].

(346) قال ابنُ عطيةَ: (الصَّلاةُ في هذه الآيةِ: الدُّعاءُ إجماعًا).
((تفسير ابن عطية)) (74/3).

وعن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفَى رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان النبيُّ – ﷺ – إذا أتاه قومٌ بصَدَقتِهم قال: اللهُمَّ صَلِّ على آلِ فُلانٍ، فأتاه أبي بصَدَقتِه، فقال: اللهمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفى)).[347]

أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ.

أي: ألا إنَّ صلواتِ الرَّسولِ قُربةٌ عظيمةٌ لهم، تقرِّبُهم إلى الله تعالى.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ – ﷺ –: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكُرُني، إن ذَكَرني في نفسِه، ذكَرْتُه في نفسي، وإن ذكَرني في ملأٍ، ذكرتُه في ملأٍ هم خيرٌ منهم، وإن تقرَّبَ منِّي شِبرًا، تقرَّبتُ إليه ذِراعًا، وإن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا، تقرَّبتُ منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرولةً)).[348]

سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ.

أي: سيُدخِلُ اللهُ هؤلاء الأعرابَ المؤمنينَ في جملةِ عِبادِه المرحومينَ أصحابِ الجنَّةِ.

كما قال تعالى: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي [الفجر: 27 – 30].

(347) رواه البخاري (1497) واللفظ له، ومسلم (1078).
(348) رواه البخاري (7405)، ومسلم (2675) واللفظ له.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِهم فيَسترُها لهم، ويتجاوزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يعذِّبُهم، بل يُفيضُ عليهم نِعَمَه، ويوفِّقُهم للخيرِ، ويُثيبُهم عليه.

وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100).

وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ.

أي: وأصحابُ محمَّدٍ - ﷺ - الذين سَبَقوا المُسلِمينَ أوَّلًا إلى الإيمانِ، مِن الذين تركوا قومَهم، وفارَقُوا أوطانَهم، ومِن أهلِ المدينةِ الذين نَصَروا الرَّسولَ على الكافرينَ، وآوَوْا أصحابَه المهاجِرينَ.

كما قال تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الحشر: 8-9].

وعن غَيلانَ بنِ جريرٍ، قال: قلتُ لأنَسِ بنِ مالكٍ: (أرأيتَ اسمَ الأنصارِ، كُنتُم تُسَمَّونَ به أم سمَّاكم اللهُ؟ قال: بل سمَّانا اللهُ عزَّ وجلَّ).(349)

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ.

أي: والتَّابعونَ للسَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، الذين سَلَكوا طريقَهم المستقيمَ في الإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ.

كما قال سبحانه: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشر: 10].

رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ.

أي: رَضِيَ اللهُ عن الصَّحابةِ السَّابقينَ، والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، لِمَا أطاعُوه، ورَضُوا هم عن اللهِ؛ لما أنعَمَ عليهم في الدُّنيا، وأثابَهم في الآخرةِ.

كما قال تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا [الفتح: 18].

---

(349) رواه البخاري (3776).

وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ.

أي: وهيَّأَ اللهُ تعالى لأصحابِ النبيِّ والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، جَنَّاتٍ في الدَّارِ الآخرةِ تجري تحت أشجارِها وغُرَفِها وقصورِها الأنهارُ.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.

أي: لابثِينَ فيها على الدَّوامِ بلا انتهاءٍ، فلا يموتونَ فيها، ولا عنها ينتَقِلونَ.

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

أي: دُخولُ الجنَّةِ والخلودُ فيها أعظَمُ فَوزٍ يحصُلُ به كلُّ مرغوبٍ، وينَدفِعُ به كلُّ محذورٍ.

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (101–102)

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ
نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ
خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)

غريب الكلمات:

مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ: أي: عَتَوا فيه ومَرِنوا عليه، وأصلُ (مرد): يدلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يعلوه مِن شَعْرِه.

خَلَطُوا: أي: تعاطَوْا هذا مرَّةً وذاك مرَّةً، وأصلُ الخَلطِ: الجَمعُ بين أجزاءِ الشَّيئينِ.

تفسير الآيتين:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101)﴾.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ

أي: ومِن سكَّانِ البوادي الذين حولَ مَدينَتِكم- أيُّها المسلمونَ- مُنافِقونَ.

وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ.

أي: ومِن أهلِ المدينةِ النَّبويَّةِ مُنافقونَ تمرَّنوا على النِّفاقِ، حتى أصبح سجيَّةً لهم مِن غيرِ تكلُّفٍ، ومَهَروا في إتقانِه، فلا يَشعُرُ به الآخرونَ، واستمرُّوا عليه، ولم يَتوبوا.

لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ.

أي: لا تعلَمُ- يا مُحمَّدُ- نفاقَ هؤلاءِ المَرَدةِ مِن المُنافِقينَ، ولكِنْ نحن نعلَمُهم.

سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ.

أي: سنعذِّبُ هؤلاء الذين مَرَدوا على النِّفاقِ، في الدُّنيا وفي القَبرِ.

ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ.

أي: ثم يُرَدُّ هؤلاء المُنافِقونَ بعد تعذيبِهم مرَّتينِ، إلى عذابٍ عظيمٍ في نارِ جهنَّمَ.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ [النساء: 145].

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (102).

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا.

أي: وقومٌ آخرونَ أقرُّوا بذُنوبِهم بتخَلُّفِهم عن الجهادِ مع رَسولِ اللهِ – ﷺ – في غزوةِ تَبوكَ، جَمَعوا عملًا صالحًا بالتَّوبةِ وغيرِها من الطَّاعاتِ، وعملًا سَيِّئًا بالتخَلُّفِ عن الجهادِ وغيرِ ذلك من المعاصي والسَّيِّئاتِ.(350)

عن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ – لنا: ((أتاني الليلةَ آتيانِ فابتَعَثاني، فانتهَينا إلى مدينةٍ مَبنيَّةٍ بلَبِنِ ذَهَبٍ، ولَبِنِ فِضَّةٍ، فتلقَّانا رجالٌ شَطرٌ مِن خَلْقِهم كأحسَنِ ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبَحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهَبُوا فقَعُوا في ذلك النَّهرِ، فوَقَعوا فيه، ثمَّ رَجَعوا إلينا، قد ذهَبَ ذلك السُّوءُ عنهم، فصاروا في أحسَنِ صُورةٍ، قالا لي: هذه جَنَّةُ عَدْنٍ، وهذاك مَنزِلُك، قالا:

---

(350) قال القرطبي: (يحتملُ أنَّهم كانوا مُنافِقينَ وما مَرَدوا على النِّفاقِ، ويحتمل أنَّهم كانوا مؤمنينَ).
((تفسير القرطبي)) (8/241، 242).
ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (16/132).

أمَّا القومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطرٌ منهم قَبيحٌ، فإنَّهم خَلَطوا عملًا صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تجاوَزَ اللهُ عنهم)). (351)

عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ.

أي: سيقبلُ اللهُ توبةَ أولئك الذين اعترَفوا بذُنوبِهم. (352)

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ غفورٌ يستُرُ ذُنوبَ مَن تابَ إليه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، فلا يُعَذِّبُهم بها.

كما قال عزَّ وجلَّ: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [غافر: 7-9].

---

(351) رواه البخاري (4674).

(352) قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، قال ابنُ عباسٍ والمفسِّرونَ: «عسى» مِن اللهِ واجبٌ؛ لأنَّه قال: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ [المائدة: 52] ففعَلَ ذلك، وكذلك تابَ على هؤلاءِ).
((البسيط)) (32/11).

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (103–104)

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)

غريب الكلمات:

وَتُزَكِّيهِمْ: أي: تُطَهِّرُهم، وتُنَمِّيهم وتَرفَعُهم، وأصلُ (زكو): يدلُّ على نماءٍ وزيادةٍ.

وَصَلِّ: أي: استَغفِرْ وادعُ لهم.

سَكَنٌ: أي: تثبيتٌ لهم، وطُمأنينةٌ وسكونٌ، وأصلُ (سكن): يدلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحَرَكةِ.

تفسير الآيتين:

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103).

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

أي: خُذ- يا محمَّدُ- من أموالِ المُسلِمينَ[353] صَدقةً[354] تُطَهِّرُهم[355] مِن دَنَسِ ذُنوبِهم.

---

(353) ذهَب بعضُ المفسِّرينَ إلى أن الضَّميرَ في قولِه:أَمْوَالِهِمْ يعودُ إلى الذين اعترَفوا بذنوبِهم، فتابوا منها.
وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (659/11)، ((تفسير ابن عاشور)) (22/11).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاسٍ، وزيدُ بنُ أسلمَ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيدٍ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (659/11).
وذهب بعضُهم إلى أنَّ المرادَ العمومُ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (207/4)، ((تفسير الشوكاني)) (454/2).
(354) قيل: المرادُ بها: الزَّكاةُ المفروضةُ، وممَّن اختار ذلك: السعدي.
يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 350).
وأكثرُ الفقهاءِ استدلُّوا بهذه الآيةِ في إيجابِ الزَّكوات.
يُنظر: ((تفسير الرازي)) (134/16).
(355) قال القرطبي: (تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا حالَين للمُخاطَب، التقديرُ: خُذْها مُطَهِّرًا لهم ومُزَكِّيًا لهم بها.
ويجوزُ أن يجعَلَهما صِفتينِ للصَّدقة، أي صدقةً مُطَهِّرةً لهم مُزَكِّيةً، ويكون فاعِلُ تُزَكِّيهِمُ المُخاطَب، ويعودُ الضَّميرُ الذي في بِهَا على الموصوفِ المُنكَّرِ).
((تفسير القرطبي)) (249/8).
وقال ابنُ عاشور: (التاءُ في تُطَهِّرُهُمْ تحتمِلُ أن تكونَ تاء الخطابِ؛ نَظرًا لِقَولِه: خُذْ، وأن تكونَ تاء الغائبةِ عائدةً إلى الصَّدقةِ.
وأيًّا ما كان، فالآية دالَّةٌ على أنَّ الصَّدقةَ تُطَهِّر وتزكِّي).
((تفسير ابن عاشور)) (22/11).

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((والصَّدَقةُ تُطفِئُ الخَطيئةَ كما يُطفِئُ الماءُ النَّارَ)).(356)

وَتُزَكِّيهِم بِهَا.

أي: وتُنَمِّي أموالَهم، وتزيدُ في أخلاقِهم الحسَنةِ، وأعمالِهم الصَّالحةِ، وفي ثوابِهم الدُّنيويِّ والأُخرويِّ.

وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ.

أي: وادْعُ– يا مُحَمَّدُ– للمُسلِمينَ عند أخْذِك صَدَقاتِهم؛ لأنَّ دُعاءَك لهم طُمأنينةٌ، وراحةٌ لقُلوبِهم.

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ – ﷺ – إذا أتاه قومٌ بصَدَقتِهم قال: اللَّهُمَّ صَلِّ عليهم، فأتاه أبي أبو أوفَى بصَدَقتِه، فقال: اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفَى)).(357)

---

(356) أخرجه أحمد (15284)، وأبو يعلى في ((المسند)) (1999)، وابن حبان في ((الصحيح)) (1723)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (5377).

صحَّح إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (58/2)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (866)، وحسَّنه الوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (564).

(357) اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفَى: أي: اغفِرْ لهم وارحَمْهم.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (79/3).

رواه البخاري (1497)، ومسلم (1078).

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عبادِه، مُجيبٌ لِدُعائِهم- ومن ذلك سماعُه دُعاءَ النبيِّ - ﷺ - عليمٌ بنيَّاتِهم وأحوالِهم، ويُجازيهم بحسَبِ أعمالِهم.

أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104).

أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ.

أي: ألَم يَعلَمُوا[358] أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الذي يقبَلُ التَّوبةَ من التَّائبينَ، ويقبَلُ الصَّدَقاتِ مِن عبادِه إذا كانت طيِّبةً خالصةً للهِ ربِّ العالَمينَ؟

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ، فقال: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا

(358) قال محمد رشـيد رضـا: (أي: ألم يعلَمْ أولئك التائبونَ من ذَنبِهم أنَّ اللهَ هو الذي يقبلُ توبةَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ولم يجعَلْ ذلك لرسولِه، بَلْهَ مَن دونه مِن خَلْقِه، فالاستفهامُ لتقريرِ ما دلَّ عليه القرآنُ، وكونه هو الذي حمَلَهم على التَّوبةِ- أو ألمْ يعلَمِ المؤمنون كافَّةً هذا، وهو مقتضى الإيمانِ ومُوجِبُه؟ والاستفهامُ على هذا تحضيضٌ على هذا العِلمِ وما يستلزِمُه من التَّوبة وقبولُ التوبةِ عنهم.

قيل: إنَّه بمعنى قَبولِها منهم، نحو: لا صـدقةَ إلَّا عن غنًى ومن غِنًى، وقيل: إنَّ القبولَ هنا قد تضـمَّنَ معنى التجاوُزِ والصَّـفحِ، أي: هو الذي يقبَلُها منهم متجاوِزًا عن ذنوبِهم عَفوًا عنها، وهذا أبلَغُ).

((تفسير المنار)) (26/11).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (24/11).

صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ [المؤمنون: 51]، وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ [البقرة: 172] ثمَّ ذكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشعَثَ أغبَرَ، يمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حرامٌ، ومَلبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ، فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!)).(359)

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ من طيِّبٍ– ولا يقبلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ– إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإن كانت تمرةً، فتَربُو في كفِّ الرَّحمنِ حتى تكونَ أعظمَ من الجبلِ، كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه(360) أو فصيلَه(361))).(362)

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أي: وأيضًا ألم يعلموا أنَّ الله كثيرُ التَّوبةِ عن عبادِه، ويعفو عمَّن تاب إليه، ولو تكرَّرَ منه الذَّنبُ مِرارًا، واسِعُ الرَّحمةِ بالتَّائبينَ، فلا يُعاقِبُهم بل يُثيبُهم.

---

(359) رواه مسلم (1015).

(360) الفَلُوُّ: المُهرُ، وهو الصَّغيرُ من أولادِ الفرَسِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه فُصِلَ وعُزِلَ عن أمه.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (7/99).

(361) الفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أمِّه.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (7/99).

(362) رواه البخاري (1410)، ومسلم (1014) واللفظ له.

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (105–106)

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
(106)

غريب الكلمات:

مُرْجَوْنَ: أي: مُؤَخَّرونَ، وأصلُ (رجأ): يدلُّ على التَّأخيرِ.

تفسير الآيتين:

وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105).

وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ.

أي: وقُل- يا مُحمَّدُ-: اعمَلوا؛(363) فسيَرَى اللهُ أعمالَكم كُلَّها؛ ظاهِرَها وخَفِيَّها، فيُجازيكم عليها، ويرى رسولُ اللهِ والمؤمِنونَ ما يُطلِعُهم اللهُ عليه منها، فيَشهَدونَ عليكم بالخَيرِ أو الشَّرِّ.

---

(363) اختلف المفسِّرون فيمنْ توجَّه إليه الأمرُ هاهنا، فقيل: هو للذينَ اعتَذَروا من المتخَلِّفينَ وتابوا.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وأبو حيانَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/667)، ((تفسير أبي حيان)) (5/501).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/296).

وقيل: هو للذينَ اعتَذَروا ولم يتوبوا.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (3/80).

وقيل: الخِطابُ عامٌّ.

وممَّن اختار ذلك: الواحديُّ، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((الوجيز)) (ص: 480)، ((تفسير القرطبي)) (8/252).

قال ابنُ عاشور: (حُذِفَ مفعولُ (اعملوا)؛ لأجلِ التَّعويلِ على القرينةِ، ولأنَّ الأمرَ مِن اللهِ لا يكونُ بعَملٍ غيرِ صالحٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (11/25).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مَرُّوا بجِنازةٍ، فأثنَوْا عليها خيرًا، فقال النبيُّ - ﷺ -: وَجَبَت، ثمَّ مَرُّوا بأخرى، فأثنَوا عليها شَرًّا، فقال: وَجَبَت، فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: ما وجَبَت؟! قال: هذا أثنَيتُم عليه خيرًا، فوجَبَت له الجنَّةُ، وهذا أثنَيتُم عليه شرًّا، فوجبَتْ له النَّارُ؛ أنتم شُهداءُ اللهِ في الأرضِ)).(364)

وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ-: وستُرجَعون يوم القيامةِ إلى اللهِ الذي يعلَمُ ما غاب وما يُشاهَدُ، فيَعلمُ سرائِرَكم وعلانِيتَكم، لا يخفَى عليه شيءٌ من أمورِكم.

كما قال الله تعالى: وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [البقرة: 281].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ [الأنعام: 62].

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: فيُخبِرُكم اللهُ يومَئذٍ بما كُنتم تعملونَه في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، ويُجازيكم عليه.

كما قال تعالى: ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [الزمر: 7].

---

(364) رواه البخاري (1367).

وقال سُبحانه: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [النجم: 31].

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106).

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ.

أي: ومِنَ المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبوكَ قومٌ آخَرونَ مُؤخَّرٌ حُكمُهم إلى أن يقضِيَ اللهُ فيهم بما شاء؛ إمَّا أن يُعَذِّبَهم بذُنوبِهم، وإمَّا أن يوفِّقَهم للتَّوبةِ فيتوبَ عليهم.(365)

(365) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/668، 672)، ((تفسير ابن كثير)) (4/210)، ((تفسير أبي السعود)) (4/101)، ((تفسير السعدي)) (ص: 351)، ((تفسير ابن عاشور)) (11/26، 28).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى قسَّم المتخلِّفينَ عن الجهادِ ثلاثةَ أقسامٍ: القسم الأول: المُنافِقونَ الذين مَرَدوا على النِّفاق.

القسم الثاني: التَّائبون وهم المُرادون بقوله: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وبيَّن تعالى أنَّه قَبِلَ تَوبَتَهم.

والقسم الثالث: الذين بَقُوا موقوفينَ وهم المذكورونَ في هذه الآيةِ، والفَرْقُ بين القِسمِ الثاني وبين هذا الثَّالث، أنَّ أولئك سارَعوا إلى التوبةِ، وهؤلاء لم يسارِعوا إليها).

((تفسير الرازي)) (16/144).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ وعامَّةُ المفسِّرينَ: نزلت هذه الآيةُ في ثلاثةِ نَفَرٍ: كعبِ بنِ مالكٍ من بني سَلِمةَ، وهلالِ ابن أميَّة الواقفيِّ، ومُرارةَ بنِ الرَّبيعِ الزَّبيديِّ، كانوا تخلَّفوا عن غزوةِ تَبوكَ وكانوا مياسيرَ، ثم لم يتَّسِعْ لهم العذرُ كما اتَّسع للآخرينَ الذين ذُكِروا قبل هذا، ولم يبالِغوا في التنصُّلِ والاعتذارِ كما فعل الآخرون، ولم يُوثِقوا أنفُسَهم بالسَّواري، فوقف رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرَهم، ونهى النَّاسَ عن مكالَمتِهم ومُخالَطتِهم، حتى نزلَ قولُه تعالى: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا [التوبة: 118] الآيات، بعد خمسين ليلةً).

((البسيط)) (11/42).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/210).

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بأحوالِ هذا الفَريقِ ونيَّاتِه، وبما يستحِقُّونَه مِن عُقوبةٍ أو عفْوٍ، حكيمٌ في حُكمِه فيهم، وفي جميعِ أقوالِه وأفعالِه، فيَضَع كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (107–110)

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا
لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
(109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
(110)

غريب الكلمات:

ضِرَارًا: أي: مُضارَّةً، وأصلُ (ضرر): خِلافُ النَّفعِ.

وَإِرْصَادًا: أي: ترقُّبًا بالعَداوةِ. وَيُقَال أرصدتُ له الشَّيْء، إذا جعلتَه له عدَّةً. والرَّصَدُ: الاستعداد للترقُّبِ، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التهيُّؤِ لرِقْبَةِ شَيءٍ على مَسلَكِه.

أُسِّسَ: أي: ابتُدِئَ أساسُه، وأصلُ (أس): يدلُّ على الأصلِ والشَّيءِ الوطيدِ الثَّابتِ.

شَفَا جُرُفٍ هَارٍ: الشَّفَا: الحرفُ والحَدُّ، ويُضربُ به المثلُ في القربِ مِن الهلاكِ، والجُرُفُ والجُرْفُ: المكان الَّذى يأْكله الماءُ فيجْرُفُه أى: يذهبُ به، وما ينجَرِفُ بالسُّيولِ مِن الأودِيَةِ، وأصلُه مِن الجرفِ والاجْتِرافِ، وهو اقتلاعُ الشَّيءِ مِن أصلِه، والهار: الساقِط، يقال: هارَ البناءُ، وتَهَوَّرَ: إذا سقط، وانْهارَ.

رِيبَةً: أي: شكًّا ونِفاقًا، وأصلُ (ريب): يدلُّ على شَكٍّ.

تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ: أي: تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيَموتوا، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ.

تفسير الآيات:

وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107).

وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا.

أي: ومنهم- أي المُنافِقينَ- الذين بَنَوا مَسجِدًا في المدينةِ؛ مُضارَّةً للمُؤمِنينَ ولِمَسجِدِهم الذي يجتَمِعونَ فيه، وكُفرًا باللهِ عزَّ وجلَّ.(366)

وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: وبَنى المُنافِقونَ مَسجِدَهم؛ لأجلِ التَّفريقِ بين جماعةِ المُؤمنينَ، فيصلِّي بعضُهم في مسجِد، وبَعضُهم في مسجِد آخر، فيتفرَّقوا ويختَلِفوا بسبب ذلك.(367)

---

(366) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (672/11، 674)، ((معاني القرآن)) للزجاج (468/2)، ((تفسير القرطبي)) (257/8)، ((تفسير السعدي)) (ص: 351)، ((البسيط)) للواحدي (43/11).

قال الواحدي: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا معطوفٌ على ما قبْلَه مِن قولِه: وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ [التوبة: 101] وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا [التوبة: 102] وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ [التوبة: 106] أي: ومِنهم آخرونُ).

يُنظَر: ((البسيط)) للواحدي (43/11).

(367) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (674/11)، ((تفسير ابن عطية)) (82/3)، ((تفسير القرطبي)) (257/8)، ((تفسير السعدي)) (ص: 351).

قال ابن عطية: (قَولُه بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يريدُ: بين الجماعةِ التي كانت تصلِّي في مسجِدِ قُباءٍ؛ فإنَّ مَن جاوَزَ مَسجِدَهم كانوا يَصرِفونه إليه، وذلك داعيةٌ إلى صَرْفِه عن الإيمانِ، وقيل: أراد بقَولِه بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ جماعةَ مسجِدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا بحسَبِ الخِلافِ في المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى).

وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ.

أي: وبَنَوه كذلك إعدادًا وانتظارًا وترقُّبًا لمَجيءِ مَن حاربَ اللهَ ورسولَه مِن قَبلِ بِناءِ هذا المسجِدِ.(368)

وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى.

أي: وسيَحلِفُ لكم المُنافقونَ الذين بَنَوا مسجِدَ الضِّرارِ أنَّهم ما أرادوا ببِنائِه إلَّا الخَيرَ للمُسلمينَ والرِّفقَ بهم؛ إحسانًا إلى الضُّعَفاءِ والعاجِزينَ منهم، بجَعْلِهم مسجِدَ الضِّرارِ أقرَبَ إليهم مِن غَيرِه.

وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ المُنافِقينَ لكاذِبونَ في حَلِفِهم ذلك، وإنَّما بَنَوه ضِرارًا، وكُفرًا باللهِ، وتفريقًا بين المُؤمِنينَ، وإرصادًا لِمَن حارَبَ اللهَ ورسولَه.

((تفسير ابن عطية)) (82/3).

(368) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (674/11)، ((البسيط)) للواحدي (46/11)، ((تفسير ابن عطية)) (82/3)، ((تفسير القرطبي)) (257/8)، ((تفسير ابن كثير)) (212/4)، ((تفسير أبي السعود)) (102/4)، ((تفسير الشوكاني)) (458/2، 459)، ((تفسير السعدي)) (ص: 351)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/11).

قال محمد رشيد رضا: (اتَّفَقَ المفَسِّرونَ على أنَّ الذي أغراهم ببناءِ هذا المسجِدِ لهذا الغَرَضِ رجلٌ مِن الخزرَجِ، يُعرَفُ بأبي عامرٍ الرَّاهب، وَعَدَهم بأنْ سيأتيهم بجيشٍ مِن الرُّومِ لقتالِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه).

((تفسير المنار)) (32/11).

لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108).

لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا.

أي: لا تُصَلِّ– يا مُحمَّدُ– في مسجِدِ المُنافِقينَ ما عِشْتَ أبدًا.[369]

لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ.

أي: لَمسجِدٌ أُسِّسَ بنيانُه على تقوى اللهِ مِن أوَّلِ يومٍ ابتدَأ بانُوه في تأسيسِه– وهو مسجِدُ قُباءٍ، ومِثلُه بل أولَى منه في الحُكمِ المَسجِدُ النَّبويُّ– أَولى بأن تقومَ فيه– يا مُحمَّدُ– للصَّلاةِ والعبادةِ.[370]

---

(369) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (681/11)، ((البسيط)) للواحدي (48/11)، ((تفسير ابن كثير)) (212/4)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (34/11)، ((تفسير السعدي)) (ص: 352).

قال ابن كثير: (قولُه: لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا نهيٌ من الله لرَسولِه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، والأمَّةُ تبَعٌ له في ذلك، عن أن يقومَ فيه، أي: يصلِّيَ فيه أبدًا).

((تفسير ابن كثير)) (212/4).

(370) اختلَف السلفُ في المسجد الذي عناه الله بقوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ على قولين: الأول: أنّه مسجد قباء.

الثاني: أنّه مسجد النبي ﷺ.

وقد رَجَّح ابنُ جرير (١١/٦٨٥) مستندًا إلى السُّنَّة القول الثاني، فقال: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ مَن قال: هو مسجد الرسول ﷺ لِصحَّة الخبر بذلك عن رسول الله».

واستدلَّ على ذلك بالأخبار المروية عن النبي ﷺ، المتقدمة في تفسير الآية.

وبنحوه قال ابنُ عطية (٤/٤٠٧)، فقد ذكر القولين، ثم قال: «ويليق القول الأول بالقصة، إلا أنّ القول الثاني روي عن رسول الله ﷺ، ولا نظَرَ مع الحديث».

عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه، قال: ((دَخَلْتُ على رسولِ اللهِ - ﷺ - في بيتِ بعضِ نسائِه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَيُّ المسجدَيْنِ الَّذي أُسِّسَ على التَّقوَى؟ قال: فأخَذَ كَفًّا مِن حَصْباءَ، فضَرَب به الأرضَ، ثُمَّ قال: هو مَسجِدُكم هذا. لِمسجدِ المدينةِ)).[371]

عن أبي سعيدٍ أيضًا قال: ((امترى رجلٌ مِن بني خدرةَ، ورجلٌ مِن بني عمرِو بنِ عوفٍ في المسجدِ الذي أُسِّس على التقوى، فقال الخدريُّ: هو مسجدُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقال الآخرُ:

ورجّح ابنُ تيمية (٣/٤٤٨-٤٤٩ بتصرف) مستندًا لدلالة العقل، وسبب النُّزول أنّ هذا الوصف مِن حيث النزول يُراد به مسجد قباء، غير أنّ مسجد النبي أحقُّ بهذا الوصف مِن جهة الحكم، فقال: «قوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ نزلت بسبب مسجد قباء، لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحقُّ منه بذلك، وهو مسجد المدينة.

وهذا يوجه ما ثَبَت في الصحيح عن النبي ﷺ أنّه سُئِل عن المسجد الذي أسس على التقوى.

فقال: «هو مسجدي هذا».

وكلاهما مُؤَسَّس على التقوى، لكن مسجد المدينة أكمل في هذا النعت، فهو أحقُّ بهذا الاسم، ومسجد قباء كان سبب نزول الآية؛ لأنه مُجاوِرٌ لِمسجد الضِّرار الذي نُهي عن القيام فيه».

وبنحوه قال ابنُ كثير (٤/٢١٢-٢١٤بتصرف)، ثم ذكر أنّه لا منافاة بين القولين، فقال: «وقد صرَّح بأنّه مسجد قباء جماعة من السلف، وقد ورد في الحديث الصحيح: أنّ مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى.

وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنّه إذا كان مسجد قباء قد أُسِّس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأَحْرى».

(371) أخرجه مسلم (1398).

والمَزيَّة الَّتي اقتضَتْ تَعْيِينَ مسجدِه دُونَ مسجدِ قُباءَ لِما اتُّفِقَ مِن طولِ إقامَتِه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بمسجدِ المدينةِ، بخلافِ مسجدِ قُباء، فما أقامَ به إلَّا أيَّامًا قَلائِل، وأيضًا لرفعِ تَوَهُّمِ أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجدِ قُبَاء.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (245/7).

هو مسجدُ قباء، فأتيا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلك، فقال هو هذا- يعني مسجدَه- وفي ذلك خيرٌ كثيرٌ)).[372]

فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ.

أي: في مسجدِ قُباءٍ رِجالٌ من أصحابِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحبُّونَ أن يتطهَّروا مِن النَّجاساتِ ومِنَ الذُّنوبِ.

وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ.

أي: واللهُ يُحبُّ المتطَهِّرينَ المُبالِغينَ في الطَّهارةِ مِن النَّجاساتِ، ومِنَ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقرة: 222].

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109).

---

(372) أخرجه الترمذي (323) واللفظ له، والنسائي (697)، وأحمد (11178).
قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه الطبري في ((التفسير)) (39/1/7)، وقال ابنُ عبد البر في ((الاستذكار)) (319): ثابتٌ، وصحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (123)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (696).

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ.

أي: أيُّ البانِيَن خَيرٌ؛ مَن أسَّسَ بناءَ مَسجِدٍ مُتَّقيًا لله، مُخلِصًا له، طالبًا رِضاه، أم مَن أسَّسَ بناءَ مَسجِدٍ بنفاقٍ وكُفرٍ وضلالٍ، فهو كمَن يبني بناءً على طَرَفِ حُفرةٍ يُوشِكُ أن تنهارَ بما بُنِيَ عليها؟!

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ – ﷺ –، قال: ((صلاةٌ في مسجِدي هذا أفضَلُ مِن ألفِ صَلاةٍ فيما سِواه، إلَّا المسجِدَ الحَرامَ)).[373]

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((لا تشُدُّوا الرِّحالَ إلَّا إلى ثلاثةِ مَساجِدَ: مسجدي هذا، والمسجِدِ الحَرامِ، والمسجِدِ الأقصى)).[374]

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((من تطَهَّرَ في بيتِه، ثمَّ أتى مسجِدَ قُباءٍ، فصلَّى فيه صلاةً؛ كان له كأجرِ عُمرةٍ)).[375]

---

(373) رواه مسلم (1395).

(374) رواه البخاري (1995)، ومسلم (827) واللفظ له.

(375) أخرجه النسائي (699)، وابن ماجه (1412)، وأحمد (15981).

صحَّحه ابنُ تيميةَ في ((الإخنائية)) (143)، والألباني في ((إصلاح المساجد)) (198)، وصحَّح إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (347/1)، وقال ابنُ باز، كما في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (126/5): جيدٌ حسنُ الإسناد.

فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

أي: فانهار الجُرُفُ بالبُنيانِ والباني جميعًا في نارِ جهنَّم.(376)

وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ هؤلاءِ الذين بَنَوا مسجِدَ الضِّرارِ، ولا يُوفِّقُ غيرَهم ممَّن يظلِمُ نفسَه بالكُفرِ والنِّفاقِ، لا يوفِّقُهم لِما فيه مصالِحُ دِينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم، ما داموا مُقيمينَ على ظُلمِهم.

كما قال تعالى: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [آل عمران: 86].

لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110).

---

(376) أفادت الآثارُ أنّ مسجد الضرار قد انهار في نار جهنم حقيقة.

وخالف ابنُ عطية (٤/ ٤١٣) فرجّح أنّ قوله: ﴿فانهار به في نار جهنم﴾ خرج مخرج المثل، ولم يكن حقيقة، فقال: «وقوله: ﴿فانْهَارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ﴾ الظاهر منه وما صحَّ من خبرهم وهدم رسول الله – ﷺ – مسجدهم أنه خارجٌ مخْرَج المَثَل، أي: مَثَل هؤلاء المُضارِّين مِن المنافقين في قصدهم معصية الله وحصولهم من ذلك على سخطه كمن ينهار بنيانه في نار جهنم».

ثم انتقد مستندًا لعدمِ الثّبوت قولَ مَن جعل ذلك حقيقةً، فقال: «وقيل: بل ذلك حقيقة، وإنّ ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم، قاله قتادة وابن جريج.

وروي عن جابر بن عبد الله وغيره أنّه قال: رأيتُ الدخان يخرج منه على عهد رسول – ﷺ –.

ورُوِي في بعض الكتب: أنّ رسول الله – ﷺ – رآه حين انهار حتى بلغ الأرض السابعة، ففزع لذلك رسول الله – ﷺ –.

ورُوِي: أنهم لم يُصلُّوا فيه أكثر من ثلاثة أيام، أكملوه يوم الجمعة، وصلوا فيه يوم الجمعة وليلة السبت، وانهار يوم الاثنين.

وهذا كله بإسناد لين، وما قدمناه أصوب وأصح، وكذلك بقي أمره والصلاة فيه مِن قبل سفر رسول الله – ﷺ – إلى تبوك إلى أن قفَل منها».

لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ.

أي: لا يزالُ مَسجِدُ الضِّرارِ الذي بناه المُنافِقونَ يُورِثُهم نِفاقًا في قلوبِهم، وشَكًّا في الإسلامِ.

إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ.

أي: حتَّى تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيَموتوا على شَكِّهم ونِفاقِهم.

وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأحوالِ المُنافِقينَ، فيعلَمُ ما في قُلوبِهم، وما تصيرُ إليه أمورُهم في الدُّنيا والآخرةِ، حكيمٌ يضَعُ كلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به، ومِن ذلك حِكمَتُه في الحُكمِ على أولئك المُنافِقينَ ومُجازاتِهم.

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (111–112)

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ
السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

غريب الكلمات:

السَّائِحُونَ: أي: الصَّائمونَ، وأصلُ السَّائِحِ: الذَّاهِبُ في الأرضِ.

تفسير الآيتين:

إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111).

إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ.

أي: إنَّ اللهَ اشترَى من المؤمنينَ أنفُسَهم لِيُقاتِلوا بها الكُفَّار، واشترَى أموالَهم لِيَبذُلوها في جهادِهم، وجعَلَ ثَمنَ تَقديمِهم أنفُسَهم وأموالَهم في سبيلِ اللهِ، أن تكونَ لهم الجنَّةُ.

كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ [البقرة: 207].

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ.

أي: يُقاتِلُ المؤمنونَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه، فإمَّا أن يَقتُلوا الكُفَّارَ، أو يَقتُلَهم الكُفَّارُ، فسواءٌ قَتَلوا أو قُتِلَوا فقد وجَبَت لهم الجنَّةُ.

وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ.

أي: وعدًا على اللهِ ثابتًا مَكتوبًا في التَّوراةِ التي أنزَلَها على موسى، والإنجيلِ الذي أنزَلَه على عيسى، والقُرآنِ الذي أنزَلَه على مُحمَّدٍ- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّه سيُوفِّي المُجاهدينَ في سبيلِه ما وعَدَهم به، فيُدخِلُهم جنَّتَه.

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ.

أي: لا أحدَ أحسنُ وفاءً بما عاهَدَ عليه مِن اللهِ؛ فإنَّه صادِقٌ لا يُخلِفُ الميعادَ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ [آل عمران: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا [النساء: 122].

فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ.

أي: فأظهِرُوا السُّرورَ- أيُّها المُؤمنونَ المُجاهِدونَ- وافرَحوا بهذا البَيعِ الذي بايَعتُم به اللهَ.

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

أي: وهذا البَيعُ هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَرُ الكبيرُ الذي لا أعظَمَ منه؛ فالجِهادُ سببٌ لِمَغفرةِ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، ورَفعِ الدَّرَجاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [الصف: 10 – 12].

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112).

التَّائِبُونَ.

أي: الذين اشترَى اللهُ منهم أنفُسَهم وأموالَهم، هم الرَّاجِعونَ مِن مَعصيةِ اللهِ إلى طاعَتِه.

الْعَابِدُونَ.

أي: الذين ذَلُّوا لِلَّه وأطاعوه؛ محبةً له، واجتَهَدوا في عبادَتِه وَحْدَه.

الْحَامِدُونَ.

أي: الذينَ يَحمَدونَ اللهَ في جميعِ أحوالِهم.

السَّائِحُونَ.

أي: الصَّائِمونَ.

الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ.

أي: المُصَلُّونَ الرَّاكِعونَ والسَّاجِدونَ في صَلَواتِهم المكتوبةِ والمَندوبةِ.

الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ.

أي: الذينَ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ ما أمَرَ اللهُ ورسولُه به، من الإيمانِ باللهِ وطاعتِه وطاعةِ رَسولِه، ويَنهَونَهم عن كلِّ ما نهى اللهُ ورسولُه عنه، مثل الشِّركِ باللهِ ومَعصِيَته ومَعصيةِ رَسولِه.

وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ.

أي: والعامِلونَ بأمرِ اللهِ ونَهيِه، الذينَ لا يُضَيِّعونَ شَيئًا من أحكامِ شَريعتِه.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: وبَشِّرْ- يا مُحمَّدُ- جميعَ المؤمنينَ، بكُلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (113–116)

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)

غريب الكلمات:

لَأَوَّاهٌ: أي: كثيرُ التَّوجُّعِ شَفَقًا وفَرَقًا، كثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله، وكلُّ كلامٍ يدُلُّ على حُزنٍ يُقالُ له: التَّأَوُّه.

حَلِيمٌ: أي: بَطيءُ الغَضَبِ، يَصبِرُ على الأذى. والحِلمُ: الأناةُ والسُّكونُ مع القُدرةِ والقُوَّةِ، وأصلُ (حلم): يدلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ.

تفسير الآيات:

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113).

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ

عن سعيدِ بنِ المُسيِّبِ، عن أبيه، قال: ((لَمَّا حَضَرت أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه رسولُ اللهِ – ﷺ – ، فوجَدَ عنده أبا جهلٍ، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أميَّةَ بن المُغيرةِ، فقال رسولُ الله – ﷺ –: يا عَمِّ، قلْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، كَلِمةً أشهَدُ لك بها عند اللهِ، فقال أبو جهلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أميَّةَ: يا أبا طالبٍ، أترغَبُ عن ملَّةِ عبد المطَّلِب؟! فلم يزَلْ رسولُ اللهِ – ﷺ – يَعرِضُها عليه، ويُعيدُ له تلك المقالةَ، حتى قال أبو طالبٍ آخِرَ ما كلَّمَهم: هو على مِلَّةِ عبد المطَّلِب، وأبى أن يقولَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال رسولُ الله – ﷺ –: أمَا واللهِ لأستَغفِرَنَّ لك ما لم أُنهَ عنك، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، وأنزل اللهُ تعالى في أبي طالبٍ، فقال لِرَسولِ اللهِ – ﷺ –: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)) [القصص: 56].(377)

(377) رواه البخاري (3884)، ومسلم (24) واللفظ له.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ.

أي: ما ينبغي للنبيّ محمَّدٍ – ﷺ – والمؤمنينَ أن يسألوا اللهَ المَغفِرةَ للَّذينَ يَعبُدونَ معه غيرَه.

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفَسِّرين: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عرَضَ على عمِّه أبي طالبٍ الإسلامَ عند وفاتِه، وذكَرَ له وجوبَ حَقِّه عليه، وقال: ((أعِنّي على نفسِك بكلمةٍ أشفَعُ لك بها عندَ الله يومَ القيامة))، فأبى أبو طالبٍ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم: ((لأستغفِرَنَّ لك حتى أُنهى عن ذلك)) فاستغفَرَ له بعدما مات، فاستغفَرَ المُسلِمونَ لآبائهم وذوي قَراباتِهم، فنزلت هذه الآيةُ...

واستبعَدَه الحسينُ بن الفضل؛ لأنَّ هذه السورةَ مِن آخرِ القُرآنِ نُزولًا، ووفاةُ أبي طالبٍ كانت بمكَّةَ في عنفوانِ الإسلامِ، والله أعلم).

((البسيط)) (73/11).

وقال الرازي: (هذا الاستبعادُ عندي مُستبعَدٌ، فأيُّ بأسٍ أن يقالَ: إنَّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ بَقِيَ يستغفِرُ لأبي طالبٍ من ذلك الوقتِ إلى وقتِ نُزولِ هذه الآية؟! فإنَّ التَّشديدَ مع الكفَّارِ إنَّما ظهر في هذه السُّورة، فلعلَّ المؤمنينَ كان يجوزُ لهم أن يستغفِروا لأبوَيهم مِن الكافرين، وكان النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضًا يفعَلُ ذلك، ثمَّ عند نزولِ هذه السُّورةِ مَنَعَهم اللهُ منه، فهذا غيرُ مُستبعَدٍ في الجملة).

((تفسير الرازي)) (157/16).

وقال ابنُ حجر: (قولُه: فنزلَت: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، ونزلت: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، أمَّا نزولُ هذه الآيةِ الثَّانية فواضِحٌ في قصة أبي طالبٍ، وأمَّا نزولُ التي قبلها ففيه نظرٌ، ويظهَرُ أنَّ المرادَ أنَّ الآيةَ المتعلِّقةَ بالاستغفارِ نزلت بعد أبي طالبٍ بمدَّةٍ، وهي عامَّةٌ في حقِّه وفي حقِّ غيرِه، ويوضِّحُ ذلك ما سيأتي في التَّفسيرِ بلفظِ: فأنزل اللهُ بعد ذلك: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا الآية، وأنزل في أبي طالبٍ: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، ولأحمد من طريقِ أبي حازم عن أبي هريرةَ في قصَّة أبي طالبٍ قال: فأنزل الله إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ).

((فتح الباري)) (195/7).

وقال القاسمي: (ساق المفسِّرون هاهنا رواياتٍ عديدةً في نزولِ الآيةِ، ولَمَّا رآها بعضُهم مُتنافيةً حاول الجمعَ بينها بتعدُّدِ النُّزول، ولا تنافيَ؛ لِمَا قدَّمناه من أنَّ قولَهم: نزلت في كذا.

قد يرادُ به: أنَّ حكمَ الآيةِ يشمَلُ ما وقَعَ مِن كذا، بمعنى: أنَّ نزولَها يتناولُه.

وقد يرادُ به: أنَّ كذا كان سببًا لنزولِها، وما هنا من الأوَّلِ، ونظائرُه كثيرةٌ في التنزيلِ).

((تفسير القاسمي)) (515/5).

وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى.

أي: ولو كانوا مِن أقاربِهم.

كما قال تعالى: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ [المجادلة: 22].

وعَن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قَالَ: ((زارَ النَّبِيُّ - ﷺ - قبرَ أُمِّه، فبَكَى وأبكَى مَن حولَه، فقالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أنْ أستغْفِرَ لها فلم يُؤْذَنْ لي، واستأذنْتُه في أنْ أزورَ قبرَها فأُذِنَ لي، فَزُوروا القبورَ فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ)).[378]

مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.

أي: مِن بعدِ ما تبيَّن لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ أنَّ المُشركِينَ هم أهلُ النَّارِ الخالِدونَ فيها؛ بموتِهم على الكُفرِ.

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114).

(378) أخرجه مسلم (976).

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ.

أي: وما وقعَ استغفارُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه، إلَّا بِسبَبِ وَعدِه له بأنَّه سيستغفِرُ له.

كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولَه: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [إبراهيم: 41].

وقال سُبحانه عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا [مريم: 46–47].

وقال عزَّ وجَلَّ حاكيًا عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولَه: وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ [الشعراء: 86].

وقال تبارك وتعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ [الممتحنة: 4].

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

أي: فلمَّا عَلِمَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ أباه عدوٌّ لله، تبرَّأَ منه، وترَكَ الاستغفارَ له.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ.

أي: إنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لكثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله؛ خوفًا وحَزنًا، صابرٌ على أذى النَّاسِ له، ذو رحمةٍ بهم، وصفحٍ عما يصدرُ منهم إليه.

كما قال تعالى: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ [هود: 74 – 76].

وقال سبحانه: قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا [مريم: 46 – 48].

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115).

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ.

أي: وليس من سُنَّةِ اللهِ في خَلْقِه، ولا مِن حِكمَتِه وعَدْلِه أن يُضِلَّ قومًا بعد هِدايَتِه لهم إلى الإيمانِ، حتى يبيّنَ لهم ما يجِبُ عليهم تركُه، فإذا بيَّنَ لهم ولم يتَّقوا استحَقُّوا إضلالَه لهم، وعقابَه عليهم.

كما قال تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: 115].

وقال سُبحانه: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [فصلت: 17–18].

إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بجميعِ الأشياءِ، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ.

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (116).

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه له سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، لا شَريكَ له في خَلْقِه ولا تَدبيرِه ولا تشريعِه.

يُحْيِي وَيُمِيتُ.

أي: اللهُ وَحْدَه يُحيي مَن يشاءُ، ويُميتُ مَن يَشاءُ.

كما قال سبُحانَه: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الحديد: 2].

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ.

أي: وما لكم– أيُّها النَّاسُ– من أحدٍ غيرِ اللهِ ينفَعُكم، وما لكم من أحدٍ سواه ينصُرُكم، ويدفَعُ عنكم ما يضُرُّكم.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (117-119)

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا
كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ **(117)** وَعَلَى الثَّلَاثَةِ
الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ
لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ **(118)** يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ **(119)**

غريب الكلمات:

يَزِيغُ: أي: تَعدِلُ وتَميلُ عن الحَقّ، وأصلُ (زيغ): يدلُّ على مَيلِ الشَّيءِ عن الاستقامةِ.

رَءُوفٌ: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ.

رَحُبَتْ: أي: اتَّسَعَت، وأصلُ (رحب): يدلُّ على سَعةٍ.

مَلْجَأَ: أي: حِرْزَ أو مَعْقِلَ، أو نَجاة، وأصلُ (لجأ): يدلُّ على المكانِ يُلتَجأُ إليه.

تفسير الآيات:

لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (117).

لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ.

أي: لقد رزَق اللهُ الإنابةَ إلى أمرِه وطاعتِه، نبيَّه محمَّدًا، وأصحابَه الذين هاجَروا مِن دِيارِهم، وأهلَ المدينةِ النبويَّةِ، الذين نَصَروا دينَ اللهِ، وناصَروا مَن هاجَرَ إليهم، وتجاوَز عنهم، وغفَر لهم.[379]

---

(379) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/49)، ((تفسير البغوي)) (2/396)، ((تفسير السعدي)) (ص: 354)، ((تفسير ابن عاشور)) (11/50).

قال ابنُ عطيَّةَ: (التَّوبةُ مِن الله: رجوعُه بعَبْدِه من حالةٍ إلى أرفَعَ منها، فقد تكونُ في الأكثَرِ رُجوعًا مِن حالةِ طاعةٍ إلى أكمَلَ منها، وهذه توبتُه في هذه الآيةِ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه رجع به من حالَةٍ قبل تحصيلِ الغزوةِ وأَجْرِها وتحمُّلِ مَشاقِّها إلى حالَةٍ بعد ذلك أكمَلَ منها، وأمَّا توبتُه على المُهاجِرينَ والأنصارِ، فحالُها معرَّضةٌ لأنْ تكونَ مِن تقصيرٍ إلى طاعةٍ وَجِدٍّ في الغزوِ ونُصرةِ الدِّينِ، وأمَّا توبتُه على الفَريقِ الذي كاد أن يزيغَ، فرجوعٌ من حالةٍ محطوطةٍ إلى حالِ غُفرانٍ ورِضًا).

((تفسير أبي حيان)) (5/516).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (3/92).

وقال القرطبي: (اختلَفَ العُلَماءُ في هذه التَّوبةِ التي تابها اللهُ على النبيِّ والمُهاجِرينَ والأنصارِ على أقوالٍ: فقال ابنُ عبَّاسٍ: كانت التوبةُ على النبيِّ؛ لأجل إذْنه للمُنافِقينَ في القعود.

دليلُه قولُه تعالى: عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ [التوبة: 43].

وعلى المؤمنينَ مِن مَيلِ قُلوبِ بَعضِهم إلى التخَلُّفِ عنه.

وقيل: توبةُ اللهِ عليهم استنقاذُهم مِن شِدَّةِ العُسرةِ.

وقيل: خَلاصُهم مِن نكايةِ العَدُوِّ، وعبَّرَ عن ذلك بالتَّوبةِ وإن خرَجَ عن عُرفِها؛ لوجودِ معنى التوبةِ فيه، وهو الرُّجوعُ إلى الحالةِ الأولى.

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ.

أي: الذين أطاعوا نبيَّه بالخُروجِ معه في غزوةِ تَبُوكَ في وقتِ العُسرةِ؛ بسَبَبِ شِدَّةِ الحَرِّ، وطُولِ السَّفَرِ، وقِلَّةِ الرَّاحلةِ والماءِ، والطَّعامِ والنَّفَقةِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه قيل لعُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في شَأنِ العُسرةِ، فقال عمر: ((خَرَجْنا مع رسولِ الله – ﷺ – إلى تَبُوكَ في قَيظٍ شَديدٍ، فنَزَلْنا مَنزِلًا أصابَنا فيه عطَشٌ، حتى ظنَنَّا أنَّ رِقابَنا ستنقَطِعُ، حتى إن كان الرَّجُلُ لَيَذهَبُ يلتَمِسُ الماءَ فلا يرجِعُ حتى يظُنَّ أنَّ رَقَبَته ستنقَطِعُ، حتى إنَّ الرَّجُلَ لَينحَرُ بَعيرَه فيعصِرُ فَرْثَه فيَشرَبُه، ويجعَلُ ما بَقِيَ على كَبِدِه؛ فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الله قد عَوَّدَك في الدُّعاءِ خيرًا، فادعُ لنا. قال: تحِبُّ ذلك؟ قال: نعم. فرَفَعَ يدَيه، فلم يَرجِعْهما حتى قالتِ السَّماءُ، فأظَلَّتْ ثم سَكَبَت، فمَلَؤوا ما معهم، ثم رَجَعْنا ننظُرُ فلم نَجِدْها جاوَزَتِ العَسكَرَ))![380]

وقال أهلُ المعاني: إنَّما ذُكِرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التوبةِ؛ لأنَّه لَمَّا كان سببَ توبَتِهم ذُكِرَ معهم، كقوله تعالى: فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ [الأنفال: 41]).

((تفسير القرطبي)) (8/278).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (16/161، 162)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (15/51).

(380) أخرجه البزار (214)، وابن خزيمة (101)، وابن حبان (1383)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (3292).

قال الضياء المقدسي في ((السنن والأحكام)) (1/232): إسناده على شرط الصحيح، وحسَّنه وقوَّاه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (2/635)، وجوَّد إسناده وقوَّاه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (6/96)، وقال ابنُ الملقِّن في ((شرح البخاري)) (4/453): إسنادُه على شرطِ الصحيح كما قال الضياء، ووثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (6/197)، وقال الألباني في ((فقه السيرة)) (407): حسنٌ أو صحيحٌ.

مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ.

أي: تاب اللهُ على النبيِّ وأصحابِه الذين اتَّبَعوه في غزوةِ تَبُوكَ، من بعد ما أوشَكَت قلوبُ بعضِ الصَّحابةِ أن تميلَ عَنِ الحَقِّ، فيَشُكُّوا ويَرتابوا؛ بسبَبِ المشَقَّةِ الشَّديدةِ التي نالَتْهم في تلك الغَزوةِ.[381]

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ.

أي: ثمَّ رزق اللهُ الصَّحابةَ- الذين كادَتْ قُلوبُهم أن تزيغَ- الإنابةَ إلى ربِّهم، والرجوعَ إلى الثباتِ على دينِه.

---

(381) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (49/12)، ((معاني القرآن)) للزجاج (474/2)، ((البسيط)) للواحدي (82/11)، ((تفسير الرازي)) (163/16)، ((تفسير القرطبي)) (280/8، 281)، ((تفسير ابن كثير)) (229/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 354)، ((تفسير ابن عاشور)) (50/11).

وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (49/12)، ((تفسير ابن كثير)) (229/4).

وقيل: المرادُ: مِن بَعدِ ما كادوا يَرجِعونَ مِن غَزوتِهم؛ للشِّدَّةِ، وليس المرادُ الزَّيغَ عن الإيمانِ.

وممَّن اختار ذلك: الزجاج.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (474/2).

وقيل: المرادُ: مِن بَعدِ أن خامَرَ فريقًا منهم خاطرُ التَّثاقُلِ والقُعودِ والمعصيةِ، بحيث يُشبِهونَ المُنافِقينَ، وذلك قبل الخروجِ للغزوِ.

وممن اختار ذلك: ابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (50/11).

إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ.

أي: تاب اللهُ على الفريقِ الذين كادَتْ قُلوبُهم أن تزيغَ عنِ الحقِّ؛ لأنَّ اللهَ بصَحابةِ نَبيِّه رؤوفٌ رحيمٌ، ومن رأفتِه ورَحمَتِه بهم أنَّه لا يريدُ إهلاكَهم، بل رزَقَهم التَّوبةَ وعافاهم مِن زَيغِ القُلوبِ وثَبَّتَهم.

وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118).

سببُ النُّزولِ:

عن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، يحَدِّثُ حديثَه حين تخلَّفَ عن رسولِ الله - ﷺ - في غزوةِ تَبُوكَ، قال كعبُ بنُ مالكٍ: ((لمْ أتخلَّفْ عن رسولِ اللهِ - ﷺ - في غزوةٍ غزاها قطُّ، إلَّا في غزوةِ تبوكَ، غيرَ أنِّي قد تخلَّفتُ في غزوةِ بدرٍ، ولم يعاتِبْ أحدًا تخلَّفَ عنه، إنَّما خرج رسولُ اللهِ - ﷺ - والمُسلِمونَ، يريدون عِيرَ قريشٍ، حتى جمَعَ اللهُ بينهم وبينَ عدوِّهم على غيرِ مِيعادٍ، ولقد شهِدتُ مع رسولِ اللهِ - ﷺ - ليلةَ العَقَبةِ حين تواثقْنا على الإسلامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ، وإن كانت بدرٌ أذكَرَ في النَّاسِ منها، وكان مِن خَبَري حين تخلَّفتُ عن رسولِ اللهِ - ﷺ - في غزوةِ تبوكَ أنِّي لم أكُنْ قطُّ أقوى، ولا أيسَرَ منِّي حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغزوةِ؛ واللهِ ما جمعتُ قبلَها راحلتَين قطُّ، حتى جمعتُهما في تلك الغزوةِ، فغزاها رسولُ اللهِ - ﷺ - في حرٍّ شديدٍ، واستقبَلَ سفرًا بعيدًا

ومَفازًا،[382] واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجَلَا للمُسلِمينَ أمرَهم؛ ليتأهَّبوا أُهبَةَ غَزوِهم، فأخبَرَهم بوجهِهم الذي يريدُ، والمُسلِمونَ مع رسولِ اللهِ – ﷺ –كثيرٌ، ولا يَجمَعُهم كتابٌ حافظٌ– يريد بذلك الدِّيوانَ– قال كعبٌ: فقلَّ رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ يَظُنُّ أنَّ ذلك سيَخفى له، ما لم يَنزِلْ فيه وحيٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، وغزا رسولُ اللهِ – ﷺ – تلك الغزوةَ حين طابتِ الثِّمارُ والظِّلالُ، فأنا إليها أصعَرُ،[383] فتجهَّزَ رسولُ اللهِ – ﷺ – والمُسلِمونَ معه، وطفِقتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجِعُ ولم أقضِ شيئًا، وأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردتُ، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى استمرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصبح رسولُ اللهِ – ﷺ – غاديًا والمُسلِمونَ معه، ولم أقضِ من جَهازي شيئًا، ثمَّ غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى أسرعوا، وتفارَطَ الغَزْوُ،[384] فهمَمْتُ أن أرتحِلَ فأُدرِكَهم، فيا ليتني فعلتُ! ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي، فطفقتُ إذا خرجتُ في النَّاسِ بعدَ خروجِ رسولِ اللهِ – ﷺ –، يَحزُنُني أنِّي لا أرى لي أُسوةً إلَّا رجلًا مغموصًا[385] عليه في النِّفاقِ، أو رجلًا ممَّن عذَر اللهُ من الضُّعفاءِ، ولم

---

(382) مَفازًا: أي: بَرِّيَّةً طويلةً قليلةَ الماءِ، يُخافُ فيها الهلاكُ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (88/17).

(383) أصعَرُ: أي: أَميلُ.
يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (275/8).

(384) تفارَطَ الغَزْوُ: أي: فات وسبَقَ.
((شرح القسطلاني)) (453/6).

(385) مغموصًا عليه: أي: مُتَّهمًا مُستحقَرًا.
يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (275/8).

يَذكُرْني رسولُ اللهِ - ﷺ - حتى بلغَ تَبوكَ، فقال وهو جالسٌ في القومِ بتَبوكَ: ما فعل كعبُ بنُ مالكٍ؟ قال رجلٌ من بَني سَلِمةَ: يا رسولَ اللهِ، حبَسه بُرْدَاه، والنَّظَرُ في عِطْفَيه،(386) فقال له معاذُ بنُ جبلٍ: بئسَ ما قلتَ، واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما علِمْنا عليه إلَّا خيرًا. فسَكَتَ رسولُ اللهِ - ﷺ -، فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مُبَيّضًا(387) يزولُ به السَّرابُ، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: كُن أبا خَيثمةَ، فإذا هو أبو خيثمةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التَّمرِ حين لَمَزَه المُنافِقونَ. فقال كعبُ بنُ مالكٍ: فلمَّا بلَغَني أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - قد توجَّه قافِلًا من تبوكَ، حَضَرني بثِّي، فطَفِقْتُ أتذكَّرُ الكذبَ، وأقولُ: بمَ أَخرجُ من سخَطِه غدًا؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ من أهلي، فلمَّا قيل لي: إنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - قد أظلَّ قادمًا، زاح عني الباطلُ، حتى عرفتُ أنِّي لن أنجوَ منه بشيءٍ أبدًا، فأجمعتُ صِدْقَه، وصبَّح رسولُ اللهِ - ﷺ - قادمًا، وكان إذا قدِمَ مِن سَفرٍ بدأَ بالمَسجِدِ، فركع فيه ركعتَينِ، ثمَّ جلَسَ للنَّاسِ، فلما فعل ذلك جاءَه المُخلَّفونَ. فطَفِقوا يَعتَذِرونَ إليه ويحلِفون له، وكانوا بِضعةً وثمانينَ رَجُلًا، فقَبِل منهم رسولُ اللهِ - ﷺ - علانِيَتَهم، وبايعَهم، واستغفَرَ لهم، ووكَل سرائرَهم إلى اللهِ، حتى جئتُ، فلمَّا سَلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّمَ المُغضَبِ، ثم قال: تعالَ، فجِئْتُ أمشي حتى جلَسْتُ بين يدَيه. فقال لي: ما خلَّفَك؟ ألَم تكُنْ قد ابتَعْتَ ظهرَك؟ قال: قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي- واللهِ- لو جلستُ عند

(386) عِطفَيه: أي: جانِبَيه، وهو إشارةٌ إلى إعجابِه بنَفسِه ولِباسِه.
((شرح النووي على مسلم)) (89/17).
(387) مُبَيِّضًا: أي: عليه ثِيابٌ بِيضٌ.
يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (125/2).

غيرِك مِن أهلِ الدُّنيا، لرأيتُ أنِّي سأخرُجُ مِن سَخَطِه بعُذرٍ، ولقد أُعطِيتُ جدَلًا، ولكنِّي- واللهِ- لَقَد عَلِمْتُ لئن حدَّثتُك اليومَ حديثَ كَذِبٍ ترضَى به عني، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ، ولَئِنْ حدَّثتُك حديثَ صدقٍ تجِدُ عليَّ فيه، إنِّي لأرجو فيه عُقبَى اللهِ، واللهِ ما كان لي عُذرٌ. واللهِ ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك. قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: أمَّا هذا فقَد صَدَق، فقُمْ حتى يقضيَ اللهُ فيك، فقُمْتُ وثار رجالٌ من بني سَلِمةَ فاتَّبعوني، فقالوا لي: واللهِ ما علِمْناك أذنبتَ ذنبًا قبلَ هذا. لقد عَجَزتَ في ألَّا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ - بما اعتذر به إليه المُخلَّفونَ؛ فقد كان كافِيَك ذنبَك استغفارُ رسولِ اللهِ - ﷺ - لك. قال: فواللهِ ما زالوا يُؤنِّبونَني حتى أردتُ أن أرجعَ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، فأُكذِّبَ نفسي. قال: ثمَّ قلتُ لهم: هل لقِيَ هذا معي من أحدٍ؟ قالوا: نعم، لَقِيه معك رَجُلانِ قالا مثلَ ما قلتَ. فقيل لهما مثلُ ما قيل لك. قال: قلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ ربيعةَ العامريُّ، وهلالُ بنُ أميَّةَ الواقِفيُّ. قال: فذكروا لي رجلَينِ صالحَينِ قد شَهِدا بدرًا فيهما أُسوةٌ. قال فمضيتُ حين ذَكروهما لي. قال: ونهَى رسولُ اللهِ - ﷺ - المُسلِمينَ عن كلامِنا أيُّها الثلاثةُ، مِن بينِ مَن تخلَّف عنه. قال: فاجتنَبَنا النَّاسُ، وقال: تغيَّروا لنا حتى تنكَّرَتْ لي في نَفسي الأرضُ؛ فما هي بالأرضِ التي أعرِفُ، فلَبِثْنا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأمَّا صاحباي فاستكانا وقَعَدا في بُيوتِهما يَبكِيانِ، وأمَّا أنا فكنتُ أشبَّ القَومِ وأجلدَهم، فكُنتُ أخرُجُ فأَشهَدُ الصَّلاةَ، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسولَ اللهِ - ﷺ -، فأسَلِّمُ عليه وهو في مجلسِه بعد الصَّلاةِ، فأقولُ في نفسي: هل حرَّك شفتَيه بردِّ السلامِ أم لا؟ ثم أصلِّي قريبًا منه، وأُسارِقُه النَّظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظرَ إليَّ، وإذا

التفتُّ نَحوَه أعرَضَ عنّي، حتى إذا طال ذلك عليَّ مِن جَفوةِ المُسلِمينَ، مَشيتُ حتى تسوَّرتُ جِدارَ حائطِ أبي قتادةَ، وهو ابنُ عمِّي، وأحبُّ النَّاسِ إليَّ، فسَلَّمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ عليَّ السلامَ، فقلتُ له: يا أبا قتادةَ، أَنشُدُك باللهِ، هل تعلمَنَّ أنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسولَه؟ قال: فسَكَتَ. فعُدتُ فناشَدْتُه فسَكَتَ. فعُدْتُ فناشَدْتُه. فقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ. ففاضَتْ عيناي، وتَولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدارَ، فبَيْنا أنا أمشِي في سوقِ المدينةِ، إذا نَبَطِيٌّ مِن نَبَطِ أهلِ الشَّامِ، ممَّن قَدِمَ بالطعامِ يبيعُه بالمَدينةِ، يقول: مَن يدلُّ على كعبِ بنِ مالكٍ؟ قال: فطفِق النَّاسُ يُشيرونَ له إليَّ. حتى جاءني فدفَعَ إليَّ كتابًا من مِلك غسَّانَ، وكنتُ كاتبًا فقرأتُه، فإذا فيه: أمَّا بعدُ؛ فإنَّه قد بلَغَنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك، ولم يَجعَلْك اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضْيَعةٍ، فالحَقْ بنا نُواسِكَ. قال: فقلتُ حين قرأتُها: وهذه أيضًا من البلاءِ، فتيامَمتُ بها التَّنُّورَ فسجَرتُه بها، حتى إذا مَضَت أربعونَ مِن الخَمسينَ واستلبَثَ الوحيُ، إذا رسولُ رسولِ اللهِ – ﷺ – يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – يأمُرُك أن تعتزلَ امرأتَك. قال: فقُلتُ: أُطلِّقُها أم ماذا أفعَلُ؟ قال: لا، بل اعتَزِلْها فلا تقرَبَنَّها. قال: فأرسَلَ إلى صاحِبَيَّ بمثلِ ذلك. قال: فقلتُ لامرأَتي: الْحَقي بأهلِكِ فكوني عِندَهم حتى يقضِيَ اللهُ في هذا الأمرِ. قال: فجاءت امرأةُ هلالِ بنِ أميَّةَ رسولَ اللهِ – ﷺ –، فقالت له: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هلالَ بنَ أميَّةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادِمٌ، فهل تكرَهُ أن أخدمَه؟ قال: لا، ولكِنْ لا يَقربَنَّكِ، فقالت: إنَّه– واللهِ– ما به حركةٌ إلى شَيءٍ، وواللهِ ما زال يبكي منذ كان مِن أمرِه ما كان إلى يومِه هذا. قال: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ اللهِ – ﷺ – في امرأتِك؟ فقد أذِن لامرأةِ هلالِ بنِ أميَّةَ أن تخدمَه. قال: فقلتُ: لا أستأذنُ فيها رسولَ اللهِ – ﷺ

-، وما يُدريني ماذا يقولُ رسولُ اللهِ - ﷺ - إذا استأذنتُه فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ. قال: فلبِثْتُ بذلك عشرَ ليالٍ، فكَملَ لنا خمسونَ ليلةً مِن حينِ نُهِيَ عن كلامِنا. قال: ثمَّ صلَّيتُ صلاةَ الفَجرِ صباحَ خَمسينَ ليلةً على ظهرِ بيتٍ مِن بيوتِنا، فبَيْنا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَّا؛ قد ضاقَت عليَّ نَفسِي، وضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَت- سَمِعْتُ صوتَ صارخٍ أَوفَى على سَلْعٍ يقولُ بأعلى صوتِه: يا كعبُ بنَ مالكٍ أبشِرْ! قال فخَرَرْتُ ساجِدًا، وعرفتُ أنْ قد جاء فَرَجٌ. قال: فآذَنَ رسولُ اللهِ - ﷺ - الناسَ بتوبةِ اللهِ علينا، حين صلَّى صلاةَ الفجرِ، فذهَبَ الناسُ يبَشِّرونَنا، فذَهَبَ قِبَلَ صاحِبَيَّ مُبشِّرون، ورَكَضَ رجلٌ إليَّ فرسًا، وسعى ساعٍ مِن أسلمَ قِبَلِي، وأوفى الجبلَ، فكان الصوتُ أسرعَ من الفَرَسِ، فلمَّا جاءنِي الذي سمعتُ صوتَه يُبشِّرُنِي، فنزعتُ له ثوبَيَّ فكَسوتُهما إيَّاه ببِشارتِه، واللهِ ما أملِك غيرَهما يومَئذٍ، واستَعَرْتُ ثوبَين فلَبِسْتُهما، فانطلقتُ أتأمَّمُ رسولَ اللهِ - ﷺ -، يتلقَّانِي الناسُ فوجًا فوجًا، يُهنِّئونَنِي بالتوبةِ، ويقولون: لِتَهنِئْكَ توبةُ اللهِ عليك، حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسولُ اللهِ - ﷺ - جالسٌ في المسجدِ، وحولَه الناسُ، فقام طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ يُهروِلُ حتى صافحَنِي وهنَّأنِي، واللهِ ما قام رجلٌ من المهاجرينَ غَيرُه. قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحةَ. قال كعبٌ: فلما سلَّمتُ على رسولِ اللهِ - ﷺ - قال، وهو يبرُقُ وَجهُه من السُّرورِ ويقول: أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذُ ولدَتْك أمُّك. قال: فقلتُ: أمِن عِندِك يا رسولَ اللهِ، أم مِن عندِ اللهِ؟ فقال: لا، بل مِن عندِ اللهِ، وكان رسولُ اللهِ - ﷺ - إذا سُرَّ استنارَ وجهُه، كأنَّ وجهَه قِطعةُ قمرٍ. قال: وكنَّا نَعرِفُ ذلك. قال: فلمَّا جلستُ بين يدَيه، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ من توبتِي أن أنخلِعَ من مالِي صدقةً إلى اللهِ وإلى رسولِه

- ﷺ -. فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: أمسِكْ بعضَ مالِك؛ فهو خيرٌ لك. قال: فقلتُ: فإني أُمسِكُ سَهمي الذي بخَيبرَ. قال: وقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ إنَّما أنجاني بالصِّدقِ، وإنَّ مِن توبتي ألَّا أُحدِّثَ إلَّا صِدْقًا ما بقِيتُ. قال: فواللهِ ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمينَ أبلاه اللهُ في صدقِ الحديثِ منذ ذكرتُ ذلك لِرَسولِ اللهِ - ﷺ - إلى يومي هذا، أحسنَ ممَّا أبلاني اللهُ به. واللهِ ما تعمَّدتُ كذبةً منذُ قلتُ ذلك لرسولِ اللهِ - ﷺ - إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظَني اللهُ فيما بقِيَ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [التوبة: 118-119]. قال كعب: واللهِ ما أنعمَ اللهُ عليَّ من نعمةٍ قطُّ- بعد إذ هداني اللهُ للإسلامِ- أعظَمَ في نفسي مِن صِدقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم، ألَّا أكونَ كَذَبتُه فأهلِكَ كما هلك الذين كَذَبوا، إنَّ الله قال للذين كَذَبوا- حين أنزل الوَحيَ- شرَّ ما قال لأحدٍ، وقال الله: سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [التوبة: 95-96]، قال كعبٌ: كنا خُلِّفنا- أيُّها الثَّلاثةُ- عن أمرِ أولئك الذينَ قَبِل منهم رسولُ الله - ﷺ - حين حلَفوا له، فبايَعهم واستغفَرَ لهم، وأرجأَ رَسولُ الله - ﷺ - أمْرَنا حتى قضَى اللهُ فيه، فبذلك قال اللهُ عزَّ وجلَّ: وَعَلَى

الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا [التوبة: 118]، وليس الذي ذكَرَ اللهُ ممَّا خُلِّفْنا، تَخَلُّفَنا عن الغَزْوِ، وإنَّما هو تخليفُه إيَّانا، وإرجاؤُه أمْرَنا، عمَّنْ حلَفَ له واعتذَرَ إليه فقَبِلَ منه)).(388)

وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ.

أي: وتاب اللهُ على أصحابِ النبيِّ الثَّلاثةِ الذين أخَّرَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الحُكمَ في أمْرِهم إلى أن يَحكُمَ اللهُ تعالى فيهم، ويبُتَّ في شأنِهم.

حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ.

أي: حتى إذا ضاقَتِ الأرضُ على هؤلاءِ الثلاثةِ مع سَعَتِها، وذلك أنَّهم أُمِروا باعتزالِ أزواجِهم، ومُنِع المسلمون مِن معاملتِهم وكلامِهم، مع إعراضِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عنهم.

وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ.

أي: وضاقَتْ عليهم أنفُسُهم؛ بسبَبِ الهَمِّ والكَربِ والحُزْنِ الذي أصابَهم.

وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ.

أي: وأيقَنوا أنَّه لا شَيءَ لهم يَرجِعونَ إليه؛ لِيَسلَموا مِن عَذابِ اللهِ وسَخَطِه، ويرتَفِع عنهم الكَربُ والبَلاءُ، إلَّا اللهُ وَحْدَه دُونَ مَن سِواه.

---

(388) رواه البخاري (4418)، ومسلم (2769) واللفظ له.

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ.

أي: ثمَّ وفَّقَ اللهُ الأصحابَ الثَّلاثةَ للتَّوبةِ؛ لِتَقَعَ منهم فيَرجِعُوا إلى اللهِ، ويَستَقيموا على طاعَتِه.

إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أي: إنَّ اللهُ هو كثيرُ قَبولِ التَّوبةِ، فيُوفِّقُ مَن يشاء مِن عِباده للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منهم، واسِعُ الرَّحمةِ، ومِن رَحمتِه ألَّا يُعاقِبَ التَّائبينَ بعد تَوبتِهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ (119).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ.

أي: يا أيُّها المُؤمِنونَ اتَّقُوا اللهَ، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه.

وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ.

أي: وكونوا– أيُّها المُؤمِنونَ– مع الصَّادقينَ في إيمانِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، لا تتخَلَّفوا عن صُحبَتِهم، واتَّبِعوا سبيلَهم، والزَموا الصِّدقَ؛ لِتَكونوا معهم في الآخرةِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ، ويتحرَّى الصِّدقَ حتى

يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا، وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ ويتحَرَّى الكَذِبَ حتى يُكتَبَ عند اللهِ كذَّابًا)).(389)

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّها ستَكونُ أُمَراءُ يَكذِبونَ ويَظلِمونَ، فمن صدَّقَهم بكَذِبِهم، وأعانهم على ظُلمِهم، فليس منِّي ولستُ منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوضَ، ومَن لم يُصَدِّقْهم بكَذِبِهم، ولم يُعِنْهم على ظُلْمِهم، فهو منِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عليَّ الحوضَ)).(390)

---

(389) رواه البخاري (386)، ومسلم (2607) واللفظ له.

(390) أخرجه أحمد (23308)، والبزار (2834).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (251/5): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه ابنُ حجرٍ في ((الأمالي المطلقة)) (216)، وجوَّد إسنادَه الألباني في ((تخريج كتاب السنة)) (759).

وأخرجه من طريق آخر البزار (2832)، والطبراني (168/3) (3020).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (251/5) في إسنادِ البزارِ: رجالُه رجالُ الصحيحِ.

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (120–121)

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121)

غريب الكلمات:

نَصَبٌ: أي: تَعَبٌ ومشَقَّةٌ.

مَخْمَصَةٌ: أي: مَجاعةٌ، مُشتقَّةٌ مِن خَمَصِ البَطنِ، أي: ضُمورِه، وأصلُ (خمص): يدلُّ على الضُّمرِ والتَّطامُنِ.

مَوْطِئًا: أي: أرضًا، أو مَنزِلًا، وأصلُ (وطأ): يدلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه.

نَيْلًا: أي: قتلًا وهزيمةً أو أَسْرًا، وأصلُ (نيل): ما ينالُه الإنسانُ بِيَدِه.

تفسير الآيتين:

مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120).

مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ.

أي: ما كان ينبغي للمُسلِمينَ مِن سُكَّانِ مَدينةِ النبيِّ ومَن حولَهم مِن سُكَّانِ البوادي أنْ يتخَلَّفوا عن الخُروجِ مع رسولِ الله – ﷺ – في غزوةِ تَبوكَ.[391]

---

(391) قال ابن الجوزي: (ذهب طائفةٌ من المفَسِّرينَ إلى أنَّ هذه الآيةَ اقتضَتْ أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أن يتخَلَّفَ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا كان في أوَّلِ الأمرِ، ثمَّ نُسِخَ ذلك بقولِه: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً [التوبة: 122] ، قال أبو سليمان الدمشقي: لكلِّ آيةٍ وَجْهُها، وليس للنَّسخِ على إحدى الآيتَينِ طَريقٌ.

وهذا هو الصَّحيحُ).

((نواسخ القرآن)) (2/475).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/73)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: 527)، ((تفسير القرطبي)) (8/292)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (11/61).

وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ.

أي: وما كان ينبغي لهم أن يترَفَّعوا بأنفُسِهم عن نَفسِ النبيِّ – ﷺ –، في صُحبَتِه في الجِهادِ، ويَرضَوا لأنفُسِهم بالرَّاحةِ، والنبيُّ – ﷺ – في تعَبٍ ومَشقَّةٍ!

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ.

أي: ما كان ينبغي لهم ذلك؛ لأنَّه لا يصيبُهم في الجهادِ مِن عَطَشٍ ولا تَعَبٍ.

وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ.

أي: ولا يُصيبُهم مِن مجاعةٍ شَديدةٍ في جهادِهم لإعلاءِ كَلِمةِ الله.

وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ.

أي: ولا تَصِلُ أقدامُهم إلى أرضٍ يغضَبُ الكفَّارُ مِن وُصولِهم إليها.

وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً.

أي: ولا يُصيبونَ من الكفَّارِ مِن شَيءٍ قليلٍ أو كثيرٍ؛ من قتلٍ أو جراحٍ أو أسْرٍ، أو غنيمةٍ أو هزيمةٍ.

إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ.

أي: إلَّا كتَبَ اللهُ لهم بهذه الأعمالِ أعمالًا صالحةً وثوابًا جزيلًا.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((الخيلُ ثلاثةٌ: هي لرَجُلٍ وِزرٌ، وهي لِرَجُلٍ سِترٌ، وهي لرجُلٍ أجرٌ، فأمَّا التي هي له وِزرٌ، فرَجُلٌ ربطَها رياءً وفَخرًا ونِواءً[392] على أهلِ الإسلامِ، فهي له وِزرٌ، وأمَّا التي هي له سِترٌ، فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ اللهِ، ثمَّ لم ينسَ حَقَّ اللهِ في ظُهورِها ولا رِقابِها، فهي له سِترٌ، وأمَّا التي هي له أجرٌ، فرَجُلٌ ربَطَها في سبيلِ اللهِ لأهلِ الإسلامِ، في مَرجٍ ورَوضةٍ،[393] فما أكلَتْ من ذلك المَرجِ أو الرَّوضةِ مِن شَيءٍ إلَّا كُتِبَ له عددَ ما أكَلَت حَسَناتٌ، وكُتِبَ له عددَ أرواثِها وأبوالِها حَسَناتٌ، ولا تَقطَعُ طِوَلَها،[394] فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ،[395] إلَّا كتَبَ اللهُ له عدَدَ آثارِها وأرْواثِها حَسَناتٍ، ولا مَرَّ بها صاحِبُها على نهرٍ فشَرِبَت منه، ولا يريدُ أن يسقِيَها، إلَّا كتَبَ اللهُ له عدَدَ ما شَرِبَت حسناتٍ)).[396]

---

(392) نِوَاءً: أي: مُناوأةً ومُعاداةً.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (66/7).

(393) في مَرْجٍ: أي: مَرعًى، وهو الأرضُ الواسعةُ ذاتُ النَّباتِ الكثيرِ، (ورَوْضةٍ) عطفُ تفسيرٍ، أو الرَّوضةُ أخصُّ مِن المَرعَى.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (1265/4).

(394) طِوَلَها: أي: حَبلَها الطَّويلَ الذي شُدَّ أحَدُ طَرَفيه في يَدِ الفَرَسِ، والآخَرُ في وَتِدٍ أو غيره؛ لِتَدورَ فيه وترعى من جوانبِها، ولا تذهبَ لِوَجهِها.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (1266/4).

(395) استَنَّت: أي: جَرَت.

وشَرَفًا: أي: شَوطًا أو مَوضِعًا عاليًا مِن الأرضِ.

يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (492/3)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (1266/4).

(396) رواه البخاري (2860)، ومسلم (987) واللفظ له.

إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

أي: يُؤتَونَ تلك الأجورَ؛ لأنَّهم مُحسِنونَ، واللهُ لا يترُكُ إثابةَ مُحسِنٍ في عبادةِ اللهِ، مُحسِنٍ إلى عبادِ اللهِ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

وقال سُبحانه: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا [الكهف: 30].

وقال عزَّ وجَلَّ: نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [يوسف: 56].

وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (121).

وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ.

أي: ولا يُنفِقُ الغازونَ في سبيلِ اللهِ نَفقةً صَغيرةً ولا نَفَقةً كَبيرةً، ولا يُجاوِزونَ في غَزْوِهم واديًا ذاهِبينَ أو راجعينَ، إلَّا كُتِبَ لهم ثوابُ ذلك.

عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ جَبرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما اغبَرَّت قدَمَا عبدٍ في سبيلِ اللهِ فتمَسَّه النَّارُ)).(397)

لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ.

أي: كُتِب لهم ثوابُ عملِهم ذلك؛ ليَجْزيَهم اللهُ عليه، كأحْسنِ ما يَجزيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونَها.(398)

---

(397) رواه البخاري (2811).

(398) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/75).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (3/101)، ((تفسير النسفي)) (1/717)، ((تفسير الشوكاني)) (2/473)، ((تفسير القاسمي)) (5/528)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (11/62).

قال الواحدي: (قال أكثر المفسِّرينَ: هذه الآيةُ خاصَّةٌ في صُحبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والخروجِ معه، وقال الأوزاعي، وابن المبارك: هي لآخِرِ هذه الأمَّةِ وأوَّلِها).

((البسيط)) (11/92).

قال الرازي: (قال: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وفيه وجهان: الأول: أنَّ الأحسَنَ مِن صِفةِ فِعْلِهم، وفيها الواجِبُ والمندوبُ والمباحُ، واللهُ تعالى يجزِيهم على الأحسَنِ، وهو الواجِبُ والمندوبُ، دون المُباح.

والثاني: أنَّ الأحسَنَ صِفةٌ للجَزاءِ، أي: يَجزيهم جزاءً هو أحسَنُ مِن أعمالِهم وأجَلُّ وأفضَلُ، وهو الثَّوابُ).

((تفسير الرازي)) (16/170).

وقال محمد رشيد رضا: (النَّصُّ على جزائِهم أحسَنَ ما كانوا يعملونَ، لا ينافي جزاءَهم بما دونَه، وقد قال آنفًا: إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وهو فيه، وإنَّما المرادُ النصُّ على أنَّ هذا العمَلَ أحسَنُ أعمالِهم أو مِن أحسَنِها؛ لأنَّه جمَعَ بين الجهادِ بالمالِ، والجِهادِ بالنَّفسِ، وما قبلَه من الثَّاني فقط، والجزاءُ على الأحسَنِ يكونُ أحسَنَ منه، على قاعدةِ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا [النمل: 89] وبيانُ ذلك بقاعدةِ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا [الأنعام: 160] وقال بعضُهم: إنَّ معنى الجملةِ أنَّه تعالى يَجزيهم بكُلِّ عمَلٍ ممَّا ذُكِرَ أحسَنَ جَزاءٍ على أعمالِهم الحَسَنةِ، أي: في غيرِ الجهاد بالمالِ والنَّفسِ، بأن تكونَ النَّفَقةُ الصغيرةُ فيه كالنَّفَقةِ الكبيرةِ في غيره مِن المَبرَّاتِ، والمشَقَّةُ القليلةُ فيه كالمشَقَّةِ الكثيرةِ فيما عداه من الأعمالِ الصَّالحاتِ).

((تفسير المنار)) (11/62).

كما قال سبحانه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنجزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (122–123)

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ
يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

غريب الكلمات:

لِيَنْفِرُوا: أي: لِيخْرُجوا إلى الغزوِ، والنَّفْر: الانزعاجُ عن الشيءِ، وإلى الشيءِ، كالفَزَعِ إلى الشيءِ وعن الشيءِ، وأصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعدٍ.

يَلُونَكُمْ: أي: يَقرُبونَ منكم، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ.

تفسير الآيتين:

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122).

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً.

أي: وما ينبغي للمُؤمنينَ أن ينفِروا كلُّهم في وقتٍ واحدٍ للجهادِ في سَبيلِ اللهِ.[399]

فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ.

أي: فهلَّا نفَرَ مِن كُلِّ قَبيلةٍ أو أهلِ مَدينةٍ، جماعةٌ مِن المُسلِمينَ للقِتالِ، تحصُلُ بهم الكفايةُ؛ ليتأتَّى لجُملةِ المُؤمِنينَ القاعدينَ تعلُّمُ دِينِ اللهِ، والتفقهُ فيه.[400]

---

(399) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (475/2)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 486)، ((تفسير ابن الجوزي)) (311/2)، ((تفسير القرطبي)) (293/8)، ((تفسير ابن كثير)) (236/4)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (62/11)، ((تفسير السعدي)) (ص: 355).

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام في قوله تعالى: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً...: (فلولا هذه الآيةُ، لكان الجهادُ حَتمًا واجبًا على كلِّ مُؤمنٍ في خاصَّةِ نفسِه ومالِه، كسائرِ الفرائضِ، ولكِنَّ هذه الآيةَ جعلَت للنَّاسِ الرُّخصةَ في قيامِ بَعضِهم بذلك عن بعضٍ). ((الناسخ والمنسوخ)) (206/1).

(400) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (475/2)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 486)، ((تفسير القرطبي)) (294/8، 295)، ((تفسير القاسمي)) (528/5)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (62/11، 63)، ((تفسير السعدي)) (ص: 355).

وممَّن اختار هذا المعنَى المذكورَ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابن القيم– وعزاه للأكثرينَ– ومحمد رشيد رضا، والسعدي.

وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ.

أي: ولِيُعلِّمَ القاعدون قومَهم الذين نفَروا إلى الغزوِ، إذا رجَعوا إليهم، ويُخوِّفوهم ويَعِظوهم؛ رجاءَ أنْ يحذَروا عاقبةَ عصيانِ اللهِ، وألَّا يعملوا بخلافِ ما تعلَّموه.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (11/94)، ((تفسير القرطبي)) (8/295)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (4/189)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (1/56)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (11/63-64)، ((تفسير السعدي)) (ص: 355).

وممن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ- في روايةٍ عنه- وابنُ زيدٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/77)، ((تفسير ابن الجوزي)) (2/311).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: إذا رجعتِ السَّرايا، وقد نزَل بعدَهم قرآنٌ، وتعلَّمه القاعدونَ، قالوا لهم إذا رجَعوا: إنَّ اللهَ تعالى قد أنزلَ بعدكم على نبيِّكم قرآنًا، وقد تعلَّمناه.

فتتعلَّم السَّرايا ما أنزَل اللهُ على نبيِّهم بعدَهم، فذلك قولُه: وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ أي: وليعلِّموهم بالقرآنِ ويخوِّفوهم به، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ولا يعملونَ بخلافِه).

((البسيط)) (11/95).

قال محمد رشيد رضا: (إنَّ اعتبارَ طائفةِ السَّرِيَّةِ بما قدْ يحصلُ لها مِنَ النَّصرِ - وهو غيرُ مضمونٍ ولا مُطَّرِدٍ - لا يُسَمَّى تَفَقُّهًا في الدِّينِ وإنْ كان يدخلُ في عمومِ معنَى الفقهِ، فإنَّ التَّفَقُّه هو: التَّعَلُّمُ الَّذي يكونُ بالتَّكلُّفِ وَالتَّدرُّجِ والمُتبادرِ مِنَ الدِّينِ عِلْمُه، ولا يَصِحُّ هذا المعنَى في ذلك العهدِ إلَّا في الَّذينَ يبقَوْنَ معَ النَّبيِّ - صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - فيَزْدادونَ كلَّ يومٍ علمًا وفقهًا بنزولِ القرآنِ) ((تفسير المنار)) (11/64).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المعنى: (ليتفقَّهَ الطائفةُ النافرةُ بما تُعاينُ مِن نصرِ اللهِ أهلَ دينِه، وأصحابَ رسولِه على أهلِ عداوتِه والكفرِ به، فيفقهُ بذلك مِن معاينتِه حقيقةَ علمِ أمرِ الإسلامِ، وظهورِه على الأديانِ مَن لم يكنْ فقهَه).

((تفسير ابن جرير)) (12/82)، قال ابن الجوزي: (وهو أشبهُ بظاهرِ الآيةِ).

((تفسير ابن الجوزي)) (2/311).

وممن قال بذلك مِن السَّلف: الحسنُ البصريُّ.

ينظر ((تفسير ابن جرير)) الموضع السابق.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، ابدَؤوا في الغزوِ بقتالِ الكُفَّارِ القَريبينَ مِن ديارِكم.(401)

وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً.

أي: ولْيَجِدِ الكُفَّارُ المُحارِبونَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- شِدَّةً وخُشونةً منكم عندَ قِتالِهم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ [التوبة: 73].

وقال سبحانه: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [الفتح: 29].

---

(401) قال ابن كثير: (أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ أن يُقاتِلوا الكُفَّارَ أوَّلًا فأوَّلًا، الأقربَ فالأقرَبَ إلى حوزةِ الإسلامِ؛ ولهذا بدأ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقتالِ المُشركينَ في جزيرةِ العَرَب، فلمَّا فرَغَ منهم وفتحَ الله عليه مكَّةَ والمدينةَ، والطَّائِفَ واليَمَن واليَمامة، وهجَر وخيبَرَ وحَضْرَموت، وغيرَ ذلك من أقاليمِ جزيرةِ العَرَبِ، ودخل الناسُ من سائِرِ أحياءِ العَرَبِ في دينِ اللهِ أفواجًا- شرَعَ في قتالِ أهلِ الكِتابِ، فتجهَّزَ لغَزوِ الرُّومِ الذين هم أقربُ النَّاسِ إلى جزيرة العرب، وأَولى النَّاسِ بالدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لِكَونِهم أهلَ الكِتابِ، فبلغ تبوكَ، ثم رجعَ لأجلِ جهدِ النَّاسِ، وجَدْبِ البلادِ، وضِيقِ الحالِ).

((تفسير ابن كثير)) (4/237- 238).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/85-86).

وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ.

أي: وأيقِنُوا- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ اللهَ معكم بالنَّصرِ على أعدائِكم إن اتَّقَيتُموه، بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، ومن ذلك تَقواه في جِهادِكم.

سورةُ التَّوبةِ

الآيات (124–127)

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا
وَهُمْ كَافِرُونَ (125) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ
يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127)

تفسير الآيات:

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124).

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا.

أي: وإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مِن القُرآنِ على نبيِّه محَمَّدٍ، فمِنَ المُنافِقينَ مَن يقولُ لِغَيرِه؛[402] احتقارًا لِمَا أنزَلَ اللهُ: أيُّكم زادَتْه هذه السُّورةُ إيمانًا باللهِ وبآياتِه؟![403]

---

(402) قال ابن عطية: (أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا: يَحتمِل أن يكونَ لِمُنافِقينَ مِثلِهم، ويَحتمِل أن يكونَ لِقَومٍ مِن قراباتِهم من المؤمنين، يَستنيمونَ إليهم، ويَثِقونَ بِسَترِهم عليهم، ويطمعونَ في رَدِّهم إلى النِّفاقِ، ومعنى أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا الاستخفافُ والتَّحقيرُ لِشَأنِ السُّورة، كما تقولُ: أيُّ غريبٍ في هذا، أو أيُّ دَليلٍ؟!).

((تفسير ابن عطية)) (98/3).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ مخازيَ المُنافِقينَ وذكَرَ أعمالَهم القبيحةَ، فقال: وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ، فمِن المُنافِقينَ مَن يقول: أيُّكم زادَتْه هذه إيمانًا؟ واختلفوا فقال بعضهم: يقولُ بعضُ المُنافِقينَ لبعضٍ، ومقصودُهم تَثبيتُهم قومَهم على النِّفاقِ.

وقال آخرون: بل يقولونَه لأقوامٍ مِن المُسلمينَ، وغرَضُهم صَرْفُهم عن الإيمانِ.

وقال آخرون: بل ذكَروه على وجهِ الهُزءِ.

والكلُّ مُحتمَلٌ، ولا يُمكِنُ حَملُه على الكُلِّ؛ لأنَّ حِكايةَ الحالِ لا تُفيدُ العُمومَ).

((تفسير الرازي)) (174/16).

(403) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (88/12)، ((البسيط)) للواحدي (98/11)، ((تفسير ابن عطية)) (98/3)، ((تفسير الرازي)) (174/16)، ((تفسير السعدي)) (ص: 356).

قال الواحدي: (فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ يعني: من المُنافِقين.

قاله جميعُ أهلِ التَّفسيرِ).

((البسيط)) (98/11).

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

أي: فأمَّا المُؤمِنونَ فزادَتْهم السُّورةُ– التي أنزَلَها اللهُ– إيمانًا إلى إيمانِهم وهم فَرِحونَ بفَضْلِ اللهِ، وما أنزَلَ عليهم في القُرآنِ مِن الهُدى والرَّحمةِ، والوَعدِ بالخَيرِ في الدُّنيا والآخرةِ.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [يونس: 57–58].

وقال سُبحانه: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل: 89].

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ (125).

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ.

أي: وأمَّا الذينَ في قُلوبِهم شكٌّ ونِفاقٌ، فزادَتْهم السُّورةُ– التي أنزَلَها اللهُ– كُفرًا إلى كُفرِهم، وشكًّا إلى شَكِّهم.

كما قال تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [الإسراء: 82].

وقال سُبحانه: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت: 44].

وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ.

أي: وماتَ المُنافِقون وهم مُصِرُّونَ على كُفرِهم، لم يتوبوا إلى اللهِ.

أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126).

أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ أَوَلَا تَرَوْنَ بالتَّاءِ، ويكونُ الخِطابُ للنبيِّ - ﷺ - وأصحابِه، بمعنى: أوَلَا تَرَونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ المُنافِقين يُفتَنونَ في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ؟![404]

2- قراءةُ أَوَلَا يَرَوْنَ بالياءِ، ويكونُ الضَّميرُ عائدًا على المُنافِقينَ، بمعنى: أوَلا يَرى المُنافِقونَ أنَّهم يُفتَنونَ في كلِّ عامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ؟![405]

---

(404) قرأ بها حمزةُ ويعقوبُ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (281/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (90/12)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 178)، ((معاني القراءات)) للأزهري (467/1)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي (502/1-503).

(405) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (91/12)، ((تفسير البغوي)) (407/2)، ((تفسير ابن كثير)) (240/4).

اختلَف أهلُ التأويلِ في معنَى الفتنةِ التي ذكَر الله أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ يُفتنونَ بها، فقيل: هي اختبارُ الله إيَّاهم بالقحطِ والشِّدَّةِ.

وقيل: هي اختبارُهم بالغزوِ والجهادِ.

وقيل: هي اختبارُهم بما يُشيع المشركون مِن الأكاذيبِ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه.

وقيل غير ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (91/12)، ((تفسير الرازي)) (176/16).

أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ.

أي: أوَلا يرى المُنافِقون أنَّ اللهَ يَختَبِرُهم في بعضِ الأعوامِ مرَّةً، وفي بعض الأعوامِ مرَّتينِ؟!

ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ.

أي: ثمَّ لا يتوبونَ عن ذُنوبِهم رغمَ البلاءِ الذي يُصيبُهم اللهُ به في كلِّ عامٍ، ولا هم يتَّعِظونَ فيَرجِعونَ إلى اللهِ!!

قال ابنُ جريرٍ بعدَ أن ذكَر هذه الأقوالَ: (وأَولَى الأقوالِ في ذلك بالصحَّةِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ عجَّبَ عِبادَه المؤمنينَ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ، ووبَّخَ المُنافِقين في أنفُسِهم بقِلَّةِ تذَكُّرِهم، وسُوءِ تنبُّهِهم لِمَواعِظِ اللهِ التي يَعِظُهم بها، وجائزٌ أن تكونَ تلك المواعِظُ الشَّدائِدَ التي يُنزِلُها بهم من الجُوعِ والقَحطِ، وجائزٌ أن تكونَ ما يُريهم مِن نُصرةِ رَسولِه على أهلِ الكُفرِ به، ويَرزُقُه من إظهارِ كَلِمتِه على كَلِمتِهم، وجائزٌ أن تكونَ ما يظهَرُ للمُسلِمينَ مِن نِفاقِهم، وخُبثِ سَرائِرِهم؛ بركونِهم إلى ما يَسمعونَ مِن أراجيفِ المُشرِكينَ بِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، ولا خبَرَ يُوجِبُ صِحَّةَ بعضِ ذلك دونَ بَعضٍ، مِن الوَجهِ الذي يجِبُ التَّسليمُ له، ولا قولَ في ذلك أَولَى بالصَّوابِ مِن التَّسليمِ لِظاهِرِ قَولِ اللهِ).

((تفسير ابن جرير)) (93/12).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (312/2).

وقال ابن عاشور: (الفتنةُ: اختلالُ نِظامِ الحالةِ المُعتادة للنَّاسِ واضطرابُ أمرِهم، مثل الأمراضِ المُنتَشِرةِ، والتَّقاتُلِ، واستمرار الخَوفِ...

فمعنى أنَّهم يُفتَنونَ أنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عليهم المصائِبَ والمضارَّ، تنالُ جَماعتَهم ممَّا لا يُعتادُ تَكَرُّرُ أمثالِه في حياة الأمَمِ، بحيث يدُلُّ تكرُّرُ ذلك على أنَّه مرادٌ منه إيقاظُ اللهِ النَّاسَ إلى سوءِ سِيرتِهم في جانبِ اللهِ تعالى؛ بعَدَمِ اهتدائِهم إلى الإقلاعِ عمَّا هم فيه مِن العِنادِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّهم لو رُزِقوا التَّوفيقَ لأفاقوا مِن غَفلَتِهم، فعَلِموا أنَّ ما يَحُلُّ بهم كلَّ عامٍ، ما طرأ عليهم إلَّا مِن وَقتِ تلبُّسِهم بالنِّفاقِ، ولا شكَّ أنَّ الفِتنةَ التي أشارت إليها الآيةُ كانت خاصَّةً بأهلِ النِّفاقِ مِن أمراضٍ تَحُلُّ بهم، أو متالِفَ تُصيبُ أموالَهم، أو جوائحَ تصيبُ ثِمارَهم، أو نقصٍ مِن أنفُسِهم ومواليدِهم، فإذا حصَلَ شَيئانِ مِن ذلك في السَّنةِ كانت الفِتنةُ مَرَّتينِ).

((تفسير ابن عاشور)) (67/11).

كما قال تعالى: فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 43].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ [المؤمنون: 76].

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون (127).

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ.

أي: وإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مِن القُرآنِ فيها فضحُ أسرارِ المُنافِقينَ، نظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ وقالوا خُفيةً أو بالإشارةِ المُفهِمةِ: هل يراكم أحَدٌ إذا خلوتُم، ودبَّرتُم أُمورَكم، فينقُلُ كَلامَكم إلى محمَّدٍ، ويُطلِعُه على أسرارِنا؟!

ثُمَّ انصَرَفُواْ.

أي: ثمَّ انصرَفَ المُنافِقونَ عن الاهتداء بما سَمِعوا في السُّورةِ التي أنزَلَها اللهُ على رسولِه، ولم يَهتَدوا مع إخبارِ القُرآنِ بأسرارِهم.

وقيل: المعنى: ثم انصرَف المنافقونَ مِن عندِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون.

أي: صرَفَ اللهُ قُلوبَ المُنافِقين عن الانتفاعِ بتلك السُّورة، وصَرَفَهم عن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وخَذَلَهم وأضلَّهم؛ بسبَبِ أنَّهم قومٌ لا يَفهَمونَ كِتابَ اللهِ، ويتكبَّرونَ عن سَماعِ آياتِه والعمَلِ بها.

كما قال تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: 22–23].

وقال سبحانه: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف: 5].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ [المُنافِقون: 7].

سورةُ التَّوبةِ

الآيتان (128–129)

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129))

غريب الكلمات:

عَزِيزٌ: أي: شديدٌ أو صَعْبٌ، وأصلُ (عز): يدلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ.

ما عَنِتُّمْ: أي: ما شَقَّ عليكم وآذاكم، والعَنَتُ: لِقاءُ الشِّدَّةِ؛ من قولهم: عَنِتَ فُلانٌ: إذا وقَعَ في أمرٍ يُخافُ منه التَّلَفُ، وأصلُ (عنت): يدلُّ على مشقَّةٍ.

تَوَلَّوْا: أي: أعرَضوا؛ فالتولي إذا وُصِلَ بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا- كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ.

تفسير الآيتين:

لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (128) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129).

عن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: إنَّك كنت تكتُبُ الوحيَ لِرَسولِ اللهِ - ﷺ -، فاتَّبعِ القُرآنَ، فتتَبَّعتُ حتى وجدْتُ آخِرَ سورةِ التَّوبةِ آيتَينِ مع أبي خُزيمةَ الأنصاريِّ، لم أجِدْهما مع أحَدٍ غَيرِه: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)).[406]

لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (128).

---

(406) رواه البخاري (4989).

قال محمد رشيد رضا: (المرادُ أنَّه لم يجِدْهما مَكتوبتَينِ عندما جمَعَ المكتوبَ في الرِّقاعِ والأكتافِ والعُسُبِ في هذه السُّورة، إلَّا عند خُزيمةَ، وفي روايةٍ في البخاري وغيره: عند أبي خزيمة، وهي أرجَحُ).

((تفسير المنار)) (74/11).

ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (15/9).

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ.

أي: لقد أرسَلَ اللهُ إليكم– أيُّها العرَبُ– مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ، عربيًّا منكم، تَعرِفونَ لُغتَه ونَسَبَه فيكم، وحالَه ونُصحَه لكم.

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نبيِّه إبراهيمَ: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [البقرة: 129].

وقال عزَّ وجَلَّ: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الجمعة: 2].

وعن واثِلةَ بنِ الأسقَعِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله – ﷺ – يقولُ: ((إنَّ اللهَ اصطَفَى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفى قُرَيشًا مِن كِنانةَ، واصطفى مِن قُرَيشٍ بَني هاشِمٍ، واصطفاني مِن بني هاشِمٍ)).(407)

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ.

أي: يَشُقُّ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دخولُ المشقَّةِ عليكم، ولحوقُ الضررِ والأذى بكم.

---

(407) رواه مسلم (2276).

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - تلا قَولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ في إبراهيمَ: رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [إبراهيم: 36] ، وقال عيسى عليه السَّلامُ: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [المائدة: 118] ، فرفَعَ يَدَيه وقال: اللهُمَّ أُمَّتي أُمَّتي، وبكى، فقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يا جِبريلُ اذهَبْ إلى محمَّدٍ- وربُّك أعلَمُ- فسَلْه: ما يُبكيك؟! فأتاه جبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فسأله، فأخبَرَه رسولُ اللهِ - ﷺ - بما قال- وهو أعلمُ- فقال اللهُ: يا جِبريلُ، اذهَبْ إلى محمَّدٍ، فقل: إنَّا سنُرضيك في أمَّتِك، ولا نَسوءُك)).(408)

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: ((إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلَّا غلَبَه، فسَدِّدوا وقارِبوا، وأبشِروا، واستَعِينوا بالغُدوةِ والرَّوحةِ،(409) وشَيءٍ من الدُّلْجةِ)(410).(411)

(408) رواه مسلم (202).

(409) الغُدْوَة: أولُ النَّهارِ، والرَّوْحَة: آخِرُه.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (2/280).

(410) الدُّلْجَة: أي: السَّيرُ في آخِرِ اللَّيلِ.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (2/280)

(411) رواه البخاري (39).

حَرِيصٌ عَلَيْكُم.

أي: حريصٌ على هِدايتِكم، وإيصالِ الخَيرِ لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم.

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((تَرَكْنا رسولُ الله - ﷺ -، وما طائرٌ يقَلِّبُ جناحَيه في الهواءِ، إلَّا وهو يُذَكِّرُنا منه عِلْمًا، قال: فقال - ﷺ -: ما بَقِيَ شيءٌ يُقَرِّبُ منَ الجنَّةِ، ويُباعِدُ مِن النَّارِ، إلَّا وقد بُيِّنَ لكم)).[412]

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((إنَّما مَثَلي ومَثَلُ أمَّتي، كمَثَلِ رَجُلٍ استوقَدَ نارًا، فجعَلَتِ الدَّوابُّ والفَراشُ يَقَعْنَ فيه، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم[413] وأنتم تَقَحَّمونَ فيه[414])).[415]

---

(412) أخرجه الطبراني (2/155) (1647)، وأخرج ابن حبان (65) أولَه فقط بنحوِه.
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (8/266): رجاله رجالُ الصَّحيحِ، غيرَ محمَّدِ بن عبد الله بن يزيد المُقرئ، وهو ثقة، وصحح إسناده ووثق رجالَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (1803).
(413) الحُجَزُ: جمعُ حُجزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ والسَّراويل.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (15/50).
(414) تقحَّمونَ: أي: تَرمونَ أنفُسَكم في النَّارِ بفِعلِ المعاصي.
يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (1/155).
(415) رواه البخاري (6483)، ومسلم (2284) واللفظ له.

وعن العِرباضِ بنِ سارِيةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((وعَظَنا رسولُ اللهِ - ﷺ - موعِظةً ذرفَت منها العُيونُ، ووَجِلَت منها القُلوبُ، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذه لَموعِظةُ مُودِّعٍ، فماذا تعهَدُ إلينا؟ قال: قد ترَكْتُكم على البَيضاءِ ليلُها كنهارِها، لا يَزيغُ عنها بعدي إلَّا هالِكٌ)).(416)

بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ.

أي: هو شَديدُ الرقَّةِ والرِّفقِ والشَّفَقةِ بالمؤمنينَ، شديدُ الرَّحمةِ بهم.

كما قال تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ [آل عمران: 159].

وقال سُبحانه: وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 215].

وقال عزَّ وجلَّ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [الفتح: 29].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنَّا نُبايعُ رسولَ اللهِ - ﷺ - على السَّمعِ والطَّاعةِ، يقول لنا: فيما استطعْتَ)).(417)

---

(416) أخرجه ابن ماجه (43)، وأحمد (17182).

حسَّن إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (68/1)، وقال الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (2229/5): ثابتٌ، ورجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (43).

(417) رواه مسلم (1867).

وأخرج البخاري (7204)، ومسلم (56) قريبًا منه من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

وعن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى رضي الله عنه، قال: ((كان النبيُّ – ﷺ – لا يأنَفُ أو لا يستكبِرُ أن يمشِيَ مع الأرملةِ والمِسكينِ، فيقضِيَ له حاجَتَه)).(418)

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ أعرابيًّا بال في المسجِدِ، فقام إليه بعضُ القَومِ، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: دَعُوه ولا تُزرِمُوه قال: فلمَّا فرغَ دعا بدَلوٍ مِن ماءٍ، فصَبَّه عليه)).(419)

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129).

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ.

أي: فإنْ أعرَضَ الكفَّارُ والمُشرِكونَ عن الإيمانِ بك وطاعَتِك– يا مُحمَّدُ– فقل: يكفيني اللهُ جميعَ ما أهمَّني، وهو ناصري على عدُوِّي، لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وَحْدَه لا شريكَ له.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

أي: على اللهِ وَحْدَه اعتمَدْتُ، وإليه استنَدْتُ، وفوَّضتُ جميعَ أموري، واللهُ هو مالِكُ العَرشِ العظيمِ وخالقُه، ومالكُ وخالقُ جميعِ ما دونَه مِن المخلوقاتِ.

كما قال تعالى: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا [المزمل: 9].

---

(418) أخرجه الترمذي في ((العلل الكبير)) (670) واللفظ له، والنسائي (1414)، والدارمي (74)، وابن حبان (6424). حسَّنه البخاري كما في ((العلل الكبير)) للترمذي (360)، وصحح إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (243/2)، وابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (303)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (1414).

(419) رواه البخاري (6025)، ومسلم (284)، واللفظ له.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - كان يقولُ عند الكَربِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ العَرشِ العظيمِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمواتِ وربُّ الأرضِ، وربُّ العَرشِ الكريمِ)).(420)

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((من قال إذا أصبحَ وإذا أمسى حسبيَ اللهُ لا إلهَ إلَّا هو، عليه توكلتُ وهو ربُّ العَرشِ العظيمِ- سبعَ مرَّاتٍ- كفاه اللهُ ما أهمَّه)).(421)

---

(420) أخرجه البخاري (6346)، ومسلم (2730).

(421) أخرجه أبو داود (5081)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (150/36).

قال الشوكاني في ((تحفة الذاكرين)) (120): مدركُ بنُ سعدٍ لا بأسَ به، وقال ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (9/294): موقوفٌ إسنادُه جيدٌ، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة)) (11 /450): إسنادُ الموقوفِ رجالُه ثقاتٌ.

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثامنُ

ويليه المجلدُ التاسعُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يونسَ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

المُغْنِي في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا